الدكتور حسن حنفي

جمال الدين الأفغاني

المائوية الأولى

(١٨٩٧ - ١٩٩٧)



دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب

جمال الدين الأفغاني

المائوية الأولى

(١٨٩٧ - ١٩٩٧)

جمال الدين الأفغاني

المائوية الأولى

(١٨٩٧ - ١٩٩٧)

الدكتور حسن حنفي

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــــاب : جمال الدين الأفغانى "المائوية الأولى ١٨٩٧-١٩٩٧"

المؤلـــــــف : الدكتور حسن حنفى

تاريخ النشر : ١٩٩٨م

الناشـــــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

والمطابـــــع المنطقة الصناعية (CI)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨

التـــوزيـــــع : ١٠ ش كامل صدقى (الفجالة) – القاهرة

رقـم الإيـــداع : ٩٧/٨٨٠٤

الترقيـم الدولـى : ISBN

977-5810 - 52-3

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى أنصار الإسلام الثورى.

الخطاب الثالث الغائب.

فى عصر الاستقطاب الفكرى.

حسن حنفى

مدينة نصر، نوفمبر ١٩٩٧

مقـــــدمــة

لـم أشـأ أن تمـر الذكـرى المائويـة الأولـى لجمـال الديـن الأفغـانى (١٨٩٧-١٩٩٧) دون أن أحييها بكتيب حماسى بالرغم من معاناتى من الانشائية السائدة فـى خطاب مشروع "**التراث والتجديد**" والذى لم يستطع المحافظة علـى القـول البرهـانى فـي "**مـن العقيـدة إلـى الثـورة**"، وبـالرغم مـن وجـود منـابر خطابيـة لـه فـى "**الديـن والثورة فى مصر**" و"**اليسار الاسلامى**" [١].

ومـع ذلـك، رأيـت أنـه مـن النفـع العـام تخصيـص جـزء مـن العمـر، وتـرك الصياغة الأخيرة من "**من النقل إلى الإبداع**" الذى بدأت فيه منذ أكتوبـر ١٩٨٤ ولـم يصدر حتى الآن نظراً لاشتغالى من جديد بالحياة الثقافيـة فـى عصـر تفكك الوطـن والاستقطاب الثقـافي بيـن الخطـاب السـلفى والخطـاب العلمـانى[٢]، لإحيـاء الذكـرى المائوية الأولى لجمال الديـن الأفغـانى رائـد الحركـة الإصلاحيـة الحديثـة ومؤسـس

---

[١] الدين والثورة في مصر (١٩٥٢-١٩٨٨) ثمانيـة أجـزاء ١- الديـن والثقافـة الوطنيـة ٢- الديـن والتحـرر الثقافـى ٣- الدين والنضال الوطنى ٤- الـدين والتنمية القوميـة ٥- الحركـات الاسلاميـة المعاصـرة ٦-الأصولية الإسلامية ٧- اليميـن واليسـار فـى الفكـر الدينـى ٨- اليسـار الإسـلامى والوحـدة الوطنيـة، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩.

اليسار الإسلامى، كتابات فى النهضة الإسلامية أو العروة الوثقى الجديدة. المركز العربى للبحـث والنشـر، القاهرة ١٩٨٠.

[٢] في هذه الاثناء صدر لى :

١- حوار المشرق والمغرب مع الصديق محمد عابد الجابرى، دارتوبقال، الـدار البيضـاء، ١٩٩٠، مدبولـى ١٩٩١.

٢- مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١.

٣- الإسلام فى العصر الحديـث (جـزءان) الأول "الديـن والأيديولوجيةوالتنميـة"، والثـانى، "التراث والثـورة والثقافة"، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٥ (بالانجليزية).

٤- هموم الفكر والوطن (جزءان) ، الأول "التراث والحداثة والعصر"، والثانى "الفكر العربى المعـاصر"، دار قباء للطباعة، القاهرة ١٩٩٨.

٥- حوار الأجيال، القاهرة، دار قباء للطباعة، القاهرة ١٩٩٨.

المدرسة المصرية بعد أن كبت حركة الإصلاح جيلا وراء جيل، من الأفغانى إلى محمد عبده بسبب فشل الثورة العرابية، ومن محمد عبده إلى رشيد رضا بسبب نجاح الثورة الكمالية فى ١٩٢٣ وإلغاء الخلافة، ومن رشيد رضا إلى حسن البنا واغتياله فى ١٩٤٩والصدام بين الإخوان والثورة فى ١٩٥٤ وتحول سيد قطب من "**العدالة الاجتماعية فى الإسلام** " و "**معركة الإسلام والرأسمالية**" و "**السلام العالمى والإسلام**" إلى "**معالم فى الطريق**"، وانتهاء الحركة الاصلاحية إلى الحركات الاسلامية المعاصرة مثل جماعة الجهاد وكتابات محمد عبد السلام فرج وعمر عبد الرحمن، وضعف الإسلام المستنير وعدم قدرته على تكوين تيار مستقل أو جناح ليبرالى فى حركة الإخوان المسلمين بالرغم من وجود بعض الأقلام المتميزة وعلى ما بينها من تنوع واختلاف(١) .

وقد يكون هذا آخر عهدى بالكتابات الشعبية بعد أن تضخمت على حساب كتاباتى العلمية. وقد أزمعت، وأرجو أن تساعد الظروف، ظروف مصر والعالم العربي، على أن أخصص ما بقى من عمر لاتمام باقى أجزاء مشروع "**التراث والتجديد**" بجبهاته الثلاث. وأرجو أن تكون دار قباء للطباعة والنشر خير ختام لتعدد الناشرين ويسر التعامل معهم.

حسن حنفى

مدينة نصر، نوفمبر ١٩٩٧

(١) مثل د. كمال أبو المجد، د. محمد أحمد خلف الله، د. محمد عمارة، المستشار طارق البشرى، الاستاذ فهمى هويدى، د. محمد سليم العوا، والمجموعة المؤسسة لحزب الوسط (تحت التأسيس) وغيرهم داخل مصر وخارجها فى تونس ولبنان وشبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا والاردن، خاصة مجموعة "**المسلم المعاصر**" ومجموعة ٢١/١٥. جماعة الإسلاميين التقدميين فى تونس.

الفصل الأول

الموضوع والمنهج

١- دلالة الأفغانى

جمال الدين الأفغانى هو رائد الحركة الإصلاحية، وباعث النهضة الإسلامية كما هو مسطور على شاهده فى كابول. وهو أول من صاغ المشروع الإصلاحى الحديث فى النصف الثانى من القرن الماضى، الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل. وبفضل تعاليمه اندلعت الثورة العرابية وعبرت بلسان عرابى أمام الخديوى توفيق فى ساحة قصر عابدين "**أن الله خلقنا أحراراً ولم يخلقنا عقاراً، والله لا نورّث بعد اليوم**". وهو رافع شعار "**مصر للمصريين**"، فكان الأب الروحى للحزب الوطنى المصرى والذى كتب برنامجه تلميذه محمد عبده. وهو وأول من صاغ مفاهيم الوحدة فى العصر الحديث وبؤرتها مصر، الدولة ــ القاعدة. مصر وجنوبها، مصر والسودان، وحدة وادى النيل. مصر وغربها، وحدة المغرب العربى. مصر وشمالها، وحدة مصر وسوريا، مصر والشام. مصر وشرقها، وحدة مصر وشبه الجزيرة العربية. مصر ومحيطها، الوحدة العربية. مصر وجناحها الشرقى فى الجامعة الشرقية. مصر كعبة الاسلام ومنارة الأزهر الشريف فى الوحدة الإسلامية الشاملة. ولما أعادت الصحوة الإسلامية الحالية للإسلام حيويته من جديد، وأعادت الحركة الإصلاحية، الإسلام الثورى، فعاليتها فى المقاومة الإسلامية فى فلسطين وجنوب لبنان وأفغانستان قبل أن تتحول المقاومة الأفغانية ضد الاحتلال السوفيتى إلى حرب أهلية ومقاومة البوسنة والهرسك العدوان الصربى ظهرت دلالة الأفغانى فى ذكراه المائوية الأولى، لحاقاً به بعد أن كانت النتائج تتناقض مع المقدمات، وأصبح الجيل السادس من الاصلاحيين على طرف نقيض من جيل الرواد الأوائل، وبعد أن كان يطويه النسيان لأنه لم يعد موضوع اهتمام فى عصر الاستقطاب فى الخطاب السياسى

الحالى بين السلفيين والعلمانيين، صراعاً على السلطة وليس تأصيلا للفكر حتى انقسمت الأمة إلى فريقين متقاتلين متخاصمين، يتبادلان تهم التكفير والتخوين، والعدو يحاصر من على الأبواب، ويحكم الحصار يوماً وراء يوم.

من الأفغانى تبدأ كبوة الإصلاح. فبعد أن أسس حركة إسلامية ثورية لتحرير العالم الإسلامى وتوحيده بشعار بسيط وواضح، الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل وانتشرت تعاليمه عند بعض رجال الدين وضباط الجيش والأدباء والمفكرين المهاجرين من الشام اندلعت الثورة العرابية فى مصر للمطالبة بالحرية والدستور والمساواة بين الوطنيين والأجانب. واستمرت روحها عند عبد الله النديم. خطيب الثورة، متخفياً عشرات السنين[١].

ولما فشلت الثورة العرابية واحتلت مصر، ونفى عرابى ورفاقه إلى سرنديب فى المحيط الهندى ارتد تلميذه محمد عبده، وندم على اشتراكه فى هوجة عرابى وفتنة العرابيين[٢]. ونفى إلى بيروت استاذاً فى جمعية المقاصد الإسلامية معززاً مكرماً. فقد كان صديقاً للورد كرومر. وآثر محمد عبده التحول من السياسة إلى التربية، ومن الثورة السياسية إلى التغير الاجتماعى، ومن النفس القصير إلى النفس الطويل ابتداء من إصلاح اللغة العربية والمحاكم الشرعية والتحول بالوقائع المصرية من ثبت للقوانين إلى مقالات نقدية إصلاحية.ومع ذلك قامت ثورة ١٩١٩ بفضل تلاميذه مثل سعد زغلول، وبدأت حركة تحرر المرأة المصرية بفضل قاسم أمين، وبداية الليبرالية السياسية بفضل على عبد الرازق، والنقد الجديد بفضل طه حسين والعودة إلى التراث الفلسفى بفضل مصطفى عبد الرازق.

---

(١) انظر دراستنا : كبوة الإصلاح فى "دراسات فلسفية"، الانجلو مصر القاهرة ١٩٨٧ ص١٧٧-١٩٠.

(٢) يقول الأفغانى عن محمد عبده "ثم كان ما كان من الثورة العرابية فبذل جهده فى اقناع أهلها بسوء عاقبتها حتى هموا كثيراً بقتله "العروة الوثقى، باريس ١٣ ماريس ١٨٨٤-١٩ أكتوبر ١٨٨٤، جزءان فى مجلد واحد، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٤ ص ك.

ولما قامت الثورة الكمالية فى تركيا، وانتصرت القومية الطورانية على الجامعة الاسلامية، وحزب الاتحاد والترقى على حزب الاصلاحيين، وتركيا الفتاة على الخلافة حدث رد فعلى سلفى عند رشيد رضا تلميذ محمد عبده خوفاً من تكرار التجربة التركية فى باقى أرجاء العالم الاسلامى. فدافع عن الامامة أوالخلافة العظمى ضد العلمانية التركية، ودافع عن الوحى المحمدى ضد العقلانية العلمية الغربية، وحاجج الاسلام ضد شبهات النصارى . فارتدت الحركة الاصلاحية مرة ثانية من السلفية المجاهدة عند الأفغانى إلى السلفية المحافظة عند محمد بن عبد الوهاب الذى رده إلى ابن تيمية الذى رده بدوره إلى أحمد بن حنبل باسم النص. وتحولت الدولة ــ القاعدة من مصر إلى السعودية، ومن الدستور والبرلمان إلى القبيلة والاسرة.

ولما أراد حسن البنا تلميذ رشيد رضا فى دار العلوم العودة إلى تعاليم الرائد الأول، الإسلام المجاهد، وتحقيق حلمه لتأسيس حزب اسلامى ثورى يقوم بتحقيق الأيديولوجية الاسلامية الثورية أسس "**الإخوان المسلمين**" فى الإسماعيلية وعلى ضفاف القناة وأمام جنود الاحتلال الإنجليزى فى الشرقية، وقيادتها فى التل الكبير. وأصبحت الجماعة بعد الوفد أكبر تنظيم سياسى شعبى فى الاربعينات قبل الثورة المصرية وبعدها بسنتين. ولما اغتيل حسن البنا فى ١٩٤٩ وبداية تكوين التنظيم السرى، وبعد الصدام بين قيادة الإخوان والضباط الأحرار فى ١٩٥٤ واستشهاد بعض قياداتهم ونزول الإخوان تحت الأرض وتعذيبهم فى السجون نشأ جيل جديد منهم رافض غاضب. يود الانتقام من المجتمع والثأر من النظم العلمانية الليبرالية والقومية والماركسية خاصة بعد أن تحول سيد قطب فى السجن وتحت أهوال التعذيب من "**العدالة الاجتماعية فى الاسلام**" و"**معركة الاسلام والرأسمالية**" و"**السلام العالمى والإسلام**" إلى "**معالم فى الطريق**" الذى يكفر المجتمع ويقسمه إلى إيمان وكفر، اسلام وجاهلية، إيمان وطاغوت. ويدعو إلى حاكمية الله ضد حاكمية البشر تحت تأثير المودودى وكأنهما متناقضان. ولا علاقة بين الاثنين إلا بقضاء

أحدهما على الآخر. ولايقضى على الكفر والجاهلية والطاغوت إلا جيل قرآنى فريد تحت شعار "لا إله إلا الله". فارتدت الحركة الإصلاحية مرة ثالثة لتكوّن جيل الجماعات الإسلامية الحالية. تمارس العنف، وتحمل السلاح، وتكفّر حتى الخارجين عليها. فالحق المطلق لا يقبل المساومة أو الحوار (1).

وإلى الأفغانى تعود الفعالية للحركة الإسلامية المعاصرة فى أفغانستان أثناء حرب الاستقلال ضد الغزو السوفيتى قبل أن تتحول إلى حرب أهلية بين الفرق، كل منها يظن أنه الفرقة الناجية، وفى البوسنة والهرسك بالرغم من عجز المسلمين على مدى ثلاث سنوات وانتظار القطب الأوحد فى العالم لإنهاء الصراع على حساب المسلمين، وفى لبنان وفلسطين ضد الاحتلال الإسرائيلى دون استثارة الأفغانى وليبراليته ودعوته إلى حرية الفكر والنظم البرلمانية والدستور. فقد بعدت المسافة بين ليبرالية القرن الماضى وأوائل القرن، منذ ثورة ١٨٨٢ حتى ثورة ١٩١٩ وبين هذا الجيل بعد أن قضت الثورات العربية الأخيرة منذ أوائل الخمسينات على النظم الليبرالية العربية، وغابت عن النظم الملكية الوراثية التى ترسخت بعد انحسار المد الثورى العربى، وبالرغم من أشكال الديمقراطية فى مجالس الشورى والشعب والأمة والبرلمان والتعددية الحزبية فى بعض الأقطار.

ويبدو أن طول اضطهاد الحركة الاسلامية واستبعادها من العمل الوطنى على مدى نصف قرن حولها إلى حركة مناهضة تقابل الإقصاء بالإقصاء، والرفض بالرفض، والاستبعاد بالاستبعاد، وتواجه العنف بالعنف، والسلاح بالسلاح. لا تفرق بين العدو الخارجى، الاستعمار والصهيونية، وبين العدو الداخلى، الملكية والعسكرية. ولاتفرق بين المرحلتين التاريخيتين، مرحلة التحرر الوطنى ضد الاستعمار، ومرحلة التحرر الاجتماعى ضد التخلف وبعد استقلال الدول. بل يعطى البعض الأولوية للنضال ضد الداخل على النضال ضد الخارج ولتحرير الأنظمة

---

(1) انظر دراستنا "أثر أبى الأعلى المودودى على الجماعات الدينية المعاصرة" و "أثر الإمام الشهيد سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة" فى "الدين والثورة فى مصر "جـ ٥" الحركات الإسلامية المعاصرة"، مدبولى ، القاهرة ١٩٨٩ ص ١٢٣-١٦٦ ص١٦٧ - ٣٠٠.

العربية من الطاغوت على تحرير فلسطين من الاستعمار الاستيطانى. اذ ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، فى حين أن القرآن أيضاً أعطى الأولوية للنضال ضد الخارج على النضال ضد الداخل، ﴿أشداء على الكفار، رحماء بينهم﴾، وجاعلين الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، والجهاد الأصغر هو الجهاد ضد العدو الخارجى بالرغم من تحذير الاخوان الأوائل من سوء تأويل الأحاديث وعدم التيقن من صحتها لخطورتها على الجهاد ضد الاستعمار والصهيونية.(١)

وتظهر دلالة الأفغانى فى عصر الاستقطاب بين خطابين سائدين فى الفكر العربى المعاصر، الخطاب السلفى الذى يعرف كيف يقول ولا يعرف ماذا يقول، والخطاب العلمانى الذى يعرف ماذا يقول ولا يعرف كيف يقول. إذ يقدم الأفغانى الخطاب الثالث الذى يعرف كيف يقول ويعرف ماذا يقول. وهو الخطاب الذى حاول "**اليسار الإسلامى**" اعادة صياغته فى أوائل الثمانينات فى بداية الاستقطاب. أما وأن الاستقطاب تحول إلى حرب أهلية فى الجزائر واراقه الدماء بالآلاف، دماء الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ والشباب، وأصبح يهدد تركيا بالنزاع بين الجيش وحزب رافاه، ويثير القلاقل فى مصر واليمن والخليج وليبيا ولدرجة الكبت فى سوريا والعراق والمغرب وتونس فقد أصبحت دلالة الخطاب الثالث عند الأفغانى، الاسلام الوطنى أو الاسلام الثورى أو الاسلام السياسى، ملحة للغاية فى الداخل والخارج، وفى عصر التحول من قرن مضى إلى قرن آت.

وظهرت محاولات لتشويه صورة الأفغانى فى جيلنا من أجل قطع جذور نضالنا الوطنى والقضاء على الاسلام الثورى ابقاء للاستقطاب بين الاسلام السلفى والثورة العلمانية الغربية، والفتور من الأول والاعجاب بالثانية، وحتى يبقى الباحث وحده مثالا للوطنية ورافعاً شعار "**مصر للمصريين**" بمضمونه العلمانى وليس الاسلامى الوطنى وربما بمضمونه القبطى ودرءا لمخاطر الثورة الاسلامية فى ايران التى اصبحت محط جذب للشعوب العربية الاسلامية. فالثائر لا يكون ألا غربياً. والاسلامى لا يكون ألا متخلفاً. فكل شيء سيء فى الأفغانى حتى الوطنية

---

(١) حسن البنا، سيد قطب، أبو الأعلى المودودى: الجهاد فى سبيل الله، دار الجهاد، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٧٧.

والمعاداة للاستعمار ودعوته للجامعة الشرقية فى مواجهة الغرب. فالباحث قبطى والمبحوث اسلامى، والباحث علمانى والمبحوث دينى، والباحث غربى والمبحوث شرقى[1].

وقد استمدت هذه الصورة من أرشيف المخابرات البريطانية، وكأن صورة الأفغانى أصدق فى ملفات الأعداء منها فى كتابات الأفغانى وتلاميذه، وفى كتب الاستشراق المعادية للحركة الإسلامية المعاصرة دفاعاً عن الغرب وقيمه التى كانت موضع نقد من الأفغانى. فتقارير المخابرات مثل تقارير المباحث العامة عن الوطنيين لتشويههم لايجاد ذريعة للقبض عليهم وتعذيبهم. فالوطنى ارهابى، والاشتراكى شيوعى، والليبرالى اباحى[2]. و قد قيل عن الأفغانى :

١- إيرانى وليس افغانياً وكأن الجنسية عنصر حاسم فى حياته ورسالته وآرائه. وهو الذى حارب الجنسية كرابط بين الجماعة وكعامل توحيد بين الأقوام. وهو الذى رد على رينان فى الربط بين الثقافة والعرق ونظريته العنصرية التى راجت فى القرن الماضى، تفوق العقلية الآرية الغربية فى مقابل انحطاط العقلية السامية الشرقية. فالتركيز على الجنسية اسقاط من الحاضر على الماضى، ومن الباحث على المبحوث، ومن الدولة الوطنية المعاصرة على عصر الخلافة. ويتحول الحديث عن الجنس إلى حديث بيولوجى عرقى عن ملامح الوجه ولون البشرة وفصيلة الدم فى ثقافة ساوت بين الشعوب، وجعلت لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح.

---

(١) لويس عوض : الايرانى الغامض، مجلة التضامن ابتداء من ٨٣/٤/٢٦ على عشر حلقات أسبوعياً.

(٢) وذلك مثل : أ- ايراج افشار، اصغر مهدوى : وثائق غير منشورة تتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى (بالفرنسية) طهران ١٩٦٣.

ب- البرت قدس راده : تراث السيد جمال الدين الأفغانى فى مصر (رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة انديانا ١٩٦٤).

جـ - هوما باكرمان : جمال الدين الأسد أبادى الملقب بالأفغانى (بالفرنسية، باريس ١٩٦٩).

د - ايلى كدورى : الأفغانى ومحمد عبده، لندن ١٩٦٦.

هـ نيكى كيدى : السيد جمال الدين الأفغانى، كاليفورنيا ١٩٧٢.

٢- طائفى شيعى، ادعى أنه من أهل السنة للوصول إلى قلوب الأغلبية من المسلمين. بل إنه بابى بهائى من فرقتين شيعتين معاصرتين أخرجهما المسلمون من الأمة لادعاء الباب وبهاء الله النبوة، استثمارا للنزاع التقليدى الموروث بين السنة والشيعة. والأفغانى نفسه يدعو إلى وحدة الأمة وتجاوز هذا الخلاف التاريخى.

٣- إرهابى انقلابى، شارك فى عديد من المؤامرات والانقلابات السياسية فى افغانستان، مؤيدا فريقا ضد فريق، بل أخا ضد أخيه. دبر اغتيال الخديوى إسماعيل على كوبرى قصر النيل. وهو الاتهام الذى يلقى عادة على كل الثوريين من الأنظمة الرجعية التسلطية أو نظم الاحتلال مثل اتهام المقاومة الفلسطينية المشروعة ضد الاحتلال الصهيونى بالارهاب. الارهاب أفعال فردية أو جماعية محاصرة لا تجد من يساندها. فى حين أن الثورة حركات شعبية بدليل اندلاع كثير من الثورات فى العالم الإسلامى بفضل تعاليمه. الثورة العرابية فى مصر، والثورة المهدية فى السودان. وقد قامت الانقلابات الحديثة بفضل الجيوش فى البلاد النامية بتثوير مجتمعاتها فى الخمسينات والستينات وكما حدث فى الثورات العربية الأخيرة. كما نجحت الثورة الإسلامية فى إيران ضد إرهاب الشاه والسافاك. ومع ذلك فالأفغانى من كبار المدافعين عن النظم البرلمانية والتعددية الحزبية والدستور والملكيات المقيدة حتى أصبحت الليبرالية الغربية نمطاً للتحديث فى الحركة الإصلاحية لا فرق بينها وبين الليبرالية السياسية عند الطهطاوى وخير الدين التونسى أو العلمانية عند شبلى شميل وفرح انطون وسلامة موسى وزكى نجيب محمود. وقد ظهرت تيارات إخوانية تعود إلى هذا النموذج الليبرالى فى الأردن واليمن والكويت وحزب الوسط (تحت التأسيس) فى مصر.

٤- استبدادى تسلطى نازى، ينتقل من استبداد إلى استبداد حتى ولوقال بالمستبد العادل. فالمستبد لا يكون عادلا والعادل لا يكون مستبداً. والحقيقة أن المستبد

العادل تعبير عن تجربة النهضة فى عصره وإعجابه بمحمد على وبنهضة اليابان وبسمارك فى المانيا. ويعتمد فى ذلك على حكم شرعى قديم باجتماع صفتى القوة والعدل فى الإمام، وأولوية الأولى على الثانية فى حالة التعارض لأن الحاكم القوى ضرورى للدفاع عن البلاد، ويستطيع العالم أن ينبهه على ضرورة مراعاة العدل ومقاومة الظلم.

٥- متآمر ومناور، يتفق مع رياض فى استانبول ويخطط معه. يتآمر على عزل إسماعيل، وتفضيل عباس حلمى. يقيم محاور ضد محاور، ضد تركيا ومع الخلافة، وضد الخلافة العثمانية ومع الخلافة القرشية. أنشأ العروة الوثقى دفاعاً عن الخلافة، واختفت رسالة التأسيس التى أرسلها له السلطان لهذه الغاية. كما ادعى باحث آخر من نفس الملة اختفاء رسالة خطيرة من محمد عبده إلى تولستوى. لو ظهرت لكشفت النقاب وبان المستور .

٦- انتهازى متلون، لايثبت على حال، وله ظهر وبطن، ولا ينتمى إلى مذهب سياسى. يشك كل الحكام فى ولائه بعد أن يثقوا فيه. وهى صفة السياسى أكثر منها صفة المفكر. لا يعنى ذلك أنه ضحى بالفكر من أجل السياسة أو تنازل عن النظر من أجل العمل بل يكشف عن القدرة على تجميع المذاهب والفرق تحقيقاً لوحدة المسلمين. ويعترف الأفغانى نفسه بذلك ويكشف عن صورته فى ذهن الناس. إذ يقول عن نفسه بالنثر الفارسى: الإنجليز يعتقدون أنى روسى، والمسلمون يظنون أنى مجوسى، والسنة يحسبون أنى رافضى، والشيعة يخالون أنى نصيبى (أعداء على)، وبعض أصحاب الرفاق الأربعة يعتقدون أنى وهابى، وبعض اتباع الأئمة يتوهمون أنى بابى، والمؤمنون بالله يظنون أنى مادى، والاتقياء يتصورون أنى خاطىء مجرد من التقوى، والعلماء يعدوننى جهولاً، والمؤمنون يظنون أنى كافر. لا الكافر يدعونى إليه ولا السلم يعدنى من ذويه. منفى من المسجد، منبوذ من المعبد. وفى نفس الوقت له صورة أخرى : عالم دينى قوى الإيمان ، مفكر حر، متفلسف ملحد. وهى نفس صورة كل مفكر من

هذا النوع يحاول أن يلم الشمل، ويجمع بين فرق الأمة، ويوحد الخطاب الوطني. فهو عند السلفيين، شيوعى متخفى، وعند الشيوعيين، سلفى متخفى، وعند الدولة، إخوانى شيوعى.

٧- عميل سوفيتيى، يعمل لحساب القيصر. وهى نفس التهمة التى قيلت على عبد الناصر فى عصر الاستقطاب، بل وعلى كل الزعماء الوطنيين فى العالم الثالث فى عصر التحرر الوطنى. بل وقيلت على لينين إنه عميل لألمانيا. والأفغانى هو الذى أراد توحيد الشرق فى مواجهة الغرب. وتتداخل لديه الوحدة الإسلامية مع الجامعة الشرقية. وقد استأنفها السلطان جالييف وهوشى منه. وكانت أكبر ملهم لربط مصر بالشرق منذ حافظ إبراهيم **"أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق"** والصحافة المصرية مثل **"مرآة الشرق"** حتى **"كوكب الشرق"** و**"ريح الشرق"** عند نيدهام وأنور- عبد الملك.

٨- ما سونى يهودى، انضم إلى عديد من المحافل الماسونية، وكان من زعمائها، مادام يريد السيطرة على العالم مثلها. ويهودى صهيونى بالرغم من أنه توفى فى نفس العام الذى عقد فيه المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل بزعامة هرتزل. صديق يعقوب صنوع مع أنه صديق أيضاً لنصارى الشام المهاجرين مثل سليم الضمورى، وسليم النقاش، ولويس صابونجى وشبلى شميل، وأديب اسحق أقرب تلاميذه إلى قلبه، ولم يتهم بأنه نصرانى، . ويكشف هذا الاتهام عن طائفية بغيضة من الباحث وإسقاطها على المبحوث، وينبه على صداقته للشوام إقلالا من مصريته فى ثقافة لا تقوم على القومية ولدى مفكر يسعى إلى وحدة الأمة بداية بين مصر والشام.

٩- طموح شخصى، يريد أن يكون رئيس جمهورية، سياسى متطلع يحقق أحلامه. وهو الذى رفض تتويجه على السودان. وهو الذى كان مطارداً من كل نظام حتى استقربه المقام فى باريس ينشر **"العروة الوثقى"**. وعادة ما يتهم كل زعيم وطنى بأنه يعمل لصالحه وليس للوطن مما يدفع بعض الزعماء للتوحيد بينهم وبين الأوطان كما فعل ديجول فى عبارته الشهيرة **"أنا فرنسا"**.

١٠- مثالىْ لم يع الواقع القطرى. حماسى خطابى، لم يترك فكراً سياسياً نظرياً منظماً. والحقيقة أن هذه الصورة قراءة للحاضر فى الماضى. فقد كان عصر الأفغانى مازال عصر الخلافة بالرغم من محاولات الأقطار الانفصال بعد ضعف مركز الخلافة. فكان دفاع الأفغانى عن وحدة الأمة حماية لها من الاستعمار الذى يتوحد للقضاء عليها بعد تفتيتها. فلا فرق بين الاستعمار الانكليزى والروسى والفرنسى. والخطاب العربى المعاصر مازال على هذا المستوى من التنظير لأنه خطاب جماهيرى اختارته النخبة من أجل النضال الوطنى وليس خطاباً نظرياً فى مجتمعات مستقرة بلغت شأواً من التعليم وقطعت مع تراثها الماضى. وهو نفس نوع الخطاب فى الثورة الفرنسية، والثورة الإمريكية والثورة الروسية مع اختلاف فى الدرجة وليس فى النوع.

هذا التشويه المتعمد لصورة الأفغانى هو فى الحقيقة قضاء على جذور النضال الوطنى فى وقت تشتد فيه الحاجة إلى التمسك بها حرصاً على وحدة الوطن وكرامته. وهو حكم مسبق عليه له دوافعه غير العلمية. لم يترك له حسنة واحدة مثل عداؤه للاستعمار وللاستبداد وتثويره للمسلمين وتوحيده للقوى الثورية. يشق على القلوب لمعرفة ولائها وهو ما قد ينطبق على الباحث أيضاً . يسقط التصور القومى على مسيرة حياته، من المرحلة الأفغانية إلى المرحلة التركية إلى المرحلة المصرية، والأخيرة هى أكبر المراحل لهزها وانتزاعها من الشعور الوطنى[1]. يحول الفكر إلى تاريخ. والمفكر إلى رحلاته من أجل القضاء على استقلال الفكر وقدرته على التأثير مادام وليد الظروف ، وانطباعات رحالة. ويقيّم فكره من سلوكه الشخصى لسهولة رفض الفكر عن طريق الحجة ضد الشخص. بل إن الدهرية التى ارتبطت بأحمد خان عميل الانجليز أصبحت مجرد غنوصية من تراث الشرق القديم دون أن يكون لها مغزى سياسى.وتتم السخرية من فلسفته فى التاريخ، نهوض الأمم ثم سقوطها ثم نهوضها من جديد، ومن محاضرته عن النبوة والصناعة مع أنها من تراث الفلاسفة القدماء خاصة الفارابى وابن سينا. وينضم إلى موقف الخصوم الذين

[1] تستغرق المرحلتان الأفغانية والتركية خمس حلقات، والمرحلة المصرية وحدها خمس حلقات أخرى.

اتهموا الأفغانى بالالحاد ولانكاره النبوة وتشبيهها بالصناعة، وقسمته الناس إلى خاصة وعامة، وتقريبه بين النبى والفيلسوف. والباحث تقدمى علمانى، لايرى التقدمية والعلمانية إلا فى التراث الغربى دون جذورهما فى التراث الفلسفى القديم.

٢- السيرة والشخصية

كتابة الأفغانى فى ثلاث فقرات لسيرته الذاتية ذات دلالة كبيرة. يذكر فيها تاريخ ميلاده، وهو غير ذى نفع كبير. وعاش نصف عصر أو نصف قرن. ولايهم التاريخ. إنما الذى يهم الشخصية فى عصرها. اضطر الى مغادرة بلاده الأفغان، ومن ثم يعترف بأنه أفغانى وليس إيرانياً بالرغم من عدم أهمية السلالة البيولوجية فى البشر. وترك الهند إلى مصر ثم إلى الآستانة، وكل هذه الرحلات غير مفيدة للناس، مجرد خاطرات. والسجن رياضة فى طلب الحق، والنفى سياحة، والقتل شهادة. وهو غير راض عن نفسه لخموله وعدم وصوله إلى مرتبة الشهداء ، بل وصل فقط إلى مرتبة السجن والنفى. ومن ثم لم يقم بمهته الأولى وبالعمل الجليل المناط به مع أنه لم يترك عملاً جليلاً للنوع الإنسانى عامة وللشرقيين خاصة إلا اقتحمه إلى حد الخروج من الاعتدال إلى التهور[1].

لايهم إذن مسقط رأسه فذلك تصور قومى، ابن هذا القرن ولم يكن فى القرن الماضى فى العالم الإسلامى. لم تكن هناك حدود قومية بين افغانستان وإيران. ولكنه ولد بالقرب من كابل، ومسقط رأسه بلاد الأفغان. أقام فى الهند وإيران وفى

---

[1] رأى نفع لمن يذكر أنى ولدت سنة ١٢٥٤هـ، وعمرت أكثر من نصف عصر. واضطررت إلى ترك بلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض. وأكرهت على مبارحة الهند ، واجبرت على الابتعاد عن مصر أو أن شئت قل نفيت منها ومن الآستانة ومن أكثر عواصم الأرض . كل هذه الأحوال خاطرات لا تسرنى، وليس فيها أدنى فائدة للقوم". جمال الدين الأفغانى الأعمال الكاملة، اعداد د. محمد عمارة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣٣-٥٣٨ وأيضاً، خاطرات جمال الدين الأفغانى جمعها محمد المخزومى باشا، دار الحقيقة، بيروت ١٩٨٠ ص ١٦-١٨.

مصر وتركيا ثم فى باريس. تعدد المقام والشخصية واحدة، والفكر متصل. هو شرقى فى مقابل الغرب. يحمل معه هموم الشرق

نعمت ونحن مختلفون دارا .·. ولكن كلنا فى الهم شرق[١]

وقد كتب محمد المخزومى مقدمة قصيرة عن حياته مما اختبره بنفسه ودون الاعتماد على ما سبق كتابته من آخرين، لافرق بين حياته وشخصيته، بين فكره وملامحه. كما أبدى جرجى زيدان صاحب الهلال، وكان من محبيه، رغبته فى كتابة سيرته الذاتية مع أن العادة كتابتها بعد وفاة صاحبها. لذلك أرسلها المخزومى إليه بعد وفاة الأفغانى، ونُشر جزء منها فى "الهلال" . ولما أبدى المخزومى هذه الرغبة إلى جمال الدين قال "العيان لايحتاج إلى ترجمان". يكفى ما قاله الآخرون عنه، "سرى ، سرى" أى متشرد تائه فى الأرض. وهى صورته لدى خصومه وحساده بعد إقبال السلطان عبد الحميد عليه.

كان صحيح العقيدة، مؤمناً بالألوهية، شديد التمسك بحكمة الدين. ومع ذلك كان نفوراً من التعصب ومن التقليد فى المذهب، مجتهداً لدرجة الغرابة والخروج على المألوف فى التفسير. كان قوى الذاكرة، سريع الحفظ، بطىء النسيان. يذكر خطابا ارتجله أو مقالا أملاه أو كتابا ألفه منذ سنين. كان قوى الحجة يجذب مخاطبه إليه ويرضخ لبرهانه ولولم يكن ساطعاً. له أسلوبه الخاص فى المقدمات التى تتولد عنها مقدمات أخرى بالطبع. يتعذر اقناعه جدلا لأسلوبه الخاص فى إبطال الحجة عليه أو التخلص منها دون مكابرة. يعطى خصمه الحق بعد أن يفحمه، ويدله على ما أغفل من حجج وهو حاد الذهن لا يخلو من حدة فى المزاج، يحمل من خاطبه على العظائم ويذلل له الصعاب.

وهو عظيم النفس، كبير الهمة، شجاع جرىء. يقدم حيث يحجم الناس. ويتكلم حين يسكتون رغبة أو رهبة، سريع بمبادءاته الذهنية. كان مهابا أكثر منه محبوبا. وفى نفس الوقت كان متواضعاً مع من أقل منه، متكبراً على الملوك

---

[١] خاطرات ص ٦.

والعظماء لحد التجبر. لم يكن مغترا بنفسه، مستخفا بمن يخاطبه بألقاب دولتكم أوسماحتكم أويمدح فكره وحكمته وخطابته واحتقار الموت. كان غرضه بهذه الصفات الوصول إلى طمأنينة القلب بأنه قال الحق ولم يكتمه. يذكر المسلمين لأنهم العنصر الغالب فى الشرق وملة ممالكه. فالشرق لفظ يدل على الأمة الإسلامية. أراد إيقاظ الشرقيين وتنبيههم وتقريبهم. وفى نفس الوقت محب لخير البشر، يساوى بينهم جميعاً فى الحقوق العمومية التى تقوم على الحرية العاقلة [1].

وأفضل من كتب سيرته تلميذه محمد عبده كما كتب الجوزجانى سيرة أستاذه ابن سينا. كتب بعضها، ونسى البعض الآخر، وكتم جزءا لاسباب سياسية. ولد فى قرية سعد أباد عام ١٨٣٩ وانتقل مع أبيه إلى كابول. تعلم فى سن الثامنة. واعتنى به والده لما رأى فيه قوة الفطرة والعزيمة وذكاء العقل. برع فى علوم العربية والتاريخ والشريعة والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والكلام والتصوف. كما برع فى بعض العلوم العقلية مثل المنطق والسياسة والاقتصاد و العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجبر والفلك، والطب والتشريح. فجمع بين الحكمتين .

ويبرز محمد المخزومى باشا الذى رافقه فى آخر سنوات حياته بالآستانة طفولته أنه ابن السيد صفر من أسرة أفغانية ينتسب إليها الترمذى المحدث، وترتقى إلى الحسين بن على. نشأ فى كنر من أعمال كابول، فى بيت علم له احترامه لنسبه الشريف. وكانت للأسرة السيادة على بعض الأراضى الأفغانية. ثم سلبها الإمارة دوست محمد خان الذى نقل والد جمال الدين وبعض أعمامه إلى كابول.

تعلم بالطرق التقليدية. وأكمل تعليم المشايخ وهو فى الثامنة عشرة. ثم سافر إلى الهند لمدة عام. فقد كانت موطن التعليم الإسلامى التقليدى وأحيانا الحديث، لاستكمال الدروس الرياضية الحديثة. ومنها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. فتعرف على عادات الأمم وأخلاق الشعوب لمدة عام آخر. ثم عاد إلى كابول موظفاً فى حكومة دوست محمد خان. رافقه الأفغانى لفتح هراة التى كان يحكمها أحمد شاه

---

[1] المصدر السابق ص ١٥-١٨.

صهره وابن عمه. واشترك في الحصار إلى أن توفى الأمير وفتحت المدينة وتقلد امارتها ولى عهده شير على خان. وأشار عليه وزيره بالقبض على إخوته محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد آية. وانتصر الأفغانى لمحمد أعظم. وفرا سويا حتى عظم أمر الأمير وغلب على منافسيه. ثم تولى بعده محمد أعظم الذى عظم الأفغانى وجعله الوزير الأول ومستشارا له دون استبداد بالرأى حتى أغير صدره عليه. فأوسد الأمر إلى ابنائه الأحداث مما أدى إلى هزيمته. ترك بعدها الأفغانى إلى الأراضى الحجازية للحجج عن طريق الهند. وهناك استقبلته الحكومة الإنجليزية استقبالاً حاراً. وبعد نشاطه فى الهند ضاقت به الحكومة الإنجليزية وأخرجته منها وقبل خروجه وجه نداءه الشهير إلى الهنود بأنهم لو كانوا ذبابا لطن آذان بريطانيا، ولوكانوا سلحفاة لخاضوا البحر وأغرقوا جزيرة بريطانيا. ولم يجىء السلطان الغزنوى الهند باكيا يذرف الدمع بل فاتحا شاهرا السلاح[1].

نفى من الهند إلى مصر وأقام بها أربعين يوماً تردد فيها على الجامع الأزهر. وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا اليه. وطلبوا منه قراءة شرح الأظهار فقرأ لهم منه بعضا فى بيته. كان مقامه اول مرة قصيرا فى مصر ولكن كان له أبلغ الأثر فى إنارة الأزهريين بالعلم الجديد والجرأة على شرح القدماء شرحاً عصرياً، وهو ما كان يبحث عنه طه حسين فيما بعد ولم يجده إلا فى الجامعة المصرية.

ثم سافر إلى الآستانة، والتقى بالصدر الأعظم عالى باشا، وأقبل عليه الأتراك بزيه الأفغانى. وبعد ستة أشهر عُين عضواً بمجلس المعارف مما أثار حفيظة شيخ الإسلام فى ذلك الوقت لآراء الأفغانى التى كانت تمس رزقه. فتآمر عليه بأن طلب إليه مدير دار الفنون أن يلقى خطابا للحث على الصناعات. فكتب الخطاب وعرضه على وزير المعارف وعلى مشير الضابطة وعلى بعض أعضاء مجلس المعارف فاستحسنوه. وقد قام الخطاب على تشبيه المعيشة ببدن حى، وكل

---

[1] خاطرات ص ٢٤.

صناعة بعضو فى البدن. فالملك هو المخ مركز للتدبير، والإدارة والحدادة العضد، والزراعة الكبد، والملاحة الرجلان، وعلى هذا النحو يتألف جسم السعادة الإنسانية وهو التشبيه القديم الموروث من الفارابى وابن سينا. ولما كان لا جسم بلا روح فإن الروح هى النبوة أو الحكمة. الأولى هبة الهية، والثانية كسب للبشر. الأولى يقين والثانية ظن. الأولى صادقة والثانية يعتريها الخطأ والصواب. الأولى واجبة الاتباع والثانية مندوبة من جهة الأولى والأفضل بشرط عدم مخالفتها للشرع الإلهى.

غضب شيخ الإسلام، واتهم الأفغانى بأنه يعتبر النبوة صنعة كعادة المزايدين فى الدين فى كل عصر، وأنه ذكر النبوة فى معرض خطاب عن الصناعة. وأعطى توجيهاته إلى خطباء المساجد، هذا الجهاز الإعلامى الجاهز فى أيدى رجال الدين ورجال السياسة، بنقد الأفغانى والمطالبة بمقاضاته واتهامه بالكفر وانكار ماعلم من الدين بالضرورة. ووقعت الفتنة، وانقسم الناس فريقين، فريق معه وفريق ضده. وخشى الصدر الأعظم وطالب الأفغانى بمغادرة الآستانة كى تهدأ النفوس، معتذراً له عن أهل الجمود، وأنه كان بوده أن يجعله شيخ الإسلام. ومثل الأفغانى يناهض السلطتين الدينية والسياسية ويفضح تعاونهما الخفى والعلنى.

ثم غادر الأفغانى الآستانة إلى مصر فى ١٨٨٧/٣/٢٢ سياحة فيها حتى لاقى رياض باشا رجل الاصلاح فمال إليه. والتفت حوله طلبة العلم. وقرأ عليهم كتب الكلام والحكمة النظرية الطبيعية والعقلية والفلك مع أصول الفقه فى بيته وفى الأزهر يوم الجمعة. فذاعت أفكاره فى مصر. واستمر فى محاولاته للقضاء على الأوهام والدفاع عن العقول. نبغ تلاميذه وتأثروا به. واتسعت حلقاته. فحسده الحساد، وحقد عليه الحاقدون كما هو الحال فى كل عصر. واتهموه بقراءة الفلسفة التى حرمها المتأخرون بفتاوى ابن الصلاح. وشوهوا ما ينقلون عنه عن طريق أنصاف المتعلمين عن قصد.

ثم تولى توفيق حكم مصر وأيده الأفغانى وجمع القلوب عليه. ولما كان الأفغانى ميالا بفطرته إلى السياسة فقد نظر فى أحوال مصر ورأى تزايد تدخل الأجانب فى شؤونها يوماً بعد يوم. فبدأ يفكر كيف تتغير الأحوال، بتأييد الحاكم الصالح أو بتنوير العقول أم بالعمل على إنشاء الجمعيات الإصلاحية وتنشيط ماهو موجود منها.

فانضم إلى الجمعية الماسونية، المحفل الأسكتلندى، وأصبح من رؤسائها دون أن يخفى ذلك. وبعد أن عايشها انتقدها، ردا على من قال إنها لا دخل لها بالسياسة، وأنه يخشى عليها من بطش الحكومة. وضاق المحفل بآرائه التى ينتقد فيها الخمول والخوف والجبن. وأنشا محفلاً وطنياً تابعا للشرق الفرنسى لتحويل الماسونية الغربية إلى حركة وطنية مصرية. وانضم إلى المحفل عدد بارز من المفكرين والمصلحين المصريين من تلاميذه ومريديه من العلماء والوجهاء. وقسمه إلى شعب. شعبة لإنذار ناظر الجهادية لإنصاف الضباط المصريين الوطنيين الذين يعملون فى السودان أكثر مما تسمح به القوانين الخاصة بالتناوب بين المصريين والشراكسة والمتمصرين. وطالب بأن تكون أقصى مدة للضباط المصرى سنتين بعدها يستبدل بالمصرى ضباط شركسى بدلا من مكوثه أربع سنوات دون استبدال أو استبدال مصرى آخر لا سند له من أمير أوشفاعة من وزير. وشعبة أخرى لإنذار ناظر الحقانية، وثالثة للمالية ورابعة للأشغال، وغيرها لباقى النظارات والمصالح الأميرية لإحقاق الحق وإقامة العدل مع الموظفين المصريين والمساواة فى الرواتب مع غير المصريين. وقامت الشعب بواجباتها خير قيام.

بلغ توفيق الأمر. وكان لا يبالى قبل ذلك بالماسونية. وجزع من تحويل الأفغانى لها إلى حركة وطنية مصرية. فتردد فى زيارة الأفغانى له. ثم استدعاه الخديوى وأخبره أنه يحب الخير لكل المصريين ويبغى تقدم مصر. ومع ذلك قد تضر أفكار الأفغانى الثورية الشعب المصرى لأنه مازال قاصرا عن فهمها كما هى العادة فى فرض وصايا الحكام على الشعوب. دافع الأفغانى عن شعب مصر

وأن من بينهم العقلاء والعلماء. وطالبه باشتراك الأمة في حكم البلاد. فهذا اثبت للعرش. ولم يرض الخديوى بكلامه واضمر له الشر. واستأنف الأفغانى خطبه فى المحفل الماسونى لتعليم الجاهل واستنفار الخامل وحث المستمعين على الدفاع عن حقوق الشعب المهضومة. وكان في مقدمتهم أديب اسحق، طراز العرب وزهرة الأدب كما كان يسميه الأفغانى، أقرب التلاميذ إلى قلبه وهو النصرانى، وكان يمسك بتلابيب محمد عبده صارخا فيه **"والله انك لمثَبّط"** ، وهو المسلم.

وبدأت الحركة الوطنية فى مصر فى الظهور، وأخذت الحكومة حذرها منها. تماطلها وتجاملها وتتقرب إلى الشعب بالوعد بمجلس نيابى إذا ما حافظ على الهدوء. وطلب المصريون الاحرار من جمال الدين وضع خطة للمجلس النيابى[1]. وكانت تلك بداية الثورة العرابية، تحويل الماسونية إلى حركة سياسية وليست صوفية، وإلى حركة وطنية وليست غريبة. وتحول الأفغانى من مصلح الأمراء والوزراء والقادة والنخبة إلى فقيه الأمة ومثوّر الشعب. انتشرت أفكاره بين الوطنيين المصريين، وذاع نقده لسياسة بريطانيا. فترجمت إلى الإنجليزية ونشرت فى جرائد انجلترا، وأثارت جدلا واسعا شارك فيه جلادستون. ولما اشتدت خطورة المحفل تدخل قنصل انجلترا عن طريق أعينه فى الحفل، وأخاف الخديوى من خطورته. فأصدر أمراً بإخراجه من مصر عام ١٨٧٩ وترحيله إلى الهند. وقابله فى السويس بعض تلاميذه وقنصل إيران، وعرضوا عليه بعض المال فرفض قائلاً **"أنتم إلى هذا المال أحوج، والليث لايعدم فريسة حيثما ذهب"**. وأقام بحيدر أباد. وفيها كتب رسالته فى الرد على الدهريين. وأجبرته حكومة الهند على عدم مغادرتها والبقاء فى كلكتا حتى انتهاء الثورة العرابية. بعدها سمحت له بالمغادرة إلى أوروبا، لمدة أيام فى لندن ثم بعدها فى باريس. وأقام بها ثلاث سنوات، ولحق به محمد عبده.

وكانت تألفت فى مصر جمعية من الفضلاء، جمعية العروة الوثقى. وكلفته أن ينشيء جريدة تدعو إلى الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة. فكلف محمد عبده بتحريرها. ونشر منها ثمانية عشر عددا قبل أن تتوقف. صودرت فى الهند.

---

[1] مصر والحكم النيابى، الأعمال الكاملة ص ٤٧٣-٤٧٤.

ووضعت تحت الرقابة فى مصر بأمر من نوبار الأرمنى. وصدر قرار من مجلس النظار بمنع دخول الجريدة الأراضى المصرية. ويُغرم كل من توجد لديه نسخة منها من خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين جنيهاً. ويبرئ الأفغانى نظار مصر والخديوى من اصدار هذا الحكم سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، مصريين أوشرقيين لأنها تدافع عن المصريين وجميع الشرقيين، وتدعوهم إلى نبذ التنازع بينهم، وترتيب البيت من الداخل قبل الخارج. كانت مهمة الجريدة مناهضة سياسة بريطانيا. وكانت الشرطة الإنجليزية فى الهند تستدعى المشتبه فيه بقراءة الجريدة وتمتحنه فى آية الجهاد أو فى حديث فيه. فإن لم يشأ الرد وأخبر أنه صوفى درويش معتزلى أمهل أربعة أيام لتحديد رأيه. فإذا أثبتها نفى نفيا مؤبدا إلى جزيرة اندومان حتى امتلأت بالعلماء.

ثم اندلعت ثورة المهدى فى السودان، وزاد تدخل الانجليز فى مصر بحجة قمع ثورة السودان. فحذر الأفغانى جلادستون من سوء مصير غوردون. واستمر فى الكتابة فى موضوع السودان فحذر بريطانيا كاشفا دسائسها. حتى استدعياه سالزبورى وتشرشل إلى لندن لسؤاله عن رأيه فى المهدى. فأوضح لهما خطأ سياسة إنجلترا نحو الإسلام ومصر والشرق. واقترحوا عليه تتويجه سلطانا على السودان لاستئصال ثورة المهدى وتحقيق أهداف بريطانيا. فرفض لأن بريطانيا تعطى مالاتملك لمن لا يستحق كما فعل بلفور فى وعده إلى وايزمان بانشاء دولة فلسطين. فمصر للمصريين والسودان متمم لها. وصاحب الحق فيها الخليفة. والأولى ببريطانيا اصلاح إيرلندا. فأعجب به الايرلنديون الاحرار. ثم عاد إلى فرنسا. واستمرت بريطانيا فى مصادرة "**العروة الوثقى**". وأقام فى باريس اكثر من ثلاث سنوات. نشرفى المجلة عدة مقالات عن سياسات روسيا وإنجلترا ودولة الخلافة فى مصر. وأجرى حواراً مع الفيلسوف الفرنسى رينان فى العلم والإسلام وحقيقة القرآن والمعجزات. وشهد له رينان بصحة العلم وقوة الحجة. ورجع عن كثير من آرائه فى الاسلام والقرآن والحضارة والعمران، وأرجع تخلف المسلمين وتأخرهم إلى جمود رجال الدين.

ثم استدعاه ناصر الدين شاه الفرس إلى طهران. فغادر باريس والتقى فى أصفهان بالأمير الذى عظمه وقدمه إلى طهران، وعهد له بنظارة الحربية مع لقب مستشار خاص للشاه. حاول الأفغانى تغيير كل قديم. ونصحه الشاه بالتدرج وعدم التسرع. ثم خاف الشاه من شعبيته وخشى على سلطانه. فتنكّر له. فاستأذنه جمال الدين فى السفر إلى روسيا. ونال هناك الاحترام والتقدير لما عرفوه عنه من أنه كان وزيراً أولاً فى عهد الأمير محمد أعظم خان، ونشره مقالات عن سياسة الأفغان والفرس والدولة العلية والروسية والانجليزية ونفوره من سياسة الانجليز فى الشرق. ولما سأله القيصر عن سبب اختلافه مع الشاه وأجابه الحكومة الشورية. فأيد قيصر روسيا شاه إيران وأمر بإخراجه من روسيا. فجال فى أوروبا، لندن وغيرها من العواصم مع كل إجلال وتقدير فى أى مكان حل به، ناقدا استبداد الشاه، ومؤيدا لأحرار إيران للانقلاب على حكم الطغيان دون تدخل الإنجليز. ثم تصادف وجود الأفغانى فى معرض باريس عام ١٨٨٩ فالتقى بالشاه فى ميونخ، واعتذر له الشاه، وطلب منه العودة إلى طهران . فرجع معه لتنظيم الدولة. فسن لها قانونا تكون به الحكومة ملكية شورية. ثم أوغر صدر الشاه عليه من جديد، وخشى من تقلص سلطانه. فذهب الأفغانى إلى قرية بالقرب من طهران. وتابعه العلماء. ولما عظم أمره قبض عليه الشاه وأخرجته الشرطة إلى البصرة وهو مريض. فقامت ثورة فى إيران من مريديه أخمدها الشاه. ثم قتله رجل من أهل فارس بطعنه ثأرا لجمال الدين[1].

وبعد أن غادر إلى لندن تلقى دعوة من السلطان عبد الحميد لزيارة الآستانة. وبعد إلحاح شديد قبل جمال الدين الدعوة وذهب إليها آخر عام ١٨٩٢ وليس عليه إلا جبة واحدة، وكتبا فى رأسه لكثرة نفيه من مكان إلى مكان. واستمر فى نقد استبداد السلطان ناصر الدين الذى رجا السلطان عبد الحميد التدخل لدى جمال الدين لوقف الحملة عليه. ولما عاتبه أحد المنافقين أنه يلعب بالسبحة فى حضرة السلطان رد عليه بأن السلطان يلعب بمقدرات الملايين دون اعتراض أحد. فعظمه السلطان عبد الحميد بالرغم من الدسائس. ولما طلب جمال الدين زيادة راتب أحد المصريين بالآستانة وعد السلطان ولم يفعل. فطلب جمال الدين الإذن بمقابلة السلطان وقد

---

(١) خاطرات ص ٤٥-٥٠.

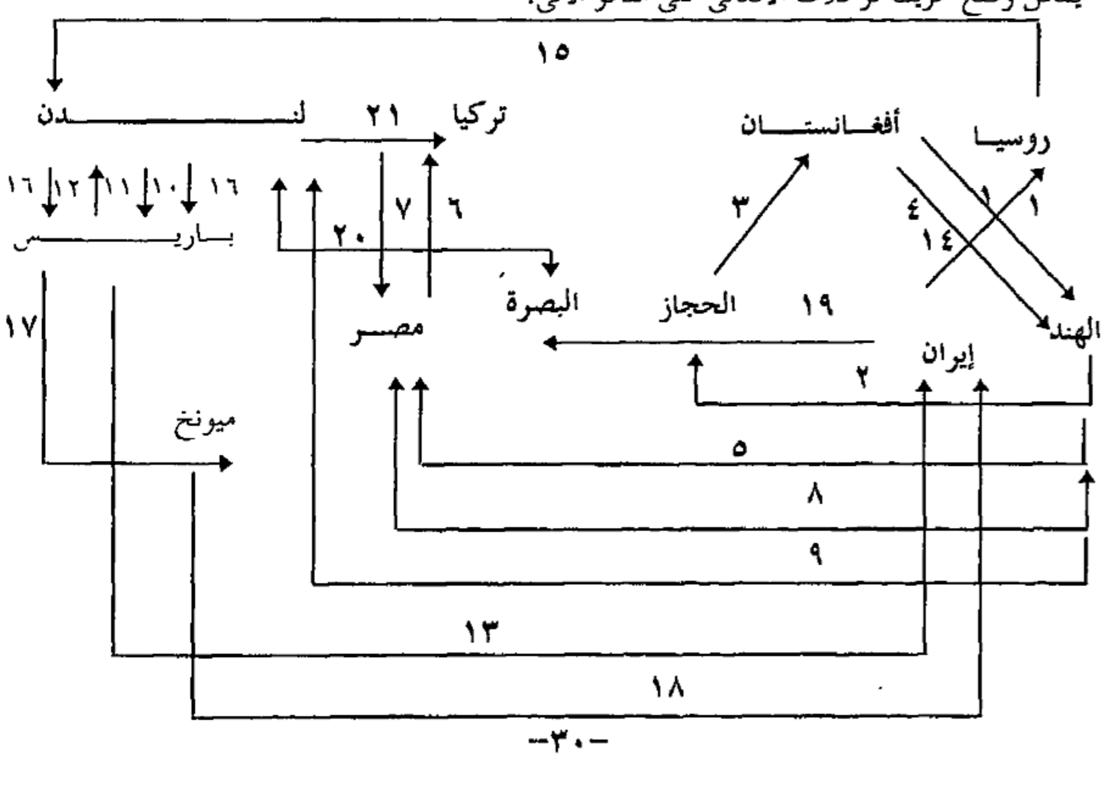
جرت العادة استقدام السلطان له. ودخل عليه جمال الدين عبوسا والسلطان بشوشاً، وطلب خلع البيعة له. فاستعجب السلطان، وحقق وعده، واعتذر لجمال الدين. وناوله الحاجب عند خروجه كيسا ودنانير فرفض. ولما كانت هبة السلطان لا ترد فوزعها على طلاب العلم وأهل الفضل والأدب المعوزين. واستمرت العلاقة بين جمال الدين والسلطان بالرغم من دسائس الأمراء والحساد. فطالب جمال الدين بتخليص الحاشية من الخونة الدساسين. فعظّم السلطان جمال الدين، وتذكر جده محمود وقت أن كان الفساد فى الأنكشارية. وقد عم الآن الفساد فى البلاط كله. و لكن المسئولية تقع على جمال الدين الذى اعتذر عن قبول المشيخة لاصلاحها. ولا حل الآن إلا بحدوث أمر عظيم فى أوروبا يشغلها عن السلطان وتعطيه الفرصة لاصلاح الدولة. وقد اعتذر جمال الدين لأن وظيفة العالم مجرد الوعظ والإرشاد والتعليم. وقد مكث أربعة أعوام يعلم ويحذر حتى أصيب بسرطان فى فكه الأسفل. وأجريت له ثلاث جراحات لم تنجح. فتوفى فى ١٨٩٧/٣/٩[١].

وبالاضافة إلى رحلاته التى تجعل من الأفغانى رجل نظر وعمل، فكر وممارسة، هناك أيضاً صفاته ومذهبه، وآماله ومقاصده، ومناقبه وأخلاقه، ومنزلته من العلم التى تحدد معالم شخصيته[٢].

---

[١] المصدر السابق ص ٥٤-٥٨

[٢] يمكن وضع خريطة لرحلات الأفغانى على النحو الآتى.



فمن صفاته وملامحه أنه عربي، قمحى اللون، عظيم الرأس، عريض الجبهة، واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنة، رحب الصدر، جليل النظرة، مسترسل الشعر، ينجذب إليه كل من يراه بهذه الملامح الأخاذة حتى قبل أن يتكلم.

وهو حنفي المذهب غير مقلد، سنى العقيدة مع ميل إلى التصوف، حريص على الفرائض، حمى الدين. آماله ومقاصده إنهاض دولة الإسلام من ضعفها كى تلحق بالأمم الراقية، وحل العقول من الأوهام، وتوحيد الشرق كى يستعيد مجده، ومناهضة سياسة بريطانيا فى الشرق، وبث الحياة فى الناس بعيدا عن الخمول والكسل. ومن مناقبه احتفاؤه بزائريه، ونهوضه للاستقبال والوداع، وزيارة الصغير والكبير. لايتكلم إلا الفصحى، ولا يتحدث بالعامية إلا مع العامى. يوضح مقصده كى يؤصل فكره للناس. يخطب دون أن يمزح كثيراً. وهو رزين كتوم زاهد فى الدنيا، لا مطالب له فى زوج أو ولد أو منصب أو جاه. لذلك لم يتزوج ولم يتقلد وظيفة ثابتة.

ومن أخلاقه سلامة القلب، حرية الضمير، صدق الحجة، عفة النفس، رقة الجانب. وهو وديع حليم. فإذا مس كرامته أحد انقلب إلى غضب. يعتمد على الله وحده دون مبالاة لأى شخص آخر. وهو عظيم الأمانة، سهل مع من يلين له، صعب على من يستغلظ عليه. لديه قدر عظيم من العلوم مع بعض التسرع والعجلة للوصول إلى مقاصده. وهو قليل الحرص على الدنيا، لا يغتر بزخرفها، مشغول بعظائم الأمور، ويعرض عن صغائرها. وهو ثابت الجأش، شجاع لا يهاب الموت، حاد المزاج لدرجة التهور، فخور بنسبه الشريف دون ترفع. قد يكون فى اخلاقه بعض التناقض. فهو كريم إلى حد الإسراف، بخيل إلى حد التقتير، متواضع لدرجة الذل، متكبر لدرجة التجبر، كتوم جهور. وهو التناقض الموجود فى شخصية كل عظيم.[1]

---

[1] المصدر السابق ص ٥٩-٦٧.

أما علمه فإنه خال من اللغو أو اللهو، غزير المعارف، دقيق المعانى، قادر على حل المعضلات بنظرة شاملة ليوضحها، إدخالا للجزء فى الكل. وهو متخصص فى كل شيء، واسع الأفق، خصب الخيال، قوى الحجة، شديد الجدال. ما خاصم أحدا إلا انتصر عليه. وهو قوى الذهن، نافذ البصيرة، حى الذاكرة. وهو واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقلية والفلسفية القديمة والتمدن الإسلامى، عليم بأحوال المسلمين وظروف عصرهم. يعرف اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية التى تعلمها فى ثلاثة أشهر مع إلمام باللغتين الإنجليزية والروسية.

وقد رد الأفغانى على منتقديه بأن حكمته فى لسانه أكثر مما هى فى قلبه بأن كل مسلم مريض ودواؤه القرآن، وعلى طالب الحكمة تدبر معانيه. وهى حجة تقليدية سلفية. وكان محمد حكيماً، حكمته من قلبه. فكيف يرفضها مرضى القلب وساقطو الهمم وأهل الذل؟ وهى حجة خطابية اتهامية كما يفعل الخطيب يوم الجمعة. فهل المسلمون اليوم عاملون بما جاء به الرسول أو مقتدون به كما اقتدى الصحابة؟ وهى حجة خطابية أخرى تقوم على الاقتداء بالرسول والاهتداء بالسلف الصالح كما يفعل الوعاظ. بئس الخلف نحن ونعم السلف السلف. يخشى من إدراك ذله خوفا من نزعه فيرجع إلى القول البارد والرأى السفيه.(١)

لذلك كان جهوريا، يسرع بذهنه، يجهر بالرأى حتى ولوكان فيه خطر وضرر. يحسن الجدل والحجاج. كان من أكبر علماء الكلام. فعرف أنواع السفسطة لدرجة الاقناع فى حالتى السلب والإيجاب وتأثيره فى مخاطبه وحمل الخامل على العظائم والجبان على الجسارة. وساعده على ذلك حكمته وسرعة الخاطر وتوقد الذكاء، وسعة الاختبار لأخلاق البشر، وكثرة مخالطة الأمم، وحصوله على ملكة الخطابة واحاطته بأخلاق العرب والترك والفرس والأوروبيين. يغالى فى المدح ولا يسترسل فى الذم. ويستعمل الصور الجدلية للمدح والذم مثل الهر والكلب.

---

(١) المصدر السابق ص ٧٥-٧٦ ص ٩٥-١٠٠ ص ٦٣-٦٤، الأعمال الكاملة ص ٥٣٥-٥٣٦.

أختلف الناس فى أمره وتباعد صوره فى الأذهان مع أنه شخص واحد يتميز بصفاء الجوهر وذكاء المخبر. وصفه أديب اسحق بأنه قد تمر بالناس الأيام حتى يظهر عالم يعبر عن حاجات الناس أو يكشف أسرار الطبيعة فى كل عصر. مثال ذلك جمال الدين، فيلسوفا، سياسيا مثل سقراط. لم يؤلف إلا رسالة، ولكنه باق بمريديه. يجلس فى الأماكن العامة ويحولها إلى مراكز علم وحلقات درس حتى حسده فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس.

٣- قراءة الأعمال

تتنوع أعمال الأفغانى بين الرسائل، والخاطرات، والمقالات. الرسائل هى الأعمال التى كتبها الأفغانى بنفسه. وهو لم يكتب إلا رسالة واحدة شهيرة هى "**الرد على الدهريين**" أثناء مقامه بالهند للمرة الثانية. كتبها بالفارسية ثم ترجمها محمد عبده إلى العربية بمساعدة أبى تراب، تابع الأفغانى وصديقه. كانت حياة الأفغانى وتنقلاته من بلد إلى آخر لا تسمح له بالاستقرار والكتابة المنظمة. كما أن طبعه الشفاهى يجعله أشبه بحكماء الشرق وأنبيائه، بوذا، المسيح، سقراط. كتبها عام ١٨٨٠ وعمره واحد وأربعون عاماً. والغاية منها إبطال مذهب الدهريين وإثبات أن الدين أساس المدنية، والكفر فساد العمران(١).

والخاطرات هو الاسم الذى فضله الأفغانى لمجموعة أقواله المتناثرة التى جمعها المخزومى منه فى سنواته الأربع الأخيرة فى الآستانة بين ١٨٩٢-١٨٩٧ وهو ملازم له. فهى حديث موجه إلى شيخ بنى مخزوم. كان المخزومى قد سماها "**جمال الدين الأفغانى فى البلاط السلطانى**". ولكن الأفغانى رفض هذه التسمية لأنها لا تطابق المضمون وفضل لفظ "**خاطرات**" كما هو الحال فى "**خاطرات بسكال**" و"**فيض الخاطر**" لأحمد أمين. وهو لفظ أفضل من لفظ "**خواطر**" الأكثر شهرة. ويعنى هواجس النفس، السوانح، اللوامع والهوامع بتعبير الصوفية، ما يطرأ على النفس وما ينشغل به القلب بعيداً عن التصورات الذهنية الكلامية الفلسفية وبعيداً عن

---

(١) اخاطرات ص٧ص ٤٠٤، الأعمال الكاملة ص ٥٣٨.

التاريخ الميت. لايهم دعاة اللسان الأجوف الذين ليس لديهم جملة تمس شغاف القلوب. وهى من جوامع الكلم، نوع أدبى، جمل مختصرة، وأمثال حكيمة، معروف عند القدماء. ألف فيه المبشربن فاتك[1]. تحفظ وتدون ويضرب بها المثل كالحكم والأمثال العامية. وكان السبب فى اختيار هذا النوع الأدبى يحمى صاحبه من اضطهاد السلاطين، ويحميه من شدة المراقبة وكثرة الجواسيس والافتراء على الأبرياء.

وسبب نشره أن الأفغانى استقدم من انجلترا إلى الأستانة ولم يكن له من الآثار المطبوعة أو غير المطبوعة نظراً لانشغاله بالمقاومة لكل صنوف القهر ومناهضة الحكام وتحمل جورهم فى سبيل نهضة الشرق دفاعا عن الحرية والعدل. فلازمه المخزومى ، وأبدى رغبته فى التدوين. ووافق عليها الأفغانى أخيراً. وسمح له بالسؤال عما يريد "**اكتب ما تسمع واحفظ ماتراه**" مع التحذير من خطر النشر ومخاطر الطاغية وجواسيس عبد الحميد وعناد أهل الجمود وقلبهم للحقائق. فهم فى كل زمان ومكان سبب هلاك الناس حتى يظهر الحق من أناس آخرين ناقدين باحثين. فالبحث التاريخى قادر على إجلاء الحقيقة.

تأخر الكتاب فى النشر ما يقرب من ثلث قرن. كان يمكن نشره بعد صدور الدستور العثمانى بناء على طلب العلماء فى مصر والهند ولكن حال الأحزاب فى الشرق ينطبق أيضاً على جمعية الاتحاد والترقى أى الاهمال. ثم تكرر الطلب مرة أخرى للنشر عام ١٩١٢ ولكن انقلب الجو السياسى، وتنمر الاتحاديون مع أن الأفغانى لايهاجم الأشخاص أو المؤسسات أو يدعو إلى قلب نظم الحكم بل ينقد الأوضاع. ولما اندلعت الحرب الأوروبية الأولى قطّع الحلفاء تركيا إلى دويلات فتم تأجيل النشر.[٢]

وبالرغم من أعجمية الأفغانى ومرونته فى الالتزام بقواعد اللغة إلا أن العروبة هى اللسان وليست العرق حتى لقد قال الفيروزبادى "**خذوا لغتكم من**

---

[1] المشربن فاتك: جوامع الحكم ومحاسن الكلم، تحقيق عبد الرحمن بدوى، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨.

[٢] الخاطرات ص ١٤.

أعجمى" [١] . وما يعيبها فقط أنها بطبيعتها موضوعات متفرقة غير مرتبة، وأجوبة على أسئلة كما هو الحال فى الفقه القديم فى أحكام السؤال والجواب. وهنا تبرز صعوبة التبويب المستقل لها عن باقى موضوعات الأفغانى فى مقالاته فى العروة الوثقى أو حتى فى رسالته فى الرد على الدهريين. يمكن دراسة أشكالها الأدبية فى إطار اداب الشرق القديمة. ويمكن دراسة مضامينها الأخلاقية والاجتماعية والسياسية وإعادة ترتيبها داخل موضوعاتها كتأكيد على وضوح الفكر وبلاغة التعبير.

وصعوبة العروة الوثقى أنها تمثل روح الأفغانى وصياغة محمد عبده كما هو الحال فى محاورات أفلاطون، روح سقراط وصياغة أفلاطون، وكما هو الحال فى الأناجيل، روح المسيح وصياغات كتاب الاناجيل. ومع ذلك جرت العادة على نسبتها إلى الأفغانى. فالروح أقرب إلى الفكر، والصياغة مجرد ألفاظ وعبارات، بالرغم من الصلة الوثيقة بين المعانى والألفاظ. صدر منها ثمانية عشر عدداً ابتداء من ١٩٨٤/٣/١٣ حتى ١٩٨٤/١٠/١٦ على مدى سبعة أشهر من عام واحد بعد الثورة العرابية بما يقرب من عامين. أصدرها بناء على تكليف من جمعية "**العروة الوثقى**" لانشاء جريده تدعو المسلمين إلى الوحدة تحت لواء الخلافة.

أنواعها الأدبية متعددة، بين المقال والخبر والتحليل السياسى والفن الأدبى مثل الاعجوبة والأسطورة والغريبة....إلخ. وأهمها المقال الذى يتراوح بين العرض النظرى وهو المقال الفكرى الإصلاحى الذى يُعزى أحياناً إلى محمد عبده، والخطبة الإنشائية الحماسية الموجهة مباشرة إلى الجمهور للحث على الثورة ضد إنجلترا فى مصر والسودان والهند والأفغان. وغالباً ما يبدأ المقال بآية قرآنية بمفردها، وهو الأغلب أو بحديث نبوى وهو الأقل[٢]. وأحياناً يبدأ بالآية القرآنية

---

[١] الأعمال الكاملة ص ٥٣٨.

[٢] **أولاً** : مقالات تضاف إلى عناوينها آيات قرآنية مثل :

- الأمل وطلب المجد : ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ : ﴿**ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون**﴾ الأعمال ص ٣٨٩-٣٩٤ العروة جـ١ ص ٢٩-٣٩.
- التعصب ﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء**﴾ الأعمال ص ٣٠٢.
- النصرانية والإسلام وأهلها ﴿**إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾ الأعمال ٢٨٢ العروة جـ١ ص ٨٦. =

دون عنوان للمقال وهو الأغلب أو مع عنوان فى عبارة أو فى مجرد لفظ واحد وهو الأقل وهذا يدل على منهج الأفغانى فى التفسير. فإنه يبدأ بالآية وهو الأغلب

-- الجبن ﴿إينما تكونوا يدرككم الموت ولوكنتم فى بروج مشيدة﴾ ، ﴿قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾ الأعمال ص ٣٧١ العروة جـ٢ ص٢ ٢١٦-٢٢٠.

- الوحدة الإسلامية ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ الأعمال ص ٣٤١ العروة جـ١ص ٢٥١-٢٢٣.

ثانياً : مقالات عناوينها آيات قرآنية فقط مثل :

- ﴿وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ العروة جـ٢ ص٢-١٠٩.

-﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ العروة جـ٢ ص٢-١١٠.

- ﴿آلم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ العروة جـ٢ ص١٤.

- ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ العروة جـ٢ ص٢ -١٦٨.

- ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا زأختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ العروة جـ٢ ص٢-١٧٢.

- ﴿ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾ العروة جـ٢ ص٢-١٤.

- ﴿إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ العروة جـ٢ صـ ٢ ص١٨٨.

- ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ العروة جـ٢ص١٦٠-١٦٧.

ثالثاً : مقالات تجمع بين عنوان وعبارة وآية مثل :

رجال الدولة وبطانة الملك "كيف يجب أن يكونوا" ﴿يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر. قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ الأعمال ص ٣٩٧ العروة جـ٢ ص٤٠-٤٦.

رابعاً : مقالات تجمع بين العنوان والحديث مثل :

-الوحدة والسيادة "**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**" الاعمال ص٣٥٣ العروة جـ٢ص ٦-١٤.

خامساً : مقالات تجمع بين العنوان وعبارة دعاء أو شرط مثل :

- الدهر "**اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الأوهام حتى نرى الحقائق كما هى كيلا نضل ونشقى**" الأعمال ص ٣٦٥.

- دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان "**إذاً أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم**"، الأعمال ص٣١٦ العروة جـ٢ ص١٢٤.

أو الحديث وهو الأقل، ويفسرها باللجوء إلى التجربة الفردية أو الجماعية ويحولها إلى قانون نفسى أو اجتماعى أو تاريخى وكأن الآية هى الواقع، وحكم الشرع هو قانون التاريخ. لا يستنبط معنى الآية من النص عن طريق قواعد اللغة العربية كما يفعل المفسرون بل يستقرىء التجارب والحوادث ليجد فى العالم الخارجى تصديقاً للآية كما هو الحال فى المنهج التجريبى المعروف. فالواقع خير تصديق للوحى. وبتعبير القدماء يتبع الأفغانى منهج التأويل وليس التزيل أى صعود المعانى من أسفل إلى أعلى وليس نزولها من أعلى إلى أسفل كما هو الحال عند الصوفية. وقد تم اختيار الآيات بعناية لأنها هى التى تصوغ قانوناً تاريخياً عاماً يمكن التحقق من صدقه فى الواقع. وهنا يتحول القرآن من قراءة إلى رؤية، ومن كلام إلى واقع، ومن عبارة إلى ثورة، ومن وحى إلى تاريخ.

وقد فصل الأفغانى منهج العروة الوثقى وأهدافها على النحو الآتى :

١- خدمة الشرقيين، وبيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق لتدارك مافات والاحتراس مما هو آت. فهى موجهة إلى الشرق، والإسلام جزء من ريح الشرق، والمسلمون جزء من الجامعة الشرقية، والخلافة جزء من جامعة شعوب الشرق.

٢- البحث فى الأسباب والعلل التى أدت إلى التفريط وبواعث الحيرة والتشابه والتيه والضلال. لذلك اتجهت العروة الوثقى إلى العلوم الاجتماعية وفلسفة التاريخ.

٣- كشف الغطاء عن أوهام المترفين، ونزع الوساوس من عقول المنعمين الذين يئسوا من الشفاء وظنوا أن زمان التدارك قد فات مما أدى إلى فتور الهمم، درءًا لروح اليأس وبثاً لروح الأمل.

٤- التمسك ببعض أصول الاسلاف الشرقيين للتمسك بالقوة لدفع الكوارث. وهو ما يتمسك به الأوروبيون. يلجأ الشرقيون إلى الأسلاف وليس إلى تقليد الغربيين، دفاعاً عن الأصالة ضد التغريب والاغتراب الثقافى.

٥- التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو السبيل للمحافظة على العلاقات والروابط السياسية والا ابتلع القوى الضعيف احتراما للجميع والمساواة الفطرية بين البشر ثم التعارف وتبادل الخبرات بين الشعوب طبقاً لتجارب كل منها وكسبها.

٦- درء تهمة تخلف المسلمين والشرقيين وأنهم غير قادرين على اللحاق بالمدنية ما داموا متمسكين بأصول الآباء وإمكانية الجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين القديم والجديد، وهو الدرس المستفاد من الاجتهاد.

٧- تقوية الصلات بين الأمم والألفة بين أفرادها، والدفاع عن المنافع المشتركة عامة، وحقوق الشرقيين خاصة تأكيداً لوحدة الجنس البشرى والمقاصد الكلية للشريعة، وهي مقاصد الوحي.

٨- إرسالها مجاناً كي يتداولها الأمير والحقير، الغني والفقير، فهي نموذج للصحافة الملتزمة بالقضايا الوطنية وليست صحافة الإثارة أو التكسب بالرزايا والمصائب والفضائح[1].

وتجمع العروة الوثقى بين المقال الفكرى والتحليل السياسي والوصف الإخبارى. فهي مجلة فكرية سياسية تجمع بين الفكر والواقع، بين الأيديولوجية والحزب، بين النظر والعمل. وتعلق على أخبار الجرائد الإنجليزية والفرنسية وعلى أقوال السياسيين وتصريحاتهم مثل غوردون وجراهام وجلادستون وبيكونسفيلد وغيرهم. وتعطى أخبار الحرب والمعارك الدائرة بين الإنجليز من ناحية ومحمد

---

[1] الأعمال ص ٥٣٣-٥٣٤ ويجمل الأفغاني هذه الأهداف بالفقرة الآتية : "في هذه الوريقات (العروة الوثقى) أمثلة تشهد وقضايا تصدق على الشرق وأهله ماداموا في تلك الغفلة وذلك الشقاق. رضوا بالخوف والذل. فالظلم يتغير في الشكل لا في النتيجة. ويتغير المظلومون وأعمال الظلم واحدة. ولا تتغير إلا بقوة الأمة وإجماع الكلمة والصادقون المجاهدون الناهضون في سبيل الأوطان، وتخليص الأمم واحد. والخونة الساقطون واحد بالرغم من اختلاف الأسماء ﴿سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

أحمد وعثمان دجمة من ناحية أخرى. وتستدعى ذكريات التاريخ مثل قتال الإنجليز للأمير عبد الله الوهابى على حدود الهند ومثل حملات فرنسا على الصين. المقالات أقل، والتحليلات والأخبار والتعليقات السياسية أكثر. كما تعطى معلومات مفيدة للمسلمين خاصة وللشرقيين عامة عن الاستعمار والغرب والإنجليز حتى تضيع هيبتهم ورهبتهم من النفوس. فقد أباح غوردون بيع الرقيق فى السودان وهو الآتى من الحضارة الغربية التى طالما دافعت عن حقوق الإنسان. كما استبعدت بريطانيا مصر من إدارة السودان، وطلبت من الميرغنى التدخل لدى عثمان دجمة لوقف جهاده ضد الإنجليز، وإعلان الحرب الدينية على إنجلترا واستنفار أوربا وروسيا ضدها وكشف سياسة التلوى والمخادعة والنفاق التى تتبعها إنجلترا. وتنقد المجلة تدخل الأجانب فى شؤون الدول الإسلامية، وتقلد الجيش المصرى جنرال أجنبى، وتدخل بريطانيا فى شؤون مصر والدولة العثمانية. كما تساعد المجلة على تبديد وهم القوة البريطانية والعجز عن مقاومتها، ورفض اعتقاد السذج أن الله يؤيد المهدى بالملائكة المسومين. وقد ارتبط القراء بالمجلة وراسلوها مما دفع المجلة إلى التعليق على الرسائل وازدياد ارتباط الناس بها. فمنعت من دخول البلاد المصرية.

لقد عاش الأفغانى فى عصر بسمارك والوحدة الألمانية بالقوة وفى عصر الرومانسية الأوروبية. فانعكس ذلك على المجلة بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية بالخطاب الرومانسى لحشد الناس وأحياناً بالخطابة المباشرة وأحياناً أخرى بالتأمل النظرى، ومرة ثالثة بالتحليل الاجتماعى الطبيعى لاسباب انهيار الدولة الإسلامية. فجاءت تعبر عن عصرها وكل عصر مطحون بالتجزئة والاستعمار الجديد والرهبة من الغرب أو تقليده وفتور الناس وركونهم إلى الوهم والخمول[1].

---

[1] ظهرت "**اليسار الإسلامى**" استئنافا للعروة الوثقى فى ١٩٨٠ بعد أن أراد السادات سرقة الأضواء تمسحاً بالإسلام ومدعياً أنه خامس الخلفاء الراشدين، فأصدر عدة أعداد من الجامعة العربية بعنوان "**العروة الوثقى الجديدة**".

وتعتمد هذه الدراسة عن الأفغاني في ذكراه المائوية الأولى على منهج القراءة وإعادة إنتاج النص ونقله من ظروف القرن الماضي إلى ظروف هذا القرن، تمثلا للأفغاني وروح عمله. فلو أن الأفغاني بُعث الآن بعد مائة عام فأى مذهب يرد عليه، الدهريين أم غيرهم من الفرق؟ يكتب "**الرد على الدهريين**" أم "**دفاعاً عن الدهريين؟**" وأى خاطرات يمكن أن تجول فى ذهنه أو تعتمل فى نفسه وقد أخذت أمريكا مكان بريطانيا فى السيطرة على العالم، وأصبحت تركيا تهدد شمال العراق وسوريا بالتحالف مع إسرائيل وأمريكا ولم تعد دولة الخلافة ويهددها الشقاق بين الجيش الذى مازال يمثل الثورة الكمالية والحكومة التى تمثل حزب رفاه، التيار الإسلامى المعقول وريث تركيا الإسلامية؟ وماذا عن اسرائيل التى استولت على فلسطين، وتقوم بتهويد القدس أمام عجز العرب وتفككهم؟ وماذا عن حصار العراق وليبيا، فالعرب لم يعودوا أحراراً فى بلادهم؟ وماذا عن مخاطر تفتيت السودان وتهديد وحدتها من جيرانها بتدعيم الغرب وإسرائيل بعد أن كانت تمثل ثورة المهدى ضد الإنجليز، وتكوّن مع مصر وحدة وادى النيل؟ وهل انتهى مشروع الأفغاني الذى صاغه القرن الماضى: الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل ؟ وماذا عن الغزو الصربى للبوسنة والهرسك، والسوفيتى للشيشان وقبلها لافغانستان، والهند واحتلالها كشمير، وتقسيم باكستان؟ وهل انتهت نظم القهر فى الداخل، والدول العربية نموذجاً محكومة أما بنظم عسكرية أو ملكية، أما من الجيش أو قريش، وكلاهما ليسا نظامين إسلاميين يقومان على أن الامامة عقد وبيعة واختيار؟ وهل انتهى تقليد الغرب أو جهل علماء المسلمين؟ وهل انتهت سلبية الجماهير وعجزها ولا مبالاتها أم أنها مازالت فى حاجة إلى افغانى يبعث من جديد وإلى عروة وثقى جديدة ؟ لذلك يقوم المنهج المتبع فى هذا الكتاب على عدة مستويات :

١- العرض والتحليل لنصوص الأفغاني كما هى عن طريق شرحها والتعبير عنها موضوعياً كما يفعل المبتدئون فى العلم وطلاب الدراسات العليا دون اجتهاد أوتأويل دون الوصول إلى حد التكرار الممل وتحصيل الحاصل الذى يسود الكتب الجامعية.

٢- المناقشة والحوار للآراء المعروضة فى حد ذاتها وفى إطارها التاريخى وفى مستوى عصرها من أجل تعميقها وتفتيحها وتحريكها استعداداً لاعادة كتابتها وإنتاجها وصياغتها فى ظروف أخرى جديدة حدثت بعد قرن من الزمان. وهو ما يفعله الطالب المجتهد الذى لا يكتفى بالعرض والتحليل بل يتجرأ إلى المناقشة والحوار اعداداً له وتمرينا كى يتجاوز المادة العلمية إلى مادة علمية أخرى يضيفها. فهو جزء من العلم وليس خارجاً عنه، ذات وموضوع فى آن واحد.

٣- إعادة كتابة نصوص الأفغانى بناء على الظروف الحالية، وكأن الباحث أصبح أفغانياً جديداً، وكأن الأفغانى نفسه قد بعث من جديد بعد مائة عام، فيتحول العلم إلى عمل، ويستمر القصد الأول فى التاريخ، ويكون الباحث جزءاً من حركته وليس متفرجاً عليه، مصوراً له فى إحدى لحظاته الماضية.

وتتم الخطوة الثالثة على مراحل ثلاث :

أ- وضع النص فى صياغته الأولى فى إطاره التاريخى من أجل تفسيره ووصف التجارب الأولى التى نشأ فيها، والظروف التاريخية التى عاشها المؤلف من أجل معرفة كيفية انتاج النص الأول. ويكون الخطأ فى إهدار سياق الصياغة الأولى أو تكرارها فى سياق آخر مختلف والحكم عليها بالخطأ والصواب.

ب- إعادة كتابة النص فى صياغة ثانية بناء على الظروف المتغيرة وبيان مدى الاتفاق والاختلاف مع التجارب الأولى، الاتفاق واستمرار الصياغة والاختلاف وإعادة كتابة النص. فعل القراءة هنا يتجاوز فعل التأويل إلى إعادة إنتاج النص من جديد. فلا توجد صياغة ثابتة والا قضى على الهدف من النص وهو تحريك الواقع. ولا يوجد للنص مؤلف واحد بل عدة مؤلفين : فالقارئ الثانى مؤلف مشارك، والمؤلف هو قارئ أول. المؤلف الأول يفهم من الواقع إلى النص والقارئ الثانى يفهم من النص إلى الواقع ثم يعيد الكتابة من الواقع إلى النص.

جـ - لا يوجد خطأ وصواب فى النص فى صياغته الأولى إلا بقدرما يعبر عن ظروفه التاريخية الأولى وبواعث مؤلفه الأول. لا توجد مرجعية خارجه، بعيدة

عن لغته وسياقه وبواعثه. ولا يوجد خطأ وصواب فى الصياغة الثانية إلا بقدر تغير نشأة النص الأول ثم إعادة إنتاجه فى ظروف مغايرة مع الابقاء على بواعثه ومقاصده وأهدافه التى تحدد مسار حركته. الثابت بين النص الأول للمؤلف والنص الثانى للقارئ وربما الصياغات المستقبلية لقراء آخرين هو روح النص، النص باعتباره مقاصد وغايات وبواعث فردية وجماعية وحركة تاريخية وتراكم خبرات طويلة تكوّن الوعى التاريخى لحضارة وشعب.

والمنهج فى كلتا الحالتين، مستويات التحليل الثلاثة أو فى خطوات المنهج الثلاث، إنما يعتمد على منهج واحد وهو تحليل الخبرات الشعورية الفردية والجماعية. فالنص صياغة لغوية لتجربة شعورية فى صياغته الأولى. وهو أيضاً تجربة شعورية فى الصياغة الثانية إذا كان الواقع التاريخى لم يتغير، الاستعمار والقهر والتجزئة والتخلف والتغريب وسلبية الجماهير. هذه الوحدة المستمرة للتجربة الشعورية فى النص الأولى وفى إعادة انتاجه هى إحدى الضمانات للفهم الموضوعى للنص باللجوء إلى مصدره فى وحدة التجربة. كانت العروة الوثقى تنزل على قلوب الناس كأنها "**وحى سماوى أو إلهام إلهى**" لقدرتها على التعبير عن الواقع وكشفه وإيصاله للناس[1]. والخاطرات مازالت تنزل على قلوب الناس طازجة بالرغم من انقضاء قرن عليها لأن التجربة المعاشة واحدة لم تتغير فيما يتعلق بتجارب الاستعمار والقهر بصرف النظر عن مصدرهما، إنجلترا ثم أمريكا، السلطان عبد الحميد ثم الأنظمة العربية الحالية، الجيش وقريش، وهذا ما سماه الأصوليون القدماء خصوص السبب وعموم الحكم.

وبطبيعة الحال كان يغلب على فكر الأفغانى طابع الدفاع لأنه عاش فى سياق الهجوم على الاسلام من التبشير والاستشراق. فرد على رينان كما رد عليه مصطفى عبد الرازق. ومازال هذا الطابع الدفاعى هو الغالب على الفكر الاسلامى المعاصر، رد محمد عبده على فرح أنطون وترويجه للتجربة الغربية وتعميمه على

---

[1] العروة الوثقى ص أ.

غيرها من تجارب الشعوب وثقافاتها فى "**الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية**"، وفى الرد على هانوتو، ورشيد رضا فى "**شبهات النصارى وحجج الإسلام**"، وعند محمد فريد وجدى فى "**لماذا أنا مؤمن؟**" ردا على إسماعيل أدهم "**لماذا أنا ملحد؟**"، وعند محمد الغزالى فى "**من هنا نعلم**" ردا على خالد محمد خالد فى "**من هنا نبدأ**" ومحمد الغزالى أيضافى "ظلام من الغرب" رداً على زكى نجيب محمود فى "**شروق من الغرب**". وطالما أن الهجوم على الاسلام مازال مستمرا، ثروات وفكرا وهوية وتاريخا، فإن الدفاع عنه أيضاً من الإسلام التقليدى أحياناً ومن الإسلام المستنير أحياناً أخرى يظل مستمراً أيضاً حتى تخف حدة الجدل والسجال، ويبدأ العقل بالتحليل والبرهان. مازال الفكر الإسلامى المعاصر فكراً جدلياً كلامياً مع العصر ولكن فى سياق تاريخى مغاير. ولكنه فى النهاية أقرب إلى علم الكلام منه إلى الفلسفة. وإلى الجدل منه إلى البرهان. بل إن "**الرد على الدهريين**" كتب دفاعاً عن الإيمان ضد الملحدين الداعين لنبذ الأديان وحل عقود الإيمان[1]. غايته نقض مذاهب الطبيعيين وإرغام الضالين بتأييد عقائد المؤمنين. والحقيقة أن مقاييس العلم برهانية خالصة وليس الدفاع الجدلى عن مسلمات الإيمان. يمكن تأويل الايمان على نواحٍ عدة حتى يتفق مع العلم أو يختلف معه. وفى هذه الحالة يكون العلم هو الثابت والإيمان هو المتغير، والعلم لا يدعى ثباتاً بل هو متغير فى كل عصر، والإيمان يدعى ثباتاً وينكر التغير. والحقيقة أن كليهما متغير بتغير فهم البشر للعلم وللدين طبقاً لتصورات كل عصر. كما تغلب على فكر الأفغانى الدعوة السلفية، الرجوع إلى الماضى، إذ لا يصلح هذه الأمة الاما صلح به أولها، وأن السلف خير من الخلف الذى أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات، وأن خير القرون قرن الرسول، وأن الخلافة ثلاثون سنة تتحول بعدها إلى ملك عضود. وهى الدعوة التى مازالت تتردد فى الخطاب السلفى والتى تجعل النموذج أو القدوة فى الماضى وكأن للتاريخ نموذجاً ثابتاً فى إحدى لحظات مساره. وهى الدعوة الرومانسية الموجودة فى كثير من الحركات الاصلاحية فى كل مكان مثل مارتن لوثر، ولامنيه، وشاتوبريان. وذلك على عكس الدعوة إلى المستقبل، وأن الكمال قادم وليس ماضياً، وأن حركة التاريخ فى صعود وليست فى هبوط. وهى الروح التى عبر عنها رينان فى "**مستقبل العلم**" ومحمد عبده ربما فى الجزء الأخير من "**رسالة التوحيد**" عن تقدم

---

[1] الرد على الدهريين. الأعمال الكاملة ص ١٢٨.

الإسلام فى التاريخ بسرعة لم يشهد مثلها العالم من قبل، وأن الوحى ممكن الوقوع وكما هو الحال فى كل محاولات إنشاء فلسفة جديدة للتاريخ تضع شروط النهضة ولا تكتفى بوصف أسباب الانهيار كما فعل ابن خلدون، محاولات بدأها أديب إسحق تلميذ الأفغانى الأثير.

أما القول الخطابى فمازال يسيطر على الفكر الإسلامى المعاصر بالتناوب مع القول الجدلى، ويقل كثيراً القول البرهانى إلا فيما ندر. ومن الصعب تحويل الخطابة إلى تصورات، والحماسة إلى أفكار. فالمقصود منها الجماهير وليس العلماء، والمستمع جزء من مكونات الخطاب. فالخطاب رسالة من مرسل إلى رسول. والحركة الاجتماعية جزء من مكونات الخطاب أيضاً باعتباره بواعث ومقاصد وليس مجرد الحقائق النظرية. لذلك يستعمل الأفغانى كثيراً أسلوب النداء وضمائر المخاطب مفرداً أو جمعاً[1].

قد يظهر الاسلوب الخطابى والقول الانفعالى أحياناً فى هذه الدراسة أسوة بالموضوع، ومشاركة فى الهم والقصد. فليس المطلوب باسم العلم إيقاف حركة التاريخ أو عزل الخطاب عن الجماهير وإلا كان ادعاء مقصوداً وخطابة سلطان. وهو خطاب فى النهاية كان منبره الصحافة. فالصحافة عند الأفغانى منبر الفكر، عمل شريف. ويعترف بأنه صحفى، له جريدة فى باريس" [2].

وبالرغم من أن تقسيم أعمال الأفغانى على الجبهات الثلاث وارد :الموقف من التراث القديم وضرروة إعادة بنائه، والتحول من السلب إلى الإيجاب مثل إعادة تفسير القضاء والقدر، والموقف من التراث الغربى خاصة السلبى منه مثل الدهرية أى المادية، مذهب الطبائعيين، دارون وسبنسر وبشنر، ويضع الأفغانى معهم السوسياليست والنهيلست فولتيرورسو، واتجاهات الغرب، والاستعمار، والتآمر والتعصب والجنس، والموقف من الواقع المباشر للأمة، الاستعمار والقهر والتفكك والفقر والتقليد للغرب واللامبالاه إلا أن الأولوية كانت لمادة الأفغانى نفسه، فكره

---

[1] مثل "ياقوم ، واأسفاه" الأعمال ص ٥٣٥ -٥٣٦.

[2] "الصحافة عمل شريف، وأنا صحفى. وكان لى فى باريس جريدة أكتب فيها" الأعمال ص ٣٢٧.

النظرى فى الرد على الدهريين وهو ما يعادل التوحيد، وإعادة تفسيره للقضاء والقدر على أنه حرية وهوما يعادل العدل، ورأيه فى العلم وصلته بالعمل وهو ما يعادل العقل والنقل ثم الفضيلة كما تتجلى فى الأخلاق الفردية والاجتماعية وهو ما يعادل الإيمان والعمل. وهنا يبدو الأفغانى متكلماً فى جبهة التراث القديم، ثم يأتى التقابل بين الأنا والآخر، والشرق والغرب، والمسألة الشرقية وهو ما يعادل الموقف من الآخر. ثم يأتى، مصر والمصريون، والوحدة الإسلامية، وأسباب تخلف المسلمين، وهو ما يعادل الموقف من الواقع، والمساهمة فى حركة التاريخ.

قد يكون نص ناقصاً هنا أو هناك أو تحليل تنقصه الدقة أو دراسة ثانوية ناقصة من هنا أو من هناك. ولكن الأهم هو إعادة انتاج الأفغانى بعد قرن من الزمان فى ذكراه المائوية الأولى[1].

---

[1] بالإضافة إلى الطبعتين السابقتين لأعمال الأفغانى التى قام بهما د. محمد عمارة، الأولى، فى الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٦٨ والثانية فى المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩ صدرت طبعة ثالثة فى باريس قام بها على شلش بالفرنسية لم نطلع عليها. وتتضمن بعض مقالاته بالفرنسية التى لم تجمع من قبل فى الطبعتين السابقتين. ومازالت أعمال الأفغانى فى حاجة إلى طبعة علمية جديدة نقدية وموثقة لا تقوم فقط على إعادة طبع ما طبع من قبل.

أما الدراسات الثانوية فعديدة أهمها :

١- محمود قاسم : جمال الدين الأفغانى، حياته وفلسفته، الأنجلو المصرية، القاهرة (د.ت).

٢- عبد الرحمن الرافعى : جمال الدين الأفغانى، باعث نهضة الشرق، دار الكاتب العربى، القاهرة ١٩٦١.

٣- محمود أبو رية : جمال الدين الأفغانى، مؤسسة نصار للتوزيع والنشر، القاهرة ١٩٥٨.

٤- أحمد أمين " زعماء الاصلاح، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٨.

٥- هانى المرعشلى : جمال الدين الأفغانى وقضايا المجتمع الإسلامى. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.

٦- لطف الله خان : جمال الدين الأسد أبادى المعروف بالأفغانى ، ترجمة د. محمد عبد النعيم حسين. دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٧٣.

الفصل الثانى

الفكر النظرى (الرد على الدهريين)

(التوحيد)

١- النقد النظرى

"**الرد على الدهريين**" إجابة على سؤال من أحد القراء فى الهند عن معنى لفظ "نيتشر" السائد فى الأقطار الهندية. فالسؤال محلى حول موضوع محلى وليس سؤالا عن المذهب الطبيعى Naturalism الغربى. والسؤال طويل ومركب ومتعدد الجوانب، عن حقيقة المذهب الطبيعى كما شاع فى الهند وعن الطبائعيين، وهل يمكن أن يكون المذهب عماد المدنية؟ وماقصده؟ وهل ينافى مقاصد أصول الدين أويعارضها؟ وما علاقة هذا المذهب بمطلق الدين فى عالم المدنية ؟ وماذا كانت صورة المذهب قديماً ؟ ومن هم دعاته الآن؟ ولما ذا ينتشرون ؟ وما الغاية من ذلك كله ؟ [١]

والحقيقة أنه لما استقر الاستعمار فى الهند شجع الإنجليز أحمد خان بهادور، وهو لقب تعظيمى فى الهند، من صنيعتهم لخلع دين المسلمين، والتدين بمذهب الإنجليز. فألف كتاباً يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين لارضاء الإنجليز. ثم قال بالمذهب الدهرى. فلا وجود إلا للطبيعة العمياء دون إله حكيم. وجميع الانبياء كانوا طبيعيين ومن ثم يمكن التخلص من الشرع وبالتالى من الجهاد، ودفع المسلمين إلى الشهوات والحياة الدنيا. وبنى الإنجليز له مدرسة عليكره، مدرسة المحمديين لنشر الدعوة. فأوروبا لم تتقدم إلا بالمذهب الطبيعى. وقد كافأه الإنجليز بتعيين ابنه مولوى محمود عضواً فى مجلس قرية من قرى الهند لايزيد حجمها على شبراخيت فى مصر. ووعدوا كل من اتبعوه بتعيينهم فى وظائف الحكومة. وهو دجال آخر الزمان، يهدف إلى محو الإسلام فى الهند.

---

[١] الرد على الدهريين، الأعمال ص ١٢٩.

فالدهريون هم جيش الحكومة الإنجليزية فى الهند. واستمر تلميذه الأول سميع الله خان فى تضليل المسلمين. وكان صديقاً للورد نورثبروك الذى كان يعمل على تنفير المصريين من الدولة العثمانية[١].

وقد كتب الكتاب بالهندية والفارسية. لاينقسم إلى فصول أو أبواب كما هو الحال فى التأليف الحديث بل إلى عدة مطالب غير مرقمة أو مرتبة وخاتمة للكتاب. تشمل عرضا تاريخياً للمذهب وفرقه، وهو الجزء الأصغر ثم أربعة عشر مطلباً فى خطورته على الأديان والرد عليه، وهو الجزء الأكبر، أربعة أضعاف الجزء الأول وهو ما يتفق مع عنوان الكتاب[٢].

---

[١] العروة الوثقى جـ٢ ص ١٤٠-١٤١.

[٢] الجزء الأول ١٢ صفحة والثانى ٤٠ صفحة.

والمطالب الأربعة عشر على النحو الآتى :

١- مطلب مظاهر الماديين ومقاصدهم ص ١٤٠-١٤١.

٢- مطلب ما أفاد الدين فى العقائد والخصال ص ١٤١-١٤٤.

٣- مطلب فى الخصال الثلاث ص ١٤٥-١٤٨.

٤- مطلب فى تفصيل غاية النيتشريين ص ١٤٩-١٥١.

٥- مطلب فى مسالك النيتشريين فى طلب غاياتهم ص ١٥١-١٥٢.

٦- مطلب فى ضرر مذاهب النيتشريين حتى بعقول من لا يأخذ فاصل بها إذا خالطهم ص ١٥٢-١٥٣.

٧- مطلب فى بيان الأمم التى خضعت للذل وضرعت للضيم بعد العزة والشرف ص١٥٣-١٥٧.

٨- مطلب فى الأمة الإسلامية ص ١٥٧-١٦٣.

٩- مطلب فى السوسيالست (الاجتماعيون)، النهيلست (العدميون)، الكومميست (الاشتراكيون) ص ١٦٣-١٦٥.

١٠- مطلب فى دهريى الشرقيين ص ١٦٥.

١١- مطلب فى الأمور التى يمكن بها إلزام النفس حدود العدل ص ١٦٦.

١٢- مطلب فى مضار إنكار الألوهية ص ١٦٧-١٧٣.

١٣- مطلب فى أن الدين الإسلامى أعظم الأديان ص ١٧٣.

١٤- مطلب فى الأمور التى تتم بها سعادة الأمم ص ١٧٣-١٧٩.

وهناك ملخص لموضوعاتها فى الخاطرات ص ٤٠٧-٤١٠.

وهو مذهب ظهر فى اليونان فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، يهدف فى رأى الأفغانى إلى محو الأديان ووضع أسس الإباحة والاشتراك فى الأموال والابضاع بين الناس. ففسدت الأخلاق وانهارت الأمم أى أنه قضى على الطبيعة والمجتمع. وفسدت المدنية، ونقضت الهيئة الاجتماعية الإنسانية. والدين هو أساس النظام الاجتماعى والتمدن. فالمذهب ضد الدين وضد أى تنظيم على أساس دينى[١]. فواضح من هذا التعريف أن العرض الموضوعى يشمل النقد بل يتجاوز النقد العرض الموضوعى. لايتجاوز العرض نشأته التاريخية مكاناً وزمانا ثم بعد ذلك يبتلع النقد العرض. والنقد كله يقوم على أساس خطورته على الدين وقضائه عليه لأن الدين أساس المجتمع. فالمذهب يمحو الدين وبالتالى يقضى على المجتمع ويكون سبب انهياره فى التاريخ. وهو النقد الشعبى الرائج فى الصحف الدينية المحافظة التى تعتبر كل تفكير فى المادة وكل تنظيم اجتماعى يقوم على الشراكة مادية وإلحادا، نقد رجال الدين للمذهب الطبيعى وهو مازال سائداً حتى الآن، وليس نقد العلماء من داخل المذهب فى مقدماته ونتائجه وحججه واستدلالاته وبراهينه[٢].

ومنذ تاريخ اليونان فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد وجد تياران: الأول تيار إلهى يثبت وجود ذات مجردة عن المادة والزمان ، مخالفة للمحسوسات فى صفاتها، منزهة عن صفات الجسم وأعراضه، واحدة منزهة عن التأليف والتركيب، وجودها ذاتها وذاتها وجودها. وهى المصدر الأول والمبدع لكل الكائنات. ويعرف أنصار هذا التيار باسم المتألهين أى الخاضعين لله مثل فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو. والثانى طبيعى لا يثبت إلا المادة المدركة بالحس، ولايوجد شيء وراءها. لذلك سمى أنصار هذا المذهب باسم الماديين، والمذهب نفسه بالمادية Marérialisme. المادة طبيعة، والطبيعة مادة. يرجع اختلاف خواصها إلى طبيعتها. ويسمى أيضاً المذهب الطبيعى. ويعربه الأفغانى ويسميه ناتوراليزم

---

[١] الرد، الأعمال ص ١٢٩.

[٢] طبقاً لتحليل المضمون لايذكر الأفغانى من أعلام المذهب الطبيعى إلا ديموقريطس (٥)، أبيقور (٤) من اليونان، دارون (٤)، فولتير (٣)، روسو (٢) من المحدثين، مزدك (١) من فارس.

Naturalisme كشيخ تعلم اللغات الأجنبية على كبر. يذكرها أيضاً بالفرنسية "تاتير" وبالانجليزية "نيتشر" وبالألمانية "ناتور". وعرف أيضاً عند العرب باسم الطبيعيين والأصح الطبائعيين الذين يقولون بالطبائع مثل أصحاب الطبائع من المعتزلة والنظام والجاحظ ومعمر بن عباد، وهشام بن الأشرس[١].

والحقيقة أن هذا التصنيف الثنائى للمذاهب غير دقيق بالرغم من شيوعه فى الكتب الثانوية والثقافة الفلسفية الشعبية الشائعة لتثقيف العامة. فالمتألهون ليسوهم الخاضعون لله بل المثبتون لله لأن الأفغانى لا يفرق ضمناً بين الإيمان والعمل، بين الفكر والسلوك . فمن يثبت وجود الله يكون بالضرورة مطيعاً له. كما أن وضع أفلاطون وأرسطو معاً فى نفس المذهب الإلهى غير دقيق. أفلاطون إلهى وأرسطو طبيعى. صحيح أن الأول يقول بالمثال المجرد ولكن الثانى يقول بالطبيعة التى تتجه نحو الكمال. الأول لا يقول بالخلق بل بالصنعة ربما من مادة أولى قديمة، والثانى يقول بالمحرك الذى لا يتحرك، ويحركه الله نحو العالم بالعشق. كما أن فيثاغورس وسقراط وأفلاطون يسيرون فى نفس الاتجاه، إثبات المعنى المستقل عن المادة سواء كانت المعانى الرياضية مثل فيثاغورس أو الأخلاقية مثل سقراط أو الفلسفية مثل أفلاطون.

وينقسم أنصار المذهب الطبيعى إلى خمسة فرق فى تكوين العالم، الكواكب والحيوان والذبات على النحو الآتى :

١- تكوين العالمين العلوى والسفلى عن طريق الصدفة والاتفاق، والترجيح بلا مرجح، وهو فى رأى الأفغانى يناقض بداهة العقل. وأهم ممثل لهذا الفرقة ديموقريطس. فالعالم مكون من أجزاء صغيرة صلبة متحركة بالطبع، ومن حركاتها تظهر الاجسام وهيئاتها بقضاء العماء المطلق. وواضح أن الأفغانى لا يصبر على العرض كى يستوفيه معه بل يسرع بالنقد فى أول العرض ويعتبره مناقضا لبداهة العقل ويعنى به قواعد الإيمان. فقد يرى آخر أنه متفق مع العقل

---

(١) الرد، الأعمال ص ١٣١-١٣٢.

الطبيعى. وهو المذهب الذى كتب فيه ماركس رسالته للدكتوراه معتبرا إياه مؤسس المادية الأولى. ويسمى الأفغانى العماء العماية. كما يسمى الحتمية القضاء. وهى ألفاظ إسلامية تكشف عن قراءة الآخر بمصطلحات الأنا طبقاً لقواعد التشكل الكاذب، جدل اللفظ والمعنى فى الالتقاء الحضارى، التعبير عن مضمون الأنا بلفظ الآخر أو التعبير عن مضمون الآخر بلفظ الأنا[1].

٢- الأجرام السماوية والكرة الأرضية على حقيقتها منذ الأزل ولاتزال، لابداية لها. وكل شيء لاحق مكنون فى السابق، الشجرة فى البذرة، والثمرة فى الشجرة، والكائن الحى فى الخلية إلى مالانهاية. فالمقادير اللامتناهية توجد فى المقادير المتناهية. وهى نظرية الكمون والطفرة الشهيرة التى قال بها النظام وأقرانه من أصحاب الطبائع. وهو رأى لا يتناقض مع القرآن فى وصف تطور الجنين فى رحم الأم من العلقة فالمضغة إلى عظام إلى لحم. والأفغانى لا يعلق عليه ولاينقده.

٣- النبات والحيوان قديمان بالنوع، والأجرام العلوية وهيئاتها قديمة بالشخص. ولاشيء من الجراثيم الأولى قديمة بل محدثة. قالب سابق يتكون فيه اللاحق. وينقد الأفغانى هذه الفرقة الثالثة بأن كامل الخلقة قد ينتج عن ناقص الخلقة، وأن ناقص الخلقة قد ينتج عن كامل الخلقة. وهو رأى وسط بين القدم والحدوث. فالأجرام السماوية قديمة بالشخص والحيوان قديم بالنوع ولكن الجراثيم الأولى محدثة. وهو ما يصعب فهمه. وحجة الأفغانى، خروج الكامل من الناقص والناقص من الكامل غير حاسمة فى نقد هذه الفرقة الثالثة.

٤- إثبات التطور مع الإيهام بالبيان. فأنواع الحيوان والنبات تقلبت على أطوار، وتبدلت على أدوار على مر الزمان حتى وصلت إلى هيئاتها الآن. وهو رأى أبيقور أحد اتباع ديوجينس الكلبى. فقد كان الإنسان فى بعض أطواره مثل

---

[1] انظر تحليلنا لظاهرة التشكل الكاذب فى "التراث والتجديد"، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠ ص ١٢٣ - ١٤٠.

الخنزير ذى شعر كثيف. ثم تطور حتى وصل إلى صورته الحسنى التى هو عليها الآن. ولا يوجد برهان على ذلك فى رأى الأفغانى مع أن أصحاب نظرية التطور يعطون عشرات البراهين فى وصف تطور الكائنات الحية لبيان اتصالها حتى ولوكانت هناك بعض الحلقات المفقودة. فالعلم الطبيعى وتطور الأحياء قادر على اكتشافها بمزيد البحث والاستقصاء. ولايوضح الأفغانى إذا كانت هذه الفرقة مستقلة أم أنها فرع من الفرقة الثالثة.

٥- القول بالحدوث عند الماديين المتأخرين بعد أن بين علم الجيولوجيا، علم طبقات الأرض، بطلان قدم الأنواع. ثم اختلف انصار هذا الرأى فى موضوعين: الأول تكوين الجراثيم النباتية والحيوانية. فالبعض يرى أن تكوين الجراثيم جاء نتيجة تناقص التهاب الأرض ثم انتهى هذا التكوين بنهاية التطور. والبعض الآخر يرى أن تكوين الجراثيم مازال متصلاً حتى الآن خاصة فى خط الاستواء حيث تشتد الحرارة. وينقد الأفغانى رأى الفريقين لعجزهما عن بيان سبب حياة هذه الجراثيم النباتية والحيوانية خاصة بعد ماتبين أن الحياة فاعل فى بسائط الجراثيم، يوجب التآمها، وتحفظ تكوينها، وأن القوة الغاذية هى التى تجعل غير الحى من الأجزاء حياً بالتغذية، فإذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها فصارت إلى الانحلال، وقد ظن فريق ثالث أن هذه الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن الشمس وهو ما لايتفق مع القول بأن الأرض كانت جزءاً ملتهباً من الشمس مما يؤدى إلى احتراق هذه الجراثيم وصورها فى النار[١].

والثانى موضوع الخلاف هو التحول من النقص إلى الكمال . فالبعض يرى أن لكل نوع جرثومة، ولكل جرثومة طبيعة تميل إلى حركة تناسبها فى الأطوار الحيوية وتجذب ما يلائمها من الأجزاء غير الحية ليصير جزءاً لها بالتغذية ثم تملؤه بلباس نوعه. وينقد الأفغانى هذا الرأى بعلم الكيمياء وإثباته أنه لا فرق بين

---

[١] الرد، الأعمال ص ١٣٢ - ١٣٤.

نطفة الإنسان ونطفة الحيوان، وبتماثل النطفة فى العناصر البسيطة، وبالتالى بالعجز عن تفسير التخالف فى طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرهـا. والبعض الآخر يرى أن جراثيم الأنــواع خاصة الحيوانية متماثلة فى الجواهر، متساوية فى الحقيقة، وليس بين الأنواع تخالف جوهرى ولا انفصال ذاتــى، وبالتالى يجوز الانتقال من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضــى الزمان والمكان وحكم الحاجة والضرورة وقضاء سلطان القســر الخارجى. ويمثل دارون هذا الرأى فى "**أصل الأنواع**". فأصل الإنسان قرد ثم عرض له التنقيح والتهذيب للصورة بــالتدريج على توالى الأزمان وبتأثير العوامل الخارجية حتــى ارتقى إلــى درجة يسميها الأفغانى برزخ أوران أوثان، وهو لفظ قرآنى صوفي، وهو نوع من القردة العليا حتى وصل إلى صورة الإنسان الأول، البمبم وسائر الزنوج ثم إلى الإنسان القوقازى، ويسخر الأفغانى من ذلك بأنـه طبقاً لهذه النظرية يمكن أن يكون البرغوث فيلا بمرور الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثاً. فالتطور تقدم ونكوص، ارتقاء ورجوع. وهى حجة خطابية لأن التطور يخضع لقانون. كما يسأل الأفغانى دارون عن سبب اختلاف الاشجار فى بقعة واحدة وزمان واحد، تروى بماء واحد وفى طينة واحدة، وسبب اختلاف أشكال الاسماك فى بحيرة واحدة وطعام واحد ومياه واحدة، واختلاف أشكال الحيوانات وهى تعيش فى منطقة واحدة. ويسأل عن العلة الفاعلة لهذه الجراثيم فى استكمالها الجوارح والأعضــاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة والإبداع، لكل منها وظيفة محددة. كيف يمكن إرجاع ذلك إلى الضرورة العمياء دون إرادة واعية مريدة قاصدة؟ ويرى الأفغانى أن العجز عن الرد على هذه التســاؤلات يجعل نظرية التطور مجرد جهل ووهم وخرافة مثل المشابهة الواهية بين الإنسان والقرد التى هــى مجرد عماية وحيرة. والحقيقة أن الأفغانى هو الذى يتحول من العلم إلى الدين عن طريق تشخيص العلل الطبيعية وتحويلها من قوانين ثابتة إلى إرادة مشخصة عالمة قادرة مريدة كما هو الحــال فى علم الكلام التقليدى فى الأدلة على وجود الله. كما يحاول دارون تفسير اختلاف

الخيل فى سيبريا والبلاد الروسية لأنها أغزر شعراً من الخيل فى البلاد العربية مستعملا نظرية التطور. والسبب فى ذلك فى رأى الأفغانى هو البيئة الجغرافية وحاجة الخيل فى البلاد الباردة إلى شعر يدفئها. وهو نفس السبب لكثرة النبات وقلته لكثرة الأمطار أو ندرتها، وكذلك السمنة فى البلاد الباردة والنحافة فى البلاد الحارة طبقاً لدرجات الحرارة. كما ينقد الأفغانى ساخراً نظرية التطور الهاوية بأن من يقطع ذنب كلب عدة قرون تتولد الكلاب بلا أذناب بعد أن تكتسب الصفات الوراثية ولأنه لم تعد للذنب حاجة فى الطبيعة فاستغنت عنه مع أن الختان موجود منذ آلاف السنين عند العبرانيين والعرب ولم يولد إنسان مختن[١]. ويستعمل الأفغانى أسلوب الحجاج التقليدى فى علم الكلام، ويتخيل المعترض ويرد عليه سلفاً بطريقة فإن قيل ... قال. ولا يتعرض الأفغانى للنقد الرئيسى لنتائج نظرية التطور على الأجناس البشرية وهى العنصرية التى تجعل الإنسان الأبيض أكثر رقياً من الزنجى، وتجعل الزنجى وسطاً بين الإنسان والحيوان.

وبالإضافة إلى كثرة التقسيمات والتعريفات للفرق التى تقول بنظرية التطور على طريقة الفرق الكلامية القديمة فإن الأفغانى يفرق بين رأى المتقدمين والمتأخرين من أنصار نظرية التطور. إذ رفض المتأخرون رأى المتقدمين نظراً لاستحالة خلو المادة من الشعور لتفسير هذا النظام المتقن والهيئات البديعة. وجعلوا للكون العلوى والسفلى علة مركبة من ثلاثة أشياء : المادة (ماتيير) والقوة (فورس) والعقل (انتليجانس) أو الإدراك بترجمة الأفغانى الحرة أو المعربة. وباجتماع هذه القوى الثلاث تتجلى الأشكال والهيئات الحية النباتية والحيوانية نظراً لما يلابسها من شعور يؤدى إلى البقاء الشخصى وحفظ النوع. ثم تظهر الأعضاء والآلات لأداء الوظائف الشخصية والنوعية بالتعامل مع الأزمنة والأمكنة وفصول السنة. ويرى الأفغانى أن هذا هو أفضل ما هو موجود فى المذهب المادى، الجمع بين المادة والشعور. وهو أيضاً أبعد عن العقل والمنطق وأقرب إلى الوهم. فإذا كانت المادة

---

[١] المصدر السابق ص ١٣٤-١٣٦.

مكونة من أجسام أو ذرات على رأى ديموقريطس فإن هـذا الـرأى الجديـد ، الجمـع بين المادة والشعور، لا ينطبق على علة تركيب الأجسام فى النظام الكونـى إذ يـلزم عن هذا الرأى، شعور المادة، أن يكون لكل جزء شعور أو قوة يتمايز به عن سـائر الأجسام إذ لا يمكن قيام العرض الواحد بمحلين كما يقول قدماء المتكلمين. فلا يقـوم علم واحد بجزأين أو أجزاء. وكيف يطلع كل جزء على مقاصد الأجـزاء الأخـرى؟ كيف يفهمها؟ وأى جماعة : جماعـة، برلمـان، مجلس شـورى أو سنات (مجلـس شيوخ) تشاور لابداع هذه المكونات المركبة على غاية الإبداع؟ وكيف تعلم الأجزاء ضرورة تكونها فى هيئة طير يأكل الحبـوب أو اللحـوم ؟ وكيـف تعلـم أنهـا سـتكون ذكراً أم أنثى، بحلمة واحدة أو بحلمات؟ وكيف تدرك حاجاتها إلى الأجزاء الأخرى؟ ولا سبيل إلـى الاجابـة علـى هـذه التسـاؤلات إلا بـاعلان العجـز والحيرة والـتردد والجهل. لزم إذن علم كل جزء بباقى الأجزاء العلوية والسلفية مراعاة لنظام الكـون حتى لا يقع الخلل فيه نظراً لقيام العالم على ناموس واحد. وكيف يكـون لكـل جـزء أبعاد غير متناهية ولا يدرك ولا بالمجهر؟ وإذا كـان العلـم مجـرد ارتسـام الصـورة المعلومة فى ذات العالم المادى، وهى صورة غير متناهية مـع أن الأجسام متناهيـة فإن ذلك يناقض العقل. وإذا كانت الأجزاء على درجة من العلم والقـوة فلـم تصـاب الكائنات بالآلام والعناء للتخلص منها؟ لمـاذا عجـز الإنسـان والحيـوان عـن الحفـاظ على حياتهما؟ ولا يجيب الأفغـانى علـى هـذه التساؤلات ولكنـه ينتهـى إلـى أن هـذا المذهب خرافة وأملته الحـيرة. ولايفسـر مبدآه، الطبـع والشـعور، أى شـىء. وهمـا مبـدآن متناقضـان. إذ كيـف يكـون شـيئان مختلفيـن فـى الخـواص ومتمـاثلين فىالعنـاصر؟ افتراض الأجـزاء إذن رجـم بـالغيب، ولا سـبيل إلا أن تكـون مختلفـة لتفسير اختلاف الخواص. وتؤدى هذه المذاهب كلها إلى إنكـار الألوهيـة. أنصارهـا كالخلابيص، يقومون بحركات لإضحاك الناظرين، ويقدمـون شـيئاً لانظـام لـه. فهـم لاعلـم ولا إنسـانية لهـم، بعيدون عـن مواقـع الخطـاب، سـاقطون عـن منزلـة اللـوم والاعتراض. ليس المقصود التشنيع عليهم بل إظهار الحق وكشف الواقع[1].

---

[1] المصدر السابق ص ١٣٦-١٣٩.

ونظرية التطور ليست جديدة. قال بها العرب، شعراء وفلاسفة وعلماء، قبل الأوروبيين مثل قول المعرى.

والذى حارت البرية فيه ∴ حيوان مستحدث من جماد

لم يأت دارون بجديد، وربما لايوجد جديد على سطح الأرض من حيث الجوهر والأصول. المهم أن يعترف الخلق بفضل السلف وأن يقوموا بإخراج النظرية وغيرها من بطون الكتب. الخلاف في طريق الوصول إليها. ما وصل إليه القدماء بالعقل وصل إليه الأوروبيون بالتجربة، وما وصل إليه القدماء للمعرفة وصل إليه المحدثون للكشف والاختراع. وهو أيضاً ما قاله أبو بكر بن بشرون في رسالته لأبى السمح في بحث الكيمياء، استحالة التراب إلى نبات ثم إلى حيوان. وأرفع المواليد الإنسان. فالنبات أرفع درجات التراب، والحيوان أرفع درجات النبات، والإنسان أرفع درجات الحيوان، في سلسلة متصلة لا تنتهى. قال بذلك القدماء قبل دارون مع الاعتراف بفضله وثباته وصبره وخدمته للتاريخ الطبيعى بالرغم من مخالفة الأفغانى له في نسمة الحياة التى أوجدهاالله لاعلى سبيل الارتقاء من القرد إلى الإنسان أو أن يصبح البرغوث فيلاً لأن فيه ما يشبه الخرطوم. بل إن الأفغانى ينبه على عدم الاغراق في نسبة النشوء والارتقاء له لأنه يلتقى مع دارون في رصد الظاهرة ويختلف في تفسيرها. فالتطور عند دارون متصل الحلقات وعند الأفغانى منفصل الحلقات. وهو نفس الخلاف بين دارون وسبنسر ولامارك ودوركايم من ناحية وبين برجسون من ناحية أخرى.

وما يعيبه الأفغانى على الدكتور شميل ليس قوله بالتطور الذى قال به القدماء ولكن سيره على أثر دارون مثل بشنر وهكسلى وسبنسر، وتحمل اعباء التكفير من غير علم دقيق. وبالرغم من جرأته الأدبية ورسوخه في الفلسفة وعدم خوفه من سخط المجموع وتسميته الحكيم أو حكيم الشرق إلا أنه وقع في التقليد الأعمى للغرب، وانتصر لدارون ونشر مذهبه رغم معارضة الدين، أى أن الأفغانى يعيب عليه تغريبه أى تقليده للغرب بالرغم مما قد يعاب عل الأفغانى من سلفيته أى تقليده للقدماء. بل إن شميل ينكر الخلق وهوما مازال مطروحاً عند دارون. فبالرغم

من أن مجمـوع التطوريين ينكـرون الخلـق بنـاء علـى التدرج فـى الأحيـاء إلا أن دارون نفسه وصل إلى النقطة الجوهرية، وهى موجد نسمة الحياة، وقال "**إنـى أرى الأحياء التى عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة اولية نفخ الخـالق فيها نسمة الحياة . فمـا ينبغـى ظهـور الحيـاة علـى نحـو طبيعـى**". ولكـن المـاديين انكروا على دارون ذلـك وجعلـوا مذهبـه ناقصـاً لأن غـايتهم انكـار الخلـق، وشـميل يوافـق دارون إذا انكـر الخلـق ويختلـف معـه إذا اثبتـه. فالأفغـانى "يؤسـلم" دارون ويجعله يقول بالتطور والخلـق فـي آن واحـد. ويعيب علـى شـميل قراءتـه الغريبـة لدارون وبالتالى تغريبه وعدم رؤيته للآخر من منظور الأنا. وينتهـى الأفغـانى مـن هذا العرض النقدى لنظرية التطور إلى أن حصر الحياة كما هو الحال فـي المذهـب الطبيعى في أنواع قليلة لا ضرر منه، والانتخاب الطبيعى أمر معروف في انتخـاب النساء والأزواج. وقد حـرص العـرب عليـه لتحسـين نسـل الحيـوان. فكـان العربـى يطوف البيد كى يبحث لفرسه عن زوج حرصاً على الانساب المختارة [1].

تمثل رسالة "**الرد على الدهريين**" النقاش الدائر في الغرب في القـرن التاسـع عشر أثر نظرية دارون وترويج أحمد خان لها في الهند كجـزء مـن التغريـب العـام للتخفيف من حدة التقابل بين الشرق والغرب في عصر مواجهة الاسـتعمار. ويـردد الأفغانى نفس الحجج التى رددتها الدوائر الدينية الكاثوليكية خاصة في الغـرب ضـد نظرية التطور. فهى تعتبر إحدى بدايات علم الكـلام الجديد أو الفلسـفة الجديـدة فـي التعـامل مـع الثقافـات الوافـدة مـن الغـرب الحديـث كمـا تعـامل القدمـاء، متكلميـن وفلاسفة، مع الثقافات الوافدة من اليونان غرباً وفارس والهند شرقاً. كما تعبر عـن الحالة الثقافيـة الراهنـة والأفكـار الشـائعة عـن الماديـة والالحـاد والمذهـب الطبيعـى والنقد الشائع لها في أذهان الناس الذى تقوم به الدوائر الدينية المحافظـة مـن خـلال سطوة أجهزة الإعلام وتأثيرها. يعتمد الأفغانى على البحث التاريخي والدليل العقلـى أى على الرواية والدراية، النقل والعقل. يجعل العقل الغريزى أى الطبيعـى العلمـى الصافى رافضاً لها مع أنه قد يكـون قـابلاً لهـا. فـالعقل الدينـى يقـوم علـى افـتراض

---

(1) خاطرت ص ١١ ص ١٧١ -١٧٦ الرد، الأعمال ص ١٣١.

الانفصال بين العلة والمعلول. والعقل العلمى يقوم على افتراض الاتصال. يعبر نقد الأفغانى عن اختياره المسبق. لذلك يستبدل بلفظ البقاء الفناء. فيقول الصراع من أجل الفناء وليس من أجل البقاء. ويتصور العالم على نمط الألفة وليس على نمط الصراع. ويعتبر الألفة نظاماً الهياً والصراع نظاماً شيطانياً مع أن النظامين مشاران إليهما في القرآن الكريم. ولكن الذى ساد في الثقافة الشعبية هو نظام الألفة دفاعاً عن الوضع القائم ودرءاً لحركات التغير الاجتماعى ولمخاطر الثورة. لذلك ألصق نظام الصراع بالماركسية، وجعلوه دموياً عنيفاً كما هى الصورة الشائعة للصراع الطبقى الذى تروج له الدوائر الدينية الرجعية المحافظة .

٢ ـ النقد العملى

لا يكتفى الأفغانى بنقد الدهريين نقداً نظرياً مبيناً تهافت نظرية التطور ولكنه ينتقل إلى بيان مضارها من الناحية العملية وآثارها السيئة على أخلاق الأفراد وحياة الأمم ومسارها في التاريخ. وهى المطالب الأربعة عشر التى تمثل ثلاثة أرباع الرسالة. فالنقد العملى أهم من النقد النظرى. النقد العملى يقين، والنقد النظرى قد يكون ظناً.

يدعى الماديون أنهم الحكماء بصرف النظر عن اختلاف اسمائهم بين الدهريين والماديين والطبيعيين والاشتراكيين والشيوعيين والعدميين. ويدعون أنهم المدافعون عن الظلم ورافعو الجور، وأنهم العارفون بالاسرار وكاشفو الحقائق والرموز، والواصلون إلى بواطن الأمور، والمطهرون الأذهان من الخرافات من أجل تنوير العقول، وأنهم محبو الفقراء وحماة الضعفاء وطلاب الخير للمساكين. وهم فى الحقيقة مدعو النبوة لترويج مذاهبهم أى أنهم متنبئون. هم صدمة على القوم، وصاعقة عليهم. يميتون القلوب الحية، ويقومون بنفث السم فى الارواح، وزعزعة راسخ النظام. هم سبب انهيار الأمم وسقوط العروش، وإفساد الأصول واقتلاعها[١].

---

[١] الرد، الأعمال ص ١٤٠-١٤١.

ويفصل الأفغانى غايات النيتشريين الحقيقية بعد ادعاءاتهم السابقة وهى :

١- جحد الألوهية وإنكار البنيان المسدس، نسق الأفغانى الأخلاقى، العقائد الثلاث: الإنسان أشرف المخلوقات، والأمة أشرف الأمم، والحياة الدنيا للمعاد، والخصال الثلاثة : الحياء والأمانة والصدق، والنزول من علياء الإنسانية إلى حضيض الوحشية الحيوانية.

٢- بطلان الأديان كافة لأنها أوهام باطلة ومواضعات. ولايحق لملة ادعاء أفضليتها على سائر الملل مما يؤدى إلى الركود مع أن الدعوة إلى أشرف الملل وخير أمة قد يؤدى إلى العنصرية والحروب بين الأديان والأوطان أو إلى الإرتكان للعقيدة دون العمل بها وتحقيق شرطها مثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شرط أفضلية الأمة الإسلامية.

٣- اعتبار الإنسان مثل سائر الحيوانات وعدم الارتفاع على مستوى البهائم بل الانخفاض إلى ما هو أخس منها. وقد يؤدى ذلك إلى الاتيان بالقبائح واقتراف المنكرات وممارسة العدوان.

٤- إنكار الحياة بعد الموت، واعتبار مقصد الحياة الدنيا الشهوة البهيمية. فتتحرر النفوس من الأخلاق، وتمارس العدوان والقتل والسلب وهتك الأعراض والغدر والخيانة، وارتكاب كل خبيث والوقوع في كل رذيلة، والإعراض بالعقل عن كسب الكمال البشرى ومعرفة الحقائق وأسرار الطبيعة.

٥- الاشتراك فى الأموال والإبضاع وإباحة تناول ما للغير نظراً لأن المذهب الطبيعى يؤدى إلى المادية والاشتراكية والنزعة الإنسانية بالرغم من وجود نزعات اشتراكية إنسانية أخلاقية وروحية ومثالية.

٦- إزالة صفة الحياة للفوز بالقوة فيصبح الإنسان كالانعام يعيش وفقاً لقانون الغاب ولا يعرف له قانون إلا القوة والغلبة.

٧- إزالة صفتى الأمانة والصدق، وهما صفتان تقومان على الإيمان بيوم الجزاء وإزالة ملكة الحياء حتى شاعت الخيانة وراج الكذب، وهذا الثالوت الأفغانى الأمانة والصدق والحياء يمثل قواعد الأخلاق وقوانين التاريخ.

٨- الإباحة والاشتراك، وشيوع المشتهيات ولواغتصابا وخيانة وكذباً، وارتكاب الشرور والرذائل، وإتيان الدنايا والخبائث مما يؤدى إلى فناء الأمم، وتساوى الجميع فى الحظوظ فتدفع النفوس إلى الأخذ بالأسهل والابتعاد عن شاق الأعمال. ومن المبادىء الإنسانية حب الاختصاص والرغبة فى الامتياز. ومن ثم تؤدى المادية إلى الركود وعدم التحرك إلى معالى الأمور.

٩- العداوة للنوع الإنسانى، وسيادة الماليخوليا على أنصاره، يتخيلون الإصلاح والنجاح وهم مفسدون فى الأرض باثون بذور الشقاق بين البشر[١].

وواضح من هذا الوصف لغايات المذهب الطبيعى بعض التسطيح، وفهم على مستوى العقائد الشائعة والثقافة الشعبية والوعاظ وخطباء المساجد، واللجوء إلى الأساليب الخطابية والحجج الاحراجية والنقد الأخلاقى نظراً لأثر النظر على العمل وتكرار النقد الأخلاقى العام، مرة إثبات الخصال الثلاث والعقائد الثلاث للمؤلهين ومرة نفيهما عن الطبائعيين، وبيان مزايا الفريق الأول وعيوب الفريق الثانى، وتحويل الأفكار إلى أمراض نفسية كما يفعل وليم جميس بل برجسون وكل الوضعيين، والدفاع عن الرأسمالية والتمايز والاختصاص ضد المساواة، والدفاع عن المنافسة والربح ضد تكافؤ الغرض، وهى سمة الفكر الدينى التقليدى[٢]

ويتبع النيتشريون فى تحقيق غاياتهم عدة مسالك وطرق أهمها :

١- الجهر بالمقاصد صراحة فى حالة الاطمئنان، واستعمال الرمز والإشارة والكنية والتلويح والتدليس فى حالة السطوة وكأنهم فرقة باطنية شيعية صوفية.

٢- العمل على هدم النسق الأخلاقى المسدس عند الأفغانى، كله أوبعضه، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أو إبطال لوازمه وكأن الغاية من المذهب إبطال الأخلاق.

---

[١] المصدر السابق ص ١٤٩-١٥١.

[٢] انظر دراسات : الدين والرأسمالية، قضايا معاصرة جـ١ فى الفكر الغربى المعاصر، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٧٣-٢٩٤ وأيضاً : الدين والرأسمالية فى الدين والثورة فى مصر جـ٧ اليمين واليسار فى الفكر الدينى، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩ ص ٤٥-٦٨.

٣- الاكتفاء بأفكار الصانع، وجحد الثواب والعقاب لافساد باقى العقائد مع أن العقائد الثلاث عند الأفغانى، الإنسان أشرف المخلوقات، الأمة أشرف الأمم، كمال الإنسان نحو المعاد ليس من بينها إثبات وجود الله وإن كان متضمناً فى المعاد.

٤- تزيين الإباحة والاشتراك وتحسينهما وتزيينهما لاستمالة النفوس وهو تكرار للقصد بحيث لايبدو الفرق واضحاً بين الغاية والوسيلة، كما أنه تصور شعبى للاشتراكية وتشويه لها من خلال الإعلام الغربى ونظم الحكم التسلطية الرجعية.

٥- القيام بأعمال جاهلية تأنف منها الطباع وتأباها الشرائع الإنسانية مثل اغتيال معارضيهم والغدر بهم والفتك بآلاف الأرواح البريئة واراقة الدماء الشريفة بالحيلة والمكر. وهى أساليب لاترتبط بالطبائعيين بالضرورة، تستغلها كل القوى السياسية التسلطية للتخلص من الخصوم رأسمالية أو اشتراكية. وممارسة العنف ظاهرة اجتماعية لها أسبابها فى بنية المجتمع، العنف القاهر الذى يولد العنف المحرر [1].

وواضح من هذا الوصف السلبى للوسائل التى يتبعها النيتشريون لتحقيق مقاصدهم التصورات الشائعة فى الثقافة الشعبية تحت أثر أجهزة الإعلام الغربية الرأسمالية أو العربية الإسلامية الخاضعة للنظم التسلطية الرجعية. مع أن أصحاب الطبائع أيضاً لديهم القدرة على كشف الزيف والنفاق والخديعة بالدين وبالمثالية. يتسمون بالصدق والإخلاص للمبادىء. ويستشهدون فى سبيل الحرية والعدالة والمساواة بين البشر. وارتبطوا بالنزعة الإنسانية والأممية وتوحيد القوى الثورية ضد الاستعمار العالمى، وهو أيضاً ما كان يعمل له الأفغانى بوحدة قوى الشرق التحررية فى مواجهة قوى الاستعمار الغربية[2]. وأخيراً، يستقرىء الأفغانى التاريخ ويبين كيف انهارت الأمم التى تبنت المذهب الطبيعى، أمة وراء أمة وكأن

---

[1] الرد، الأعمال ص ١٥١، ١٥٢.

[2] المصدر السابق ص ١٥٣.

المذهب الطبيعى لم يقدم أى شيء إيجابى مثل تقدم العلم، وكأنه لم يكن رد فعل على التصور الخرافى الوهمى للطبيعة فيتحدث طويلاً عن "**مطلب فى بيان الأمم التى خضعت للذل، وضرعت للضيم بعد العزة والشرف**". ويعدد ست أمم هى:

١- الأمة اليونانية (الكريك) : كانوا قليل العدد، وورثوا العقائد الثلاث خصوصا الحياء أى الأنفة والكبرياء. واستطاعوا مقاومة الفرس. ووصلوا إلى درجة عالية من العلوم. وثبتوا ثبات الأبطال. وامتد سلطانهم إلى الهند بصفة الأمانة. فكانوا يرجحون الموت على الخيانة كما هو الحال فى قصة تيمستوكليس القائد اليونانى الذى نبذه الناس وطردوه ففر ولجأ إلى ارتكزيس ملك فارس فأمره بمحاربة اليونان فأبى وانتحر بالسم. ثم ظهر ابيقور واتبعه الدهريون، وانكروا الألوهية، وجعلوا الإنسان معجباً بنفسه مغروراً يظن أن الكون العظيم خلق لخدمة وجوده الناقص وهو أشرف المخلوقات والعلة الغائية لجميع المظاهر الكونية. قاده الحرص والجنون والخرق إلى الاعتقاد أن له عوالم نورانية وحياة أبدية بعد هذا العالم، فيها سعادة دائمة وليس فيها شقاء. فقيد نفسه بالسلاسل والتكاليف مخالفاً نظام الطبيعة العادل، ووقف فى وجه رغباته وحرم نفسه من الحظوظ الفطرية وهو لايختلف عن الحيوانات. ومايفتخر به من الصنائع أخذه تقليداً للحيوانات. فالنسيج من العنكبوت، والبناء من النحل، وانشاء القصور والصوامع وادخار الأقوات من النمل، والموسيقى من البلبل. فإذا كان هذا حاله من النقص فلا يزيد متاعبه والاغترار بأنه يزيد على الحيوانات والنبات والاعتراف بوجود حياة أخرى. بل عليه ترك التكاليف والتمتع بالبدن والأخذ باللذة وعدم ترك أى فرصة، ولا ينقاد إلى أوهام الحلال والحرام واللائق وغير اللائق. فهذه أمور وضعية تقيد بها الناس جهلاً. فالإنسان ابن الطبيعة. ترك الناس الحياء واعتبروه ضعفا للنفس، وارتكاب كل قبيح دون انفعال أو خجل فى المجاهرة. هتك الأبيقوريون ستار الحياء، وأراقوا ماء الوجه، واستحلوا أمـ الناس حتى سموا بالكلاب دون رادع أو زاجر، تنبح فى الاسواق. وكانت النـ أ[illegible] اليونان ا[illegible] حضيض البلاد، وكسد سوق العلم والحكمة، وانتهوا إ

الذل واللؤم، وتحولت الأمانة إلى خيانة، والحيـاء إلـى قحـة، والوقـار إلـى سفل، والشجاعة إلى جبن، ومحبة الوطن إلى أنانية. وتهدمت الأركـان الستة، ووقعوا فى أيدى الرومان عبيداً بعد أن كانوا أسياداً[1].

بهذا العرض الخطابى الإنشائى يحمل الأفغانى تبعة انهيار الحضارة اليونانية إلى عامل وحيد، ومذهب أوحد هو المذهب الطبيعى. والتاريخ لا يتحرك بعامل واحد بل بمجموعة من العوامل الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. كما أن ما يعرضه الأفغانى ليس كله شراً مثل أن الإنسان سيد المخلوقات، خلق الكون لتسخيره له، وأن هناك حياة بعد الموت كلها سعادة دون شقاء،وأن الإنسان مكلف على الأرض، وأن نظام الطبيعة عادل، وأن الإنسان قادر على السيطرة على رغباته وانفعالاته، وأنه لا يجوز تحريم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق. وهل من مظاهر السيادة استيلاء اليونان على فارس والهند والروم ومصر؟

٢- الأمة الفارسية : كانت للأصول الستة فيها، نسق الأفغانى الدينى الأخلاقى، أعلى مكانة أحقابا طويلة حتى وصلوا إلى درجة عالية من الشرف. تمثلوا الصدق والأمانة فكان أول تعليم دينى عندهم دون كذب وكما عرضت لذلك الشهنامة. وامتداد الملك حتى ظهر مزدك الفيلسوف الدهرى، وادعى أنه أتى لرفع الجور والظلم. فنزع منهم الخصال، وادعى أن كل القوانين الموضوعة تؤدى إلى الظلم، وقائمة على الباطل، وأن الشريعة الدهرية هى الباقية لاتنسخ، وموجودة عند الحيوانات. فقد جعلت الطبيعة حق الطعام والشراب والبضاع مشاعا بين الناس دون تخصيص. فلماذا يحرم الإنسان نفسه ما أحلت الطبيعة باسم الشريعة والأدب؟ وبأى حق تكون الملكية خاصة وهى مشاع بين الناس؟ ولماذا حظر النساء والميل لواحدة دون الأخرى، والأنثى للذكر والذكر للأنثى؟ البيع والشراء اغتصاب وظلم، وتطبيق حد السرقة على الفقير المحروم. القوانين جائرة تمنع كل شىء، والطبيعة محررة تبيح كل شىء. شاعت هذه التعاليم فعم

(١) المصدر السابق ص ١٥٣-١٥٦.

الغدر والخيانـة، وانتهـى الحيـاء، وغلبت الدنــاءة والسـفالة، وسـادت الصفـات البهيمية. فقتل أنو شروان مزدك وشيعته. ولكنـه لـم يقض علـى أفكـارهم التـى علقت بالعقول حتى هـاجمهم العـرب وانهزمـوا مـع الـروم[1]. وواضـح مـن هـذا العرض المبسط تفسير الحركات الاجتماعية والسياسية الفكرية بعـامل واحـد هـو العامل الأخلاقى، وأن الحياة قبل المذهب الطبيعى كانت جنة وانقلبت بعد ظهوره إلى نار فى ثنائية تطهرية بين الحق والباطل، الخـير والشـر، الصـواب والخطـأ، العلم والجهل. كما أنه ينكر أى ثورة تقوم على الظلم والجور، تلك الثورة التى لم تقم فى عهد البراءة الأولى قبل الدنس والخطيئة فى المذهب الطبيعى. كما أن نقد تطبيق حد السرقة علـى الضعيف وتـرك الشـريف حديـث عـن الرسـول. ولمـاذا الدفاع عن الملكية الخاصة والاسلام أقرب إلى الملكية العامة لما تعم بـه البلـوى كالماء والكلأ والنار! وما العيب فى نقـد التجـارة وأخـلاق التجـار كمـا فعـل ابـن خلدون؟ وهل القتل وسيلة التعامل مع المفكرين؟

٣- الأمة الإسلامية : جاءتها الشريعة، وعلمتهـا هـذه العقـائد والخصـال، فبسـطوا سلطانهم على الأمم في الشرق والغرب، كسرى وقيصر. والبـاقى دفـع الجزيـة. ثم ظهر الطبيعيون فى القرن الرابع بمصر تحت اسم الباطنية وخزانـة الأسـرار الإلهية، وانبثوا فى كـل أرجـاء العـالم الإسـلام خاصـة فـى إيـران.ودلسـوا علـى المسلمين عن طريق إثارة الشك فى القلوب حتى يضعف الإيمان، والاقبال علـى الشاك فى حيرته ليمنوه بالنجاة وهدايته، وخداعه بدعاتهم للتشكيك فـى الشـريعة بأن لهـا ظـاهراً وباطنـاً، الظـاهر للمحجوبيـن والبـاطن للمسـتتيرين، ثـم اسـقاط التكـاليف عـن المسـتنيرين والوقـوع فـى الإباحيـة والشـك فـى الحـلال والحـرام، والصـدق والكـذب، والأمانـة والخيانـة، والفضـائل والرذائـل. هـى مجـرد ألفـاظ لمعـانى مخيلـة وليـس لهـا حقيقـة واقعيـة. وأفكـار الألوهيـة والأقـرار بـالمذهب الطبيعى عن طريق التنزيه، فاللـه منزه عـن المخلوقـات، لاموجـود ولامعـدوم.

[1] المصدر السابق ص١٥٦-١٥٧.

وإثبات الاسم وإنكار المسمى سفسطة، بالاضافة إلى قتل معارضيهم الذين يكشفون أمرهم، والجهر بالآراء بعد التمكن من السلطة، وإبطال التكاليف، ورفع الأحكام الظاهرة والباطنة. فالقيامة من القائم بالحق، فقاموا بالتأويل. أصبح الكمال نقصا والنقص كمالا. أنحل الإيمان، وانتهت السعادة، وفسدت الأخلاق، وعم الجبن والخور والخوف والكذب والمنافع الشخصية والخيانة والشهوات البهيمية حتى أتى الاستعمار الفرنسي علي سوريا. فلم يستطع الناس المقاومة. فقتل الأبرياء، حوالى مائتى عام أثناء الحروب الصليبية، مع أن الأفرنج كانوا خائفين من المسلمين قبل أن تفسد عقائدهم. ثم قام أوباش التتر والمغول مع جنكيزخان، واخترقوا بلاد المسلمين، وهدموا المدن. كل ذلك بسبب تفشى تعاليم الدهريين والقضاء على الأخلاق الإسلامية الراسخة فى القلوب. فكانت أسباب السطوة الغربية على البلاد. ثم عادت الأخلاق الإسلامية، وطردت الأمم الأفرنجية من سوريا، وصدوا هجمات جنكيزخان ولكن دون العودة إلى مكانتهم الأولى. وكان ذلك بداية الانحطاط منذ الحروب الصليبية أى منذ تفشى الآراء الباطنية الدهرية كسم قاتل(١). واضح من هذا العرض أيضاً أن الدهرية هى الشماعة الوحيدة التى تُعلق عليها أخطاء البشر، والعامل الأوحد فى إنهيار الأمم. ويعتبر الأفغانى الباطنية من الدهرية مع أنهم من غلاة الروحانين، فالمادة لديهم روح، وأقرب إلى النزعات الصوفية الاشراقية. كما يرى أن التنزيه طريق لأنكار الألوهية مع أنه إثبات لها دو تجسيم أو تشبيه. كما يتبنى تصوراً آلياً لحركة التاريخ، وكأن العودة إلى الأخلاق مفتاح سحرى يقلب الهزيمة نصراً، والسقوط نهضة، ويصحح ما فعلته الدهرية، الشر الكامن فى كل عصر.

٤- الأمم الشرقية : ويعنى الأفغانى بالأمم الشرقية شمال العراق، منطقة كركوك. فقد أنكر الدهريون هناك الألوهية. وظهروا فى لباس المهذبين. ولونوا الظواهر بألوان المحبة. وادعوا طلب الخير للأمة وهم حملة العلم والمعرفة بما حفظوا

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٧-١٦١.

من كلمات ناقصة. ولقبوا أنفسهم بالهادين وهم أهل غباوة ورذيلة. يستعملون العقل والمعرفة في تبين وجوه الغدر والاختلاس. تسودهم الشهوة وحب الدنيا[1]. ولا يعطي الأفغاني جديداً في هذا الوصف، ولا يبين كيف قامت الدولة بالإيمان وانهارت بالدهرية. هم أقرب إلى الشيعة الباطنية بهذا الوصف ولا يمثلون أمة جديدة يضرب بها المثل.

٥- الأمة العثمانية: ويفرد الأفغاني نموذجاً من الأمة العثمانية وكأنها ليست جزءاً من الأمة الإسلامية. ويعتبر الدهريين سبب خيانة العثمانيين لصالح الروس. يعدون أنفسهم أبناء العصر الجديد. فالإنسان حيوان، والأخلاق ضد الطبيعة، وضعها تحكم العقل وتطرف الفكر. أنكروا الشرف والحياء والأمانة والصدق والعفة والاستقامة. فجلبوا المذلة على الأمة[2] . وهذا أقرب إلى الهجاء منه إلى النقد، والدعاية المضادة منه إلى التحليل العلمي الرصين.

٦- الشعب الفرنسي : له النصيب الأوفر من الأصول الستة. فرفع منار العلم والصناعة بعد الرومان حتى ظهر فولتير وروسو يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم، وإنارة الأفكار، وهداية العقول. فنبشا قبر أبيقور الكلبي، وأحيوا الدهريين الذين نبذوا كل تكليف ديني، وغرسوا الإباحة والاشتراك، وجعلوا الآداب خرافية، والأديان مخترعة بسبب نقض العقل الإنساني، وإنكار الألوهية، والتشنيع على الأنبياء. خطأهم فولتير، وسخرمنهم، وقدح في أنسابهم ، وعاب رسالتهم ومع ذلك دخلت الأباطيل نفوس الفرنسيين، ونالت من عقولهم . فنبذوا المسيحية، وتحولوا إلى شريعة الطبيعة، والهوا جمال النساء في محراب الكنيسة. وكل ما في الطبيعة من آثارها وليس من الله. وكانت تعاليم الدهريين سبب اندلاع الثورة الفرنسية التي فرقت أهواء الأمة وأفسدت أخلاق الناس. فاختلفوا وانقسموا. وانغمس كل فريق في شهوته، وأعرض الجميع عن المنافع

---

[1] المصدر السابق ص ١٦١.

[2] المصدر السابق ص ١٦٣.

العامة. واختلت سيادتهم الخارجية. وحاول نابليون الأول إعادة المسيحية ولكنه لم يستطع محو الأضاليل، فظنوا مختلفين إلى الآن. قالوا بالاشتراكية ومذهب الكمون، نسفوا كل عمران على ارض فرنسا[١] . وواضح أن الأفغانى هنا أيضاً يضع فولتير وروسومع الدهريين وهما من أنصار التأليه الطبيعى Deism. كما يعارض فلسفة التنوير ويرفض الثورة الفرنسية، ويضع نفسه مع المشايخ المعممين مما يجعل موقفه النظرى أقل جرأة ونقداً من مواقفه العلمية، ويمثل خلفا بين النظر التقليدى والعمل الثورى.

ويخصص الأفغانى جزءاً خاصا لدحض مطلب السوسيالست (الاجتماعيون) والنهيلست(العدميون) والكومونيست (الاشتراكيون) مستعملاً اللفظ المعرب كأساس واللفظ المترجم كفرع. وهم صنوف من الدهرية فى الأمة الفرنسية. تزين الظاهر وتدعى الدفاع عن الضعفاء والمطالبة بحقوق المساكين والفقراء. وكل طائفة لها غاية مخالفة. ولكنها تشترك جميعاً فى رفع الامتيازات الإنسانية، وإباحة الكل، واشتراك الكل فى الكل، وسفك الدماء، وتخريب العمران، وإثارة الفتن. المشتهيات فى الأرض منحة من الطبيعة ومن فيضها للتمتع بها دون اختصاص واحد بها دون الآخر. الدين والملك عقبتان عظيمتان ضد الطبيعة أى الإباحة والاشتراك. والحل هو القضاء على السلطتين الدينية والسياسية، قتل الأغنياء، وإنشاء المدارس تحت ستار المعارف والبداية بالتربية، إشارة إلى روسو. وهى فى النهاية طوائف تؤدى إلى انقراض المجتمع البشرى. وواضح أن الأفغانى قد وقع ضحية التفسير الرأسمالى للدين، وينقد الاشتراكية والاجتماعية، ويخلط بينهما وبين الشيوعية والعدمية. يرى العيب فى نقد الامتيازات والقضاء على الاقطاع وملاك الأراضى، ونقد السلطتين الدينية والسياسية! [٢] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) الرد، الأعمال ص ١٥١، ١٥٢.

ويخصص الأفغانى فقرة خاصة لمورمـون. وهـو أيضـاً مـن دعـاة الطبيعـة. ظهر فى إنجلترا وأمريكا. وادعى أنه ملهم من الطبيعة. يقـول بالإباحـة والاشـتراك للمؤمنين بالطبيعـة دون غيرهم. ودعـا كـل مؤمـن إلـى الاجتمـاع مـع كـل مؤمنـة. فالزواج شركة، والنبوة اشتراك. وهى الدعـوة المنتشـرة الآن فـى أمريكـا فـى يوتـا والتى تسمى الطائفة باسمه[1].

وينهى الأفغانى هذا النقد النظرى العملى بـالاعلان عـن أسـاس النقـد "**مطلب فى مضار إنكار الألوهية**"[2]. فالدهرية تنكر الألوهية والمعاد مما يـؤدى إلـى إنكـار الأخلاق فتنهار الأمم. كلمـا انتشـر المذهـب فسـدت أخـلاق الأمـة. اختلـت العقـول، وتملكـت الحيـل مـن القلـوب وألـوان التلبيـس حتـى تعـم الرذائـل وعبـادة الشـهوات وارتكاب الخيانات حتى تنقرض الأمة أو تستعمر وتسـتعبد. أخفـى البعـض المقصـد الأصلى وهو الإباحة والاشتراك، واكتفى بإنكار الألوهية وجحد المعاد تحـت شـعار حرية الفكر وهو ما يؤدى إلـى فسـاد الحيـاة الاجتماعيـة وزعزعـة أركـان المدنيـة. ولايمكن الجمع بين الدهرى والأمانة والصدق وشرف الهمة وكمال الرجولة. وكثير من خاطرات جمال الدين تعبر عن هذا النقد الدينى للدهرية مثـل : "**كيـف لا يفضـل أضعف حيوان ناهق يذكر الله إنسـاناً ناطقـاً ينكـر وجـود اللـه؟**" فـإذا مـا تـم إنكـار الألوهية فإن الإنسان يعبد هواه "**يكفـر الإنسـان فـى كـل شـىء لايرضـاه ويعبـد كـل شىء يهواه**". والاعتقاد بالألوهية هو الذى يؤدى إلى الاعتقاد بالمعاد وبالتـالى نيـل السعادة الأبدية "**من اعتقد أن لا حياة إلا هذه الفانية فقـد خسـر الأولـى والثانيـة** ". فالسعادة لا توجد فى هذه الحياة الدنيـا بـالرغم مـن أنهـا ضالـة البشـر "**السـعادة فـى الدنيا ضالة البشر. وإذا وجدها أحـد قلــما يدلّ عليهـا. ولا أظنهـا مـن موجـودات هذا العالم الفانى**"[3].

---

[1] المصدر السابق ص ١٦٤-١٦٥.

[2] المصدر السابق ص ١٦٧-١٧٠.

[3] خاطرات ص ٣٩٠/٣٩٣.

٣- البديل الدينى الأخلاقى

إذا كان الرد على الدهريين ونقد الدهرية نظريا وعلميا يمثل الجانب السلبى فإن البديل الدينى الأخلاقى هو الجانب الإيجابى الذى يقدمه الأفغانى، وهو متضمن أيضا فى الجانب السلبى. إنكار الدين سبب السقوط وإثبات الدين طريق الخلاص. الدين قوام الأمم، وبه خلاصها وسعادتها ومستقبلها فى مقابل النيتشرية وهى "**جرثومة الفساد وأرومة الأداد**" أى مصدر الأمور الفظيعة، وسبب خراب البلاد وهلاك العباد. فالدين والنتيشرية على طرفى نقيض كالحق والباطل، الخير والشر، الصلاح والفساد، الفوز والهلاك. والإنسان ظلوم جهول هلوع جزوع. إذا مسه الشرجزوعا وإذا مسه الخير منوعا. لذلك أتاه الدين لا كماله كى يتمسك بأصوله وتربيته على الخصال المتوارثة حتى تشرق العقول بالمعارف، وتهتدى إلى السعادة، ويقيم البشر المدنية ويحافظون على ثباتهم وبقائهم[1].

لقد أفاد الدين ثلاث عقائد وثلاث خصال. واكسبها عقول البشر. وهى أساس قيام الأمم وعماد بنيتها الاجتماعية، وقوام مدنيتها، وشرط تقدمها ورقيها ونيل سعادتها لابعاد النفوس عن الشر ومفارقتها للأجساد، ويبعدها عما يهدد البقاء ولها آثار جليلة على المجتمع البشرى ومنافع المدنية والروابط بين الأمم وبقاء النوع والمسالمة بين الأفراد ورقى الأمم. وهذه العقائد الثلاث هى :

١- الإنسان ملك أرضى، أشرف المخلوقات، من أجل رفع الإنسان من الخصال البهيمية، وسموه إلى العالم العقلى، وتجاوزه شريعة الغاب. وهو ما يتفق مع القرآن، فى اعتبار الإنسان خليفة الله فى الأرض، أعظم المخلوقات بتحمله الأمانة بعد أن رفضتها السموات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفقن منها. وهذه العقيدة لا تبتعد كثيراً عن مقصد الدهرية باعتبارها الإنسان مركز الكون وآخر درجة فى سلم التطور، وما تزهو به الحضارة الغربية منذ عصورها الحديثة والتحول من التمركز على الله Theocentrism إلى التمركز حول الإنسان Anthropocentrism والتى فيها صدر "**الإعلان العالمى عن**

---

[1] الرد، الأعمال ص ١٣١ / ١٤٠-١٤١.

حقوق الإنسان" وظهرت النزعة الإنسانية Humanism . فلماذا وضع الدين والدهرية على طرفي نقيض والإنسان يجمعها كما جمع الصوفية بين الله والإنسان في الإنسان الكامل؟

٢- يقين كل متدين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فهو على باطل مما يدفع إلى التنافس بين الأمم. ولماذا يغفل الأفغاني أن هذا الاعتقاد قد يؤدى إلى التعصب وحروب الأديان، والعنصرية والصهيونية والحروب والمنازعات؟ ولماذا لا يكون النموذج، المساواة بين الأمم والتفضيل بينها في الخيرات **﴿ولكل وجهة هو موليها،فاستبقوا الخيرات﴾** ، **﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾**؟

٣- الحياة الدنيا ممر للحصول على كمال المعاد في عالم أوسع وأرحب. تدفع إلى التزود بالمعارف بعيداً عن الجهل، والارتقاء في العلم، والتقارب بين الأمم، والترابط بينها بالمحبة والا وقع الإنسان في الكذب والنفاق والحيل والخداع والرشوة والاختلاس، واقتصر على الحس والحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال والقيام بدور الجلاد[1].

وواضح خلو هذه العقائد الثلاث من الإيمان بالله، بل تكتفي بالإيمان بالإنسان والجماعة والمعاد، وأن العقائد ليس لها صدق في ذاتها بل هي وسيلة لتحقيق الخير للفرد والجماعة وتقدم التاريخ. تعبر عن روح اشراقية وثنائية متطهرة، الصعود إلى أعلى في الخلاص والهبوط إلى أسفل في السقوط.

وهناك أيضاً خصال ثلاث تتوارثها الأمم، وتطبع النفوس بطابع الدين، فالأخلاق أساس الدين، والدين يقوم على الأخلاق كما هو الحال في النزعات المثالية. وهذه الخصال، وتعني الفضائل هي :

١- الحياء. وهو انفعال النفس من اتيان ما يجلب اللائمة والتوبيخ. ويلزم عنه شرف النفس. وكل أمة تفقد الغيرة والإباء تحرم من الترقي. وبه تتم روابط

---

(١) المصدر السابق ص ١٤١ - ١٤٤.

الألفة بين آحاد الأمة. وبدونه تقع فى الفحشاء والشهوات البهيمية. وواضح أن هذا التعريف غير جامع مانع، يساوى بين الحياء وشرف النفس والغيرة. ويجعله سبباً للترقى، والتقدم له أسباب عديدة. ويربطه باللائمة والتوبيخ معه أن قد يرتبط برؤية الحسن والجميل.

٢- الأمانة. وهى أساس المعاملات والمعاوضات فى الأعمال. والأمة فى حاجة إلى حكومة جمهورية أو ملكية مشروطة أو مقيدة. والحكومة فى حاجة إلى رجال أمناء يقومون بالأعمال، يجمعون الكلمة، ويمنعون الاعتداء دون استعلاء على أحد. ويعطى الأفغانى هنا معنى اقتصاديا سياسياً للأمانة وليس معنى أخلاقياً نفسياً كما أعطى للحياء. كما أن فكره يقوم على دور. تحتاج الأمانة إلى حكومة وتحتاج الحكومة إلى أمانة.

٣- الصدق. نظراً لان الإنسان كثير الحاجات منح خمسة مشاعر، هى الحواس الخمس، فإنها كلها لا تعمل إلا بالصدق. فالكاذب يرى البعيد قريباً والقريب بعيداً، والنافع ضاراً والضار نافعاً. الصدق إذن شرط عمل الحواس، وأساس مبدأ التحقق. يقوم الصدق عند الأفغانى بدور معرفى، صدق عمل الحواس، وتتأسس عليه الأخلاق. وهو نفس المقياس النفسى الأخلاقى فى تعريف الحياء[1].

ولا يبين الأفغانى إذا كانت هذه الخصال فى بدايتها فطرية أو مكتسبة. ويكتفى بالقول بأنها متوازنة بين الأمم. فهى مكتسبة من حيث التربية دون توضيح عمن اكتسبها الإنسان الأول؟ ولا يبين هل هى خصال فردية أو جماعية؟ هل هى عند كل الأفراد والشعوب أم أن هناك فروقاً فردية فيها؟ ولماذا اختار الأفغانى هذه الخصال الثلاث واستبعد غيرها؟ وما الدليل العقلى والنقلى على اختيارها دون غيرها ؟ كما تبدو أحياناً متداخلة فيما بينها من حيث الوظائف الاجتماعية بل ومتداخلة مع غيرها. ميزتها أنها أحياناً تقوم على تفسير نفسى اجتماعى تاريخى كما يفعل علماء النفس والاجتماع والتاريخ.

---

[1] المصدر السابق ص ١٤٥-١٤٨.

ولما كانت الفضيلة وسطا بين طرفين، وكانت الحكمة المحافظة على الهيئة المتوسطة، والفضائل هيئات متوسطة بين خلتين ناقصتين خصص الأفغانى مطلباً فى الوسائل التى يمكن أن تلزم النفس حدود العدل. فكل فرد فى فطرته شهوات تحيل إلى مشتهيات. والأولى دافع للحصول على الثانية، وهو ما يُسمى فى الظاهريات الشعور باعتباره ذاتاً noèse والشعور باعتباره موضوعاً noème. ولم تحدد الطبيعة طريقة محددة لذلك. ومع ذلك هناك طريقان عرفتهما البشرية: طريق حق وطريق باطل، هدى وفتنة، تعفف من ناحية وسفك دماء واغتصاب حقوق من ناحية أخرى، طبقاً لثنائية الأفغانى التطهرية. والطريقة المثلى هى حد الاعتدال وقصر النفوس عليه تخفيفاً للأهواء. ويكون ذلك بطرق أربع :

١- المدافعة الشخصية. وهو طريق النضال والقتال وإسالة الدماء، طريق الجلاد، وغلبة القوى على الضعيف. فإذا قوى الضعيف وضعف القوى طبقاً لجدل السيد والعبد تدور الدائرة، ويستمر الفساد فى النوع الإنسانى. فالأفغانى هنا يدين العنف واستعمال القوة لتحقيق الخير والمنفعة العامة.

٢- شرف النفس. وهو طريق يمنع صاحبه من إتيان ما يذم عند قومه، وهو ما يتغير بتغير الأقوام وعند البدو والحضر مثل الحيلة والمكر، مقبولة عند قوم مرفوضة عند آخرين. ولما كان لكل كائن علة غائية فغاية الأخلاق توسيع الرزق، والشرف من أجل البقاء. ومن ثم يجوز جعل شرف النفس ميزاناً للعدل. أما حب المحمدة فقد يتعارض مع الشهوات. ولايمكن الجمع بينه وبين شرف النفس. وكلاهما اختياران.

٣- الحكومة. وقوتها تكمن فى الكف عن العدوان الظاهر ورفع الظلم البين ولكنها لا تستطيع منع الاختلاس والزور والتمويه والباطل المزين والفساد الملون بصيغ الإصلاح، والخفايا والدسائس. الحكومة تقوم بالأمن الخارجى ولكنها تعجز عن منع الاضطراب الداخلى. تستطيع الحكومة أن تسيطر على المجتمع ولكنها لا تستطيع التحكم فى أهواء النفس.

٤- الاعتقاد بالألوهية. هو الحل الجذرى للشهوة والأهواء أى الإيمان بأن للعالم صانعاً عالماً بالظاهر والباطن، قادراً على الخير والشر، يجازى فى الحياة الأخروية. ويكبح هذا الاعتقاد والنفس عن الشهوات ويمنعها من العدوان. هاتان العقيدتان، وجود الله والإيمان بالمعاد أفضل طريق لنيل الفضائل.

ويبطل الطبيعيون هاتين العقيدتين من أجل الإباحة والاشتراك فينهدم بناء الإنسانية، وتنهار قواعد المدنية، وتفسد الأخلاق البشرية. قد ينخدع بأقوالهم طلاب التمدن. فالدين، مهما انحطت درجته، أفضل من طريقة الدهريين مهما علت. وقد ألهم الله النفوس بالتحذير من الطبيعيين حفاظاً على نظام الكون والنظام الإنسانى. فالدين فطرى يطرد آراء الطبيعيين، ويخلص النفوس منها، ويحقق سعادة الإنسان[١]. ولايبين الأفغانى كيف أن الاعتقاد بالألوهية أيضاً قد يكون غطاء وستارا يخفى أبشع صور الاستغلال كما حدث فى شركات توظيف الأموال وفى كل مظاهر القهر والاستغلال باسم الدين. وواضح تعصب الأفغانى للدين ضد المذهب الطبيعى. فالدين مهما انحط أفضل من المذهب الطبيعى مهما علا وكأن الجاهلية وعبادة الأصنام أفضل من المذهب الطبيعى. والتأليه الطبيعى والأخلاق الطبيعية هى أخلاق الفطرة، وهى من خلق الله، **﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾** ؟.

وينتهى الأفغانى من عرض هذا البديل الدينى الأخلاقى بالإعلان عن موقفه الدفاعى فى مطلب "**أن الدين الاسلامى أعظم الأديان**"[٢]. فهو دين متين قائم على أساس الحكمة، يهدف إلى إسعاد البشر وتدرجهم فى العلم والفضيلة. وذلك لا يتحقق إلا بأربعة أمور تتم بها سعادة الأمم هى :

١- صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام نتيجة صفاء التوحيد. فالأفغانى هنا يوحد بين العقل والوحى، بين بداهة العقل وتنزيه الله. وكلاهما يجتمع فى النور الفطرى.

---

(١) المصدر السابق ص ٩٣/١٦٦-١٧٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٣.

٢- استقبال النفس وجهة الشرف، وطموحها إلى بلوغ الغاية بحيث تكون لائقة بالكمال الإنسانى باستثناء النبوة. وقد فتح الاسلام باب الشرف لذلك بالدعوة إلى الاسراع إلى الفضيلة والتسابق إلى الخير. لقد قسم دين براهما الناس أربعة أقسام. لكل قسم كماله من الفطرة. وكان هذا التقسيم سببا فى انحطاط الدين. وفضلت اليهودية شعباً على باقى الشعوب. تكرم الأول وتحقر الثانية. فارتفع امتياز الجنسية وقدر العرق. وظهر البناء الطبقى للمجتمع اليهودى، طبقة علياً للأحبار والكهان وطبقة دنيا لعامة المؤمنين. وكعب الأحبار واسطة بين العبد والرب، بين الشعب ويهوه، مخالفة لما جاء فى الكتاب. فأتى الاصلاح الدينى اليهودى والبروتستنتى موافقاً لما جاء به الاسلام ضد التوسط بين الانسان والله وضد اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله.

٢- إقامة عقائد الأمة، وهى أول ما ينتقش فى النفس، على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة وليس على التقليد. وقد طلبت أوروبا فى العصور الحديثة البرهان على صحة العقائد، وعارضت رجال الدين وسلطتهم، دفعاً للتقليد وتشجيعاً على الاجتهاد. وينفرد الاسلام عن باقى الديانات بطلب البرهان، وقيام عقائده وأصوله على العقل والبرهان.

٤- قيام طائفة فى كل أمة يختص عملها بتعليم الأمة. وهم العلماء المناط بهم تنوير العقول بالمعارف، وتحليتها بالعلوم من أجل نيل السعادة وطائفة أخرى تقوم بتربية النفوس وتثقيفها، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر طبقاً لأمر القرآن **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** ، **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾**. وكان الأفغانى ينوى وضع كتاب لبيان أن المدينة الفاضلة لا تقوم إلا بالدين الاسلامى. ولما كان المسلمون على غير الاسلام فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فالأديان نافعة لقيام النظام البشرى على الإطلاق، والإسلام على الخصوص[1].

---

[1] المصدر السابق ص ١٧٣-١٧٩.

هكذا يبدو الأفغانى من مؤسسى علم الكلام الجديد، مدافعاً عن الاسلام فيما تصوره يمثل خطراً عليه وهو الدهرية أو المذهب الطبيعى، ومثبتاً وجود الله، وخلق العالم، وخلود النفس وأمور المعاد. ولكنه أخطأ الطريق ولم يصب الهدف. فالمذهب الطبيعى ليس ضد الدين ولا الدين ضد المذهب الطبيعى. الاسلام دين الفطرة أى دين الطبيعة، والطبيعة خيرة تتجه نحو حقائق الدين. الدين طبيعة، والطبيعة دين. الدين طبيعة نازلة، والطبيعة دين صاعد، لافرق بين تنزيل وتأويل بتعبير القدماء. لذلك يوجه القرآن النفس والعقل نحو الطبيعة والتأمل فى ظواهرها. والآية ظاهرة طبيعة ونص فى آن واحد. الطبيعة مصدر تحرر دائم من النص. الطبيعات مقدمة للألهيات فى علم الكلام، ولما بعد الطبيعة فى الفلسفة. والخلق والحق واجهتان لشىء واحد عند الصوفية، وتحليل العلل ومقاصد الشرع واحد فى علم أصول الفقه. ومن ثم برز سؤال عند المحدثين وبحق: عود إلى النص أم عود إلى الطبيعة؟[1].

---

[1] قضايا معاصرة جـ١ فى فكرنا المعاصر : عود إلى المنبع أم عود إلى الطبيعة؟ دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦ ص ١٧٣-١٧٦.

الفصل الثالث

الحرية والعقل (العدل)

١- القضاء والقدر

بالرغم من أن الأفغاني ظل أشعريا في التوحيد والعدل وخروج محمد عبده عليه إلى المنتصف فأصبح أشعريا في التوحيد معتزلياً في العدل إلا أنه حاول الخروج عن الاشعرية بنقده عقيدة القضاء والقدر التى صب فيها الكسب الأشعرى فى الممارسات الشعبية وتحول إلى جبر وظل معتزلياً خارجياً فى الإمامة يقول بضرورة الخروج على الحاكم الظالم بينما ظل محمد عبده أشعرياً مرجئاً يقول بضرورة طاعة الإمام حتى ولوكان ظالماً.

يبدأ الأفغانى ببيان أثر العقائد القلبية فى الأعمال البدنية، وأن صلاح الأعمال وفسادها راجع إلى صلاح العقيدة. فإذا ما تم تأويل العقيدة الحسنة تأويلاً سيئاً تصبح وكأنها عقيدة سيئة وتبطل الأعمال. فالأعمال دليل على العقائد. لذلك يطعن البعض على العقائد والدين استنادا إلى أعمال بعض السذج. فإذا كان محمد بن عبد الوهاب قد بدأ بأصلاح العقيدة، ومدحت باشا باصلاح الحكومة والادارة فإن الأفغانى بدأ بإصلاح العقول والنفوس أولاً ثم إصلاح الحكومة ثانياً، وربط ذلك بالدين. وإذا كان مدحت باشا يرى أن إصلاح الشعب يأتى عن طريق إصلاح الحكومة فإن الأفغانى يرى أن إصلاح الحكومة يأتى عن طريق إصلاح الشعب. وإذا كان مدحت باشا يرى أنه إذا صلح الراعى صلحت الرعية والغاية الدستور فإن الأفغانى يرى أن القوة النيابية تنبعث من نفس الأمة[1].

ومثال هذه العقائد التى لها أبلغ الأثر على النفوس، عقيدة القضاء والقدر التى كثر اللغط فيها وسوء فهمها خاصة من الأفرنج. فقد زعموا أنها، سبب تأخر المسلمين وضعفهم وفقرهم وفسادهم وكذبهم ونفاقهم، وأن الاعتلال بالقدر سبب

---

[1] أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث. النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٨ ص٥٧.

الخيانة والتحاقد والتباغض والتفرق والجهل بالأحوال الحاضرة والمستقبلة والغفلة عما يضرهم وينفعهم، والركون إلى الحياة طعاماً وشرابا ونوما دون تنافس فى فضيلة والاضرار بالاخرين. تحول البأس بينهم والأمم تبتلعهم جزءاً جزءاً. قبلوا العوارض، وارتكنوا إلى السكون دون أداء الواجبات، ومالوا إلى التخاذل والتنافر، وإهمال المصالح العامة. والتنافر يذهب بشوكة الأمة، ويضيعها مثل الصراع بين زعيمين، وموالاة أحدهما للأجنبى ضد أخيه. وقعوا فى الاسراف والتبذير والتخاذل. وسكنوا لغياب الجمعيات لأحياء الغيرة فى النفوس. وسبب كل ذلك عقيدة القضاء والقدر التى تؤدى إلى الفناء والأفول. فالنظر أساس العمل.

لقد أخطأ الأفرنج فى الخلط بين القضاء والقدر ومذهب الجبرية. وتابعهم المسلمون فى هذا الخلط. والاعتقاد بالقضاء والقدر غير الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضياته. ولايوجد مسلم الآن، سنيا أو شيعياً، زيديا أو إسماعيلياً. وهابياً أوخارجيا يرى مذهب الجبر المحض، وسلب الاختيار عن نفسه. انقرض مذهب الجبرية فى أواخر القرن الرابع للجهرة. واستقرت فى نفوس المسلمين عقيدة الكسب، مناط الثواب والعقاب. هنا يدافع الأفغانى عن القضاء والقدر باعتباره متكلما حديثاً ضد الطعن على الاسلام والترويج للشبهات الجديدة التى تلتقى حوله من الغرب عامة والمستشرقين خاصة. رسالة القضاء والقدر إذن تعطى التفسير الصحيح للعقيدة التى كثر فيها لغط المغفلين من الأفرنج. [1]

القضاء والقدر ترشد إليه الفطرة والدليل القاطع. فلكل حادث سبب يقارنه فى الزمان. والإنسان لايرى إلا الأسباب المباشرة دون الأسباب الأولى. وارادة الإنسان حلقة من حلقات سلسلة العلل. وهى أثر من آثار الإدراك. والإدراك انفصال النفس بما يعرض للحواس والشعور بما فى الفطرة من الحاجات. فلظواهر الكون سلطة على الفكر والإرادة. وهذه الأسباب من مدبر الكون الذى أبدع كل شىء وفقاً للحكمة، وجعل كل شىء تابعاً لشبهه فى العالم الإنسانى. ولا يمكن انكار تأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية فى إدراك البشر[2]. وواضح اعتماد الأفغانى

---

[1] رسالة القضاء والقدر، الأعمال ص ١٨٢-١٨٨ العروة الوثقى ص ١٦٠-١٧٤ خاطرات ص ٣٤٣-٣٥٤.

[2] المصدر السابق ص ١٨٣-١٨٤.

على وصف السنن الكونية والتحليل التاريخي لمسار العقائد، مثل انقراض الجبرية في أواخر القرن الرابع الهجرى، وتحول الكسب الاشعرى إلى جبرية فى العقائد الشعبية. وبالرغم من أن الأفغانى يبدأ عادة بوضع قانون عام يندرج الموضوع تحته مثل أثر العقائد فى سلوك الأفراد والجماعات إلا أنه كثيراً ما يقع كالعادة أيضاً فى نوع من الخطابة والإنشاء، وتغليب أسلوب الداعية على أسلوب الباحث.

وقد لجأ بعض الأفرنج إلى الإطالة فى إثبات القضاء. والتاريخ علم أفضل من الرواية، علم البحث عن سير الأمم صعوداً وهبوطاً، وطبائع الحوادث وما فيها من تغيير فى العادات والأخلاق والأفكار، وفى الإحساس والوجدان. ولوكان الأمر بيد البشر وحدهم لما حدث قيام أو سقوط. هنا يلجأ الأفغانى إلى تحليل التجارب التاريخية للأمم والشعوب، اسباب النهضة وأسباب الانهيار. وهو أفضل من علم الرواية أى المنهج النصى، بالرغم من عدم خلو الأسلوب من خطاب الوعظ والإرشاد مثل "**أنتم ياعصبة الرحمن وأولياء الشفعة**"[١].

ويعطى الأفغانى تحليلاً نفسياً لآثار القضاء والقدر فى النفس بحيث تدفع على الفعل أكثر مما تؤدى إلى الخمول. فالقضاء والقدر إذا ما تميز عن الجبر يخلق فى الإنسان القدرة والأقدام والشجاعة والبسالة وأقتحام المهالك. فإذا كان الأجل محدوداً فلا يجدى الخوف، ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم**﴾. اندفع المسلمون للفتح، وقضوا على الأمبراطوريتين، الفرس والروم، فى أقل من ثمانين سنة، وعمّروا الأرض، وصعدوا الجبال بالاعتقاد بالقضاء والقدر، وثبتت أقدامهم للعلى، لافرق بين نساء وأطفال وشيوخ، وقد استكانوا اليوم بسبب الاستعمار الأجنبى. ويشهد التاريخ أن كل القائمين العظام كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر مثل كورش الفارسى (كيخسرو)، والاسكندر الأكبر، وجنكيزخان، ونابليون. فالاعتقاد يخلص النفس من الجبن، وهو

---

[١] القضاء والقدر، الأعمال ص ١٨٥-١٨٨.

الذى يعوق عن التمدن. ولم يجد الأفغانى إلا الغزالى للاستشهاد به على أن التوكل والركون إلى القضاء من مطالب الشرع، فى النشاط والعمل وليس فى البطالة والكسل. ليس التوكل هو سبب التخلف بل صدمة الاستعمار، من الشرق التتار ومن الغرب الأمم الأفرنجية. الإسلام لن يموت فالعقائد حية. إنما المطلوب هو الاعتدال. وقد فتح العثمانيون البلاد بعد صدمة الصليبية والتتار، ودانت لهم البلاد الأفرنجية بفضل القضاء والقدر.

وكما حدث الخلط عند الأفرنج بين الجبرية والقضاء والقدر حدث خلط مماثل عند بعض العلماء المسلمين المزيفين بين القدرية وهم المعتزلة والجبرية. فهاجم أحدهم الزمخشرى ومؤلفه "**الكشاف**" وأخرج من قرأه من عداد أهل السنة وأدخله فى زمرة الملحدين لأنه من المعتزلة المدافعين عن الجبرية! لذلك أدانه ابن خلدون لأنه أشعرى، وكل من خالف ابن خلدون فهو مارق من الدين مضلاً للمسلمين. فالشيخ لا يعلم أن مذهب المعتزلة هو خلق الأفعال أى حرية الاختيار مع أنه يدعى أنه من كبار مدرسة السليمانية، درس كل العلوم العقلية والنقلية والخلافيات. ويضع الجبرية والمعتزلة القدرية فى سلة واحدة. ويرى العالم المزيف أن كل الأفعال مسندة إلى الله كما يقول الزمخشرى المارق المضل! ويذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية انتقاء لاثبات ذلك وينقد تفسير الفخر الرازى وشرح الكشاف لابن الطيبى. ويدافع الأفغانى عن المعتزلة ككل ولاينقد كل آرائهم. ففيها الحسن والقبيح. ويمدح واصل بن عطاء لاعتزاله مجلس الحسن البصرى وخلافه معه فى مسألة مرتكب الكبيرة، وقوله بالمنزلة بين المنزلتين، بين الخوارج وأهل السنة. ثم ينقد الجبرية لنسيانهم الجزء الاختيارى الكسبى. فينتهى الأمر إلى المذلة. وقد ينطبق المذهب على العالم الروحانى أكثر من العالم الجسمانى لأن الأول خال من الإرادة وحرية الاختيار. وينقد تفسير "**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**" بأن التعوذ معرفة الله بالمحدثات كلها وسبق القضاء الأزلى. فالله أقدر من الشيطان، ومحيط بكل الكائنات والحوادث وهو تناقض. فأما أن يعصى الشيطان وهو ماينال من القدرة الإلهية أويكون مسلطاً على الإنسان مما ينال من الحرية الإنسانية. فعندما

يتهم العالم المزيف الجبرية قاصدا المعتزلة بالقول بأن الاستعاذة من الشيطان لا فائدة منها يكون اقرب إلى الجبرية وأبعد عن القول بالحرية الانسانية عند المعتزلة. كما يدافع الأفغانى عن ابن خلدون ضد اتهامه بالتحذير من الزمخشرى بايراد نص منه. وينتهى الأفغانى إلى الدفاع عن القضاء والقدر لأنه حال الربوبية فى الخلق معتمداً على الاستاذ على منلا خان بأن القضاء هو ما قضى به الله فى الخلق وسبق علمه فى اللوح المحفوظ أزلياً، والقدر مانزل على الأرض بالتدريج حادثاً ومسبباً. ويكون محمدعبده قد تقدم خطوة على استاذه ببقائه أشعريا فى التوحيد وتحوله إلى الاعتزال فى العدل لقوله بالحسن والقبح العقليين وبحرية الاختيار دون الاكتفاء بحسن تأويل القضاء والقدر[1].

٢- العقل والتكليف

وإذا كان أصل العدل يشمل عقيدتين عند المعتزلة، خلق الأفعال، والعقل أساس النقل أو الحسن والقبح العقليين فإن الأفغانى يحاذى أصل العدل عن المعتزلة ولا يدخل إليه كلية كما فعل محمد عبده. فالعقل مناط التكليف قبل ورود الشرع عند الأفغانى. وهو أعظم ما خلق الله. كرم الله الإنسان به لأنه أشرف المخلوقات. وهنا يبدو الأفغانى معتزلياً قحاً. وإذا صح القضاء والقدر بمعنى الجبر بطل الثواب والعقاب. ويعتمد الأفغانى على منلا خان لإثبات إباحة الإسلام الجدل بالتى هى أحسن استجلاء للحقيقة أى استعمالا للعقل. وتم تكليف الإنسان وحده دون الحيوان والجماد لتحمله مسئولية الأمانة باختيار حر. فعل الإنسان مرجح بين الفعل والترك، والأفعال خارج الترجيح لا ثواب ولا عقاب عليها. تسخير كل ما فى الأرض له وجعله خليفة الله فى الأرض. وهذا كله لا يتعارض مع علم الله بكل المحدثات وقدرته على كل شيء. فكلا الإثباتين شرعيان، عقل الإنسان وحريته، وعلم الله وقدرته.

---

[1] خاطرات ص ٣٢٩-٣٧٢.

خلق الله الإنسان وأودع فيه العقل لمعرفة أسرار الكون كما قال ابن عربى

وتحسب أنك جرم صغير .·. وفيك اطوى العالم الأكبر[١]

الإنسان نفسه من أكبر أسرار الكون. ويستجلى بعقله ما غمض عليه عن طريق العلم. فما كان خيالا أصبح حقيقة. يقلب الإنسان النظر فى الفضاء والبحار، ويقلد الطيور والحيتان فتكشف الطيارات والغوصات والصواريخ، ويتحرر العقل من الأوهام كل يوم. وليس بمستحيل إيجاد مطية توصله إلى القمر أو الأجرام الأخرى (وقد حدث بالفعل). فالعقل ليس فقط مناطا للتكليف وسنداً للحرية والمسئولية متوجهاً نحو الفعل، ولكنه أيضاً الطريق إلى العلم واكتشاف قوانين الطبيعة متوجهاً نحو العالم[٢].

ويدافع الأفغانى عن السببية وانتظام حوادث الكون فى قوانين ثابتة يدركها العقل، وينكر وقوع الصدفة فى الكون. ومن ثم يتأسس العلم، ويتم تفسير الظواهر الطبيعية. وتخضع الأحياء أيضاً للقوانين مثل هروب الجرذ من الأفعى ولجوء الإنسان تحت الشجرة للوقاية من ظواهر الطبيعة. ويحيل الأفغانى إلى القرآن **﴿وآتيناه من كل شىء سبباً﴾**. فالعلم هو العلم بتسلسل الاسباب. ولولا قصرالعمر لعلم الانسان أشياء كثيرة كما يقول القرآن. **﴿يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً﴾**. لذلك كانت العلوم باستمرار ناقصة مثل علم الطب الذى يكتشف كل يوم شيئاً جديداً. ولايُعرف كنه الكهرباء حتى الآن. عرفه القدماء فى شكل الحجر الصوانى. ويقول علماء اليوم إن الأصل الماء ـ الحركة ومنها تتولد الحرارة، مثل ما قاله أبو بكر ابن بشرون منذ أكثر من ألف عام. وإذا كانت حقائق الأشياء ثابتة فإنه يتعذر على فرد واحد العلم بها لأن العلم تراكم معرفى تاريخى بين جماعات متعددة وعبر العصور[٣].

---

[١] والبيت الصحيح الذى تسعف به ذاكرة الأفغانى هو :

وتحسب أنك جرم صغير .·. وفيك انطوى العالم الأكبر

[٢] خاطرات ص ٣٣٦ /٣٤٣.

[٣] الإنسان وحقائق الكون ، الأعمال ص ٢٦٢ -٢٦٥ خاطرات ص ١١-١٢ / ١٩١-١٩٥.

وبالعقل والتكليف والعلم تنشأ الصناعة وتعنى العمران كما هو الحال عند الطهطاوى. فالانسان من الحيوانات الأرضية، وليس من الحيوانات السماوية كما كان يزعم حكماء الفرس والصين. نشأ فى الطبيعة راعياً وصائداً وزارعا، يتعلم من الحيوان الدفاع والهجوم. لم يكن قد تربع بعد على عرش الوجود بل كان جاهلاً بحقائق الكون، هيابا من العالم. هذا حال القبائل فى جنوب أفريقيا التى لم تختلط بالعالم ومازال فيها سذاجة الفطرة. ثم تحضر الإنسان بالكد والعناء وبقوة العقل فى التصريف. وقد تحقق ذلك فى الصناعة التى اخترعها بقوته العقلية لتكوين عوض له عن ضعفه. فصناعة الحياكة تحمى جسمه مثل الحيوان. وصناعة الحديد والأسلحة بدلا من المخالب. ومن هنا أتت أهمية الصناعة وأقسامها الأولية. الصناعة قوة تتجاوز الأفعال الطبيعية مثل حرق النار، وتزداد قوة. وبالفكر الصحيح يتم اكتشاف نظام الكون. وتستعمل القوة ليس فقط لخدمة النفس كما يفعل الحيوان بل لخدمة الغير. العقل آلة الإنسان وقوته. وعمله الصناعة. فالصلة بين العقل والصناعة كالصلة بين النظر والعمل. ينظر العقل فى كلية العالم فيدرك النوع الإنسانى، ويعمل على حفظه وكماله. ويرى أن ذلك يتم بالاجتماع والزراعة والحدادة والتجارة والحياكة ثم التخصص فى بعض منها حتى ينشأ من مجموعها التعاون الإنسانى. وذلك مثل أعضاء البدن التى فى مجموعها وعلى تخصصها تكوّن البدن. وتنقسم إلى صنائع طبقاً للمنفعة والضرورة والكثرة والكمال والتمام إلى ثمانية: ناقصة ضرورية كالحدادة، ناقصة غير ضرورية كقص الثياب، نافع للإنسان وحده كالحكمة، خيرة بالوسط مثل الزراعة والكتاب، ولها غايات سوى نفس الإنسان ولكن تؤول إليه، كثيرة النفع كالنجارة والتجارة، قليلة النفع مثل صناعة الصيد، متممة لفعل الطبيعة مثل الطب المتمم لأفعال القوى الحيوانية المساعد لها على وظائفها، ومزينة له مثل الصباغة والنقش والتلوين. وتتفاوت هذه الصناعات الثمانية شرفاً وحكمة. أعلاها الحكمة لأنها تبحث فى كل شىء. فهى أشرف الصناعات، وغيرها خادم لها. وهو نفس تصور الفلاسفة القدماء خاصة الفارابى[1]. هنا يأخذ الأفغانى وجهة نظر أنثروبولوجية فى نشأة الصناعات تقليداً للحيوان فى الطبيعة.

---

(1) فلسفة الصناعة ، الأعمال ص ٢٥٥-٢٦٠.

ثم يتوجه الأفغانى بعد ذلك إلى نقد التصوف المناهض للعقل والتكليف والعلم والصناعة. وينقد الإباحية أى عدم العمل، ونفى الملكية وإباحة الشيوع. وترك الأعمال. وهى أمراض المجتمع مثل الفسوق والفجر. ومثلها البطالة وترك الأسباب بدعوى التوكل الكاذب ومعارضة سنن الله فى الكون، وانقطاعا عن عالم الظواهر مع التخلى عن التعفف. ولا سبيل إلى تحقيق الصناعة إلا بتطهير المجتمع من كل هذه القيم السلبية التى يروج لها التصوف كما يتم التخلص من شعر الأبط. إذ يدعو الصوفية إلى الزهد والبطالة وترك العمل، وهم أقرب إلى الطمع والرياسة الكاذبة والحقد والحسد ونهب أموال الناس بدعوى الإباحة. فلا قوام للإنسان إلا بالصنعة قوام البنيان الإنسانى[1]. وهنا يبدو الأفغانى كالعادة رافضاً الاشتراكية التى يسميها الإباحية، ويدافع عن الملكية الخاصة كما تفعل الاتجاهات الدينية الرجعية المحافظة فى المجتمع التجارى مدافعة عن الرأسمالية باسم الدين.

والعقل والفعل أو النظر والعمل ليسا بغريبين على الإسلام. العلوم والسياسة فى صلب القرآن. فكل شؤون السياسة من سلطان وحكومة وشورى فى القرآن فى سورة النمل، فى قصة سليمان والملكة سبأ والهدهد. الملك يتفقد الهدهد فلا يجده. والهدهد يأتيه بالأخبار، أمرأة ملكاً وقومها يسجدون للشمس، ثم رسالة من سُليمان لها، ومشورة سبأ، وحكمها علي الملوك والفساد واذلال الأعزة، وإرسال هوية إلى سُليمان لعل المال يكون مطعماً له. فردها سليمان إيذاناً بالحرب. ثم نقل عرشها إلى القدس. كل ذلك مثل العلوم الحديثة، الطائرة واللاسلكى،والانتقال من البطىء إلى السريع، من احضار سبأ قبل أن يقوم سليمان من مكانه إلى سرعة أكثر قبل أن يرتد إليه طرفه مثل المغناطيس. كما أشار القرآن إلى كروية الأرض ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾، ودوران الشمس حول محورها ﴿**والشمس تجرى لمستقر لها**﴾، وانفصال الأرض عن الشمس ﴿**كانتا رتقا ففتقناهما**﴾ وفناء العالم باختلال النظام الشمسى بالزلزال ﴿ **إن زلزلة الساعة شىء عظيم**﴾ ، ﴿**إذا زلزلت الأرض زلزالها**﴾، ومحاور الأرض الأربعة ﴿**وترى الأرض بارزة**﴾ ، ومن علم الاقتصاد تجميع الثروة وجباية العشر وقت الحصاد كرسوم ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده**﴾ [2]. وواضح أن

---

[1] فلسفة الصناعة، الأعمال ص ٢٥٥ –٢٦٠.

[2] السياسة والعلوم فى القرآن، الأعمال ص ٢٦٧–٢٧٠ فيما اشتمل عليه القرآن من تدبير الممالك وأصول الحكومة الشورية ووظائف الملوك "إن الدين لا ينبغى ولا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ولزوم رجوع التأويل"، الخاطرات ص١١

الأفغانى من أنصار رأى المعاصرين أن العلوم فى القرآن، الطبيعية والإنسانية. كما يحدث فى برامج "**العلم والإيمان**" وفى تيار أسلمة العلوم، أخذ العلوم الغربية ثم تأويل القرآن طبقاً لها سلباً أو إيجابياً. فالغرب يبدع والمسلمون يؤولون النصوص طبقاً لابداع الغرب. مع أن القدماء أبدعوا العلوم بعد أن تحول النص إلى تحرير للعقل وتوجه نحو الطبيعة. اكتشاف السياسة والعلوم فى القرآن لا يؤيد ما يدعو إليه الأفغانى من عقل وتكليف وعلم بل يؤدى إلى الكسل والتقليد والنقل، النقل عن العلوم الغربية ثم الاكتفاء بتسليط الآيات القرآنية عليها قبولا أو رفضاً، وتحكيماً للنص فى العقل والتجربة. يوهم المسلمين أن القرآن به كل شىء، فيستفيدون من علوم الغرب نقلاً بعد ختمه بطابع القرآن. فإذا ما تغير العلم الغربى تغير التأويل والطابع والختم. فيصبح العلم الغربى هو الثابت، مع أنه متحول، ويصبح القرآن متحولا مع أنه هو الثابت. ويوهم المسلمين بأنهم حصلوا على الحسنيين فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا علم الغربيين الذين سخرهم الله للمسلمين، وإيمان المسلمين الذى حرم الله منه الغربيين. فالغرب لديه العلم دون الإيمان فهو الخاسر، والمسلمون لديهم العلم والإيمان، وهو الفتح المبين. وقد اعترف الغرب بفضل العرب على العلم الغربى نفسه مثل الجبر الذى وضعه أبو السمح والجاذبية التى اكتشفها أبو بكر بن بشرون قبل نيوتن فى القرن الثالث للهجرة واعترافه بوجود قوة حاسة قابضة منعكسة من المركز، الأرض، فى تفسير مركبات الكيمياء. كما اكتشف التحليل والتركيب تلميذ المجريطى فى القرن الثالث كما ذكر فى رسالته إلى أبى السمح التى يذكرها ابن خلدون بتعبير الحل والعقد. واكتشف ابن بشرون الفوسفور واستحضاره. ويقول المؤرخ الألمانى هوفر لتاريخ الكيمياء إنه وجد رسالة مترجمة إلى اللاتينية لبشير من علماء العرب يبين فيها استحضار الفوسفور من الأدرار، ويسميه الياقوت الجمرى الاصطناعى.واكتشف ابن بشرون استحضار الأوكسجين من حجر المغنيسيا، ويسميه روح حساسة أى غاز. وكذلك أكتشف الأيدروجين وخواصه مثل اطفاء الأجسام الملتهبة. واكتشف جابر بن حيان حامض الأزوت فى القرن الثانى. كما اكتشف الرازى حامض الكبريت فى القرن الثالث. وعرف استحضاره، وذكره فى الحاوى، وسماه روح الزاج. وبتقطير كبريت الحديد يستحيل إلى حامض الكبريت وهو أهم الحوامض وأنفعها فى الصناعة. واكتشف المجريطى الذى انتهت إليه الرياسة فى الاندلس فى القرن الثالث، فاعتبر الكيمياء ثمرة الحكمة، تتم بالصناعة، وعمل المعادن الخسيسة، وتحويلها إلى ذهب وفضة. وقد أنكر ابن خلدون على المجريطى وابن بشرون قولهما بصحة الكيمياء لأن رسالة

ابن بشرون من قبيل الألغاز مع أنها واضحة وفنية صرفة. وهو علم جليل أخذه الأوروبيون عن العرب قبل لافوازييه. وقد دل ابن بشرون فى رسالته إلى ابى السمح على الحجر الفلسفى أو حجر الحكمة. وذكر مع التحليل والتركيب التقليب وهو تغير جوهر الشيء. ويمكن بالتفاعل حدوث جسم معتدل منها البوتاس دون تمويه على السذج من انقلاب الورقة دينارا. كما ذكر التنشيف. فالصابون لا يمكن تنشيفه بالهواء ولا بالشمس أوالحرارة. كما ذكر التنقية أو التطهير. وذكر التكليس بالاحتراق أو ضغط الهواء. ومكتبة بغداد والاندلس والقيروان وماترجم فى عصر العباسيين وما حققه العرب من المباحث كانت وأوروبا مازالت فى عصر الجليد[١]. وهكذا يضع الأفغانى التقابل بين علم القدماء وجهل المحدثين، ويضرب المثل بعلم الكيمياء رافضاً استعماله كأداة من أدوات السحر. بل إنه ينقد ابن خلدون لهجومه على علم الكيمياء لادخالها كلمات أعجمية.

لذلك يرد الأفغانى رداً شهيراً على رينان الذى هاجم الإسلام فى نقطتين: الأولى أن الديانة الإسلامية كانت بمالها من نشأة خاصة مناهضة للعلم. والثانية أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ماوراء الطبيعة والفلسفة[٢]. ويرد الأفغانى على النقطة الأولى بأن مناهضة العلم ليست فى الإسلام نفسه بل فى صورة الإسلام فى العالم أو فى أخلاق بعض الشعوب التى اعتنقت الإسلام خاصة إذا كان هذا الاعتناق بالقوة. ثم يتحول الأفغانى من الدفاع إلى الهجوم مبيناً أن رؤساء الكنيسة الكاثوليكية مازالوا يحاربون التدليس والضلال ويقصدون به الفلسفة. ويرد على النقطة الثانية بأن العرب خرجوا بسرعة من حالة القبيلة إلى حالة الأمة، تعادل سرعتهم فتوحاتهم السياسية. وفى خلال قرن، عرفوا العلوم اليونانية والفارسية، وحفظوا آثار روما وبيزنطة. ثم وسعوها وأضافوا عليها. وهو ما لم يفعله الإنجليز والفرنسيون والألمان. وظلوا ناقلين لروما وبيزنطة اعتمادا على العرب وتراثهم فى المشرق والمغرب. وقد أخرج العالم الإسلامى على مدى خمسة قرون مفكرين وعلماء، أدباء شعراء. ولكن رينان يعتبرهم من أصول غير

---

[١] أصالة العرب العلمية، الأعمال ص ٢١٢ -٢١٣ فيما سبق إليه العرب من العلوم والفنون، خاطرات ١٥٦-١٥٧/١٥٨-١٦٤.

[٢] الرد على رينان، دفاعاً عن العروبة والإسلام. الأعمال ص ٢٠٨-٢١٠.

عربية، حرانية أو أندلسية أو فارسية. ويرد الأفغانى بأنه إذا كان العلماء فرساً فإن الحرانيين عرب، والعرب بعد فتح إسبانيا ظلوا عرباً. واللغة قبل الاسلام كانت لغة الحرانيين برغم كونهم من الصائبة. وكان أكثر نصارى الشام عرباً غسانيين. ولم يكن ابن باجة وابن رشد وابن طفيل أقل عروبة من الكندى. ونابليون نفسه ليس فرنسياً. وكثير من العلماء الذين استوطنوا ألمانيا أو إنجلترا أتوا من خارجها. لقد وحد الإسلام بين الشعوب، ولم تعد هناك جنسية غير الإسلامية. وإن تصور الجنسيات فى دراسة تاريخ الأمة الإسلامية هو إسقاط من الحاضر على الماضى، ومن الغرب على الشرق، ومن الثقافة الغربية على الثقافة الإسلامية [١].

٣- العلم والعمل

إذا كان العقل مناط التكليف وطريق العلم فإن العلم طريق العمل. ولا يحصل علم دون تحرير العقول من الأوهام. فإن قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام. العقل اشرف مخلوق. فهو عالم الصنع والإبداع ولا معطل له إلا الوهم، ولا يقعده عن عمله إلا الجبن. وهو الذى يخيل المفقود موجودا والقريب بعيداً. وكل شىء فى هذا العالم خاضع لمطلق العقل الإنسانى. والمستحيل اليوم فى العلم يكون ممكناً غداً فى العلم والصناعة. وأن ثمرة العقول لا تجتنى إلا بإطلاقها من قيود الأوهام. والحقائق لا تزول بالأوهام بل العلم والتحليل والعقل. فالحقيقة تثبت وتقضى على الوهم[٢].

---

[١] الإشارة إلى مقدمات العلوم والفنون الحديثة. فيما سبق إليه العرب من العلوم والفنون ، وأدلة الأفغانى على أن الكيمياء تتم بالصناعة، وأنها ثمرة الحكمة، ويقتضى لها تحقيق ورسوخ فى عمادات تلك الصناعة وتفنيده لأدلة ابن خلدون، خاطرات ص ١١ استحسان الأفغانى كرنليوس فان دايك المستشرق لمؤلفاته والثناء على صورته، أن العرب تركوا كنوز ومفتاحها النحو والصرف وتصورنا أن المفتاح هو الكنز ولم نفتح الباب، خاطرات ص ٣٩١.

[٢] "قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام العقل أشرف مخلوق" . "فهو عالم الصنع والإبداع، ولا معطل له إلا الوهم، ولايقعده عن عمله إلا الجبن. وهو الذى يخيل المفقود موجوداً والقريب بعيداً ". "كل عناصر الوجود فى هذا العالم الفانى خاضعة للعقل المطلق الإنسانى. فكل مستحيل اليوم فى الطب والصناعة سوف يكون غداً ممكنا "الأعمال ص ٣٢٤" ثمرة العقول لا تجتنى إلا باطلاقها من قيود الأوهام "الأعمال ص ٢٧٩ خاطرات ص ٣٩٤ "الحقائق لا تزول بالأوهام "." الحقيقة منها ما ثبتت وتغلبت على الأوهام" خاطرات ص ٣٩٥.

ولا يكتفى الأفغانى بهذه الأقوال المأثورة عن العقل والوهم بل يحلل الوهم ويطبقه فى العمل السياسى. فالوهم ليس مجرد خداع فى النظر وخطأ فى الإدراك بل له تحققات عملية فى التوهم أى خداع النفس مثل التوهم بأن الإنجليز سيساعدون المسلمين ضد أطماع المستعمرين الهولنديين والبرتغاليين فيهم، وأنهم جاءوا إلى مصر لمساعدة توفيق ضد ثورة عرابى عليه، وجاءوا إلى الهند لحمايتها من الاستعمار البرتغالى والاسبانى. الوهم مرآة للمزعجات والمسرات، يصور الواقع على غير ما هو عليه، يحجب الحقيقة عند الرؤية، ويتسلط على الارادة. يجعل الضعيف قوياً،والقريب بعيداً، والأمان خوفاً. يصرفه الواهم عن حسه. يتخيل الموجود معدوماً والمعدوم موجوداً. كان الإنجليز أمة مجتمعة القوة، مستكملة العدد، مستعدة للفتوحات فى وقت كانت الأمم الشرقية مفككة جاهلة بأحوال الغربيين، يعدون كل غريب معجزة، وكل بديع سحراً أو كرامة. انتهز الإنجليز الفرصة، واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطانهم على ارجائه، وأوهموا الناس بالأعاجيب والحيلة والمكر، وسلبوا أموالهم، وانتزعوا أراضيهم. ثم تنافست على ذلك الدول الأوروبية. والوهم يمثل للشرقيين أن الإنجليز أصدقاء، ويمثل للغربيين أن إنجلترا دولة منعزلة بعيدة. ذهب الإنجليز إلى الهند، وتسابقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال على الاستيلاء على أراضى الهند. وساعدتهم على ذلك غفلة الهنود، فمالوا إلى الإنجليز، وصدقوا أنهم يريدون تخليصهم من الدول الظالمة، فرنسا وهولندا والبرتغال. وأصبح للإنجليز سلطان على الهند والهند الصينية وبورما ولا تزيد قوتهم على خمسين ألف إنجليزى، مع أن الممالك الصغيرة يمكنها جمع قدر هذا العدد عشرات المرات بالإضافة إلى ما عند الأهالى من سلاح. استولى الوهم على المشاعر فاستولى الإنجليز على الأراضى. وفى الدول العربية هناك من يهاب دولة الإنجليز تحت وهم أنهم سيدافعون عنها. وبعض الدول الأوروبية تهاب الإنجليز مثل إيرلندا. وينظر العثمانيون إلى الإنجليز كما ينظرون إلى الروس. ويظنون أن معارضتهم تجلب الضرر. وظنوا أن الاعتماد على إنجلترا يجلب النضج، والدولة العثمانية أكر عدداً وعتادا. وإنجلترا توهم الهنود أنها خليفة الدولة العثمانية. ولوأن العثمانيين استعملوا سلطتهم على الإنجليز والهند لما ضاعت الهند. كما تعدت إنجلترا على حقوق السلطان فى المسألة المصرية وهى مسألة عثمانية.

وكان المصريون أيام عرابى قسمين، قسم من أنصار توفيق وقسم يميل إلى عرابى. الأول فشل، والثانى ارتاب. ولاعزيمة مع الشك. فدخل الإنجليز مصر بلا حرب، بالترهيب والترغيب والدسائس. فتفرق الناس عن عرابى، وأُوهموا أن الإنجليز يؤيدون توفيق. فتساهل المصريون معهم، وأحسنوا الظن بالانجليز. فاستقرت أقدامهم مع أنه لا يوجد أحد من المصريين يميل إليهم. بل هناك من يبغضهم. لكن الوهم يكبح العزيمة. ذهل المصريون عن الاسباب التى مكنت الإنجليز من البلاد ظانين أنهم على كلمة واحدة فى مدافعة الانجليز مع أن الانجليز دخلوا بمعونتهم. احتلت مصر بالوهم، وهم أن العساكر قادرة على قهر الأهالى، فاستسلموا، مع أن إنجلترا لا تستطيع أن ترسل إلى مصر أو السودان أكثر من عشرين ألف جندى لايستطيعون مقاومة المصريين والسودانيين على سواحل مصر وبحيراتها. صحيح أن للإنجليز قوة بحرية ظهرت فى سواكن ولكنها تعجز عن العمل أكثر من فرسخين مع مناوئة الأهالى لهم من الأرض. لكن الوهم حجب الأبصار. وقد أزال الأوروبيون الوهم عن أبصارهم، وأدركوا ضعف الإنجليز. كذلك على الشرقيين إزالة الوهم وعدم إستبدال سيد بسيد[1].

لا يستطيع الوهم أن يغلب الحقائق مثل خداع الشرقيين والمكر بهم. فللوهم آثار قوية فى الأمم الضعيفة. له سلطان على الارادة وحكم على العزيمة. يذهل الواهم عن نفسه ويصرفه عن حسه، يخيل الموجود معدوماً، والمعدوم موجوداً. الوهم كون غير موجود، وعالم غير مشهود. هو روح خبيث يلابس النفس وهى فى ظلام الجهل. إذا خضعت الحقائق سادت الأوهام، وتسلطت على الإرادات فقاد إلى الضلالة[2].

ويرتبط الوهم بالجبن. فالجبن أب الوهم ومربيه. ويبدأ مقاله عن "**الجبن**" كالعادة بآيتين قرآنيتين ﴿**أينما تكونوا يدرككم الموت ولوكنتم فى بروج مشيدة**﴾ ﴿**قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم**﴾ ، وهو الذى قضى على دعائم

---

(1) الوهم ، الأعمال ص ٣٦٥-٣٦٩.

(2) الوهم، الأعمال ص ٣٦٥/ ٥١٧.

الملك، وقطع روابط الأمم، وأوهن عزائم الملوك، وأضعف قلوب الناس. يسهل على النفوس تحمل الذل والعبودية والهوان، وتلقى الإهانة بالصبر وطأطأة الرأس. الجبن عار، وتخاذل النفس عن المقاومة، مرض نفسى، يرجع إلى الخوف من الموت ﴿**وماتدرى نفس بأى أرض تموت**﴾. الجبن فخ ينصبه الدهر، يدفع إلى خيانة الأوطان، والكذب والنفاق.

ومن يهن يسهل الهوان عليه ∴ ما لجرح بميت إيلام

والمسلمون أبعد الناس عنه. فلكل أجل كتاب ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال، لولا أخرتنا إلى أجل قريب**﴾. الإقدام فى سبيل الحق سمة المؤمنين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مهمة العلماء دون خوف أو جبن. وفرقعة السيوف بغير فتك، والتبختر بلامة الحرب إبّان السلم من الأدلة على الجبن فى مواطن القتال. الجبن لا يغنى، والشجاعة لا تفقر فلم الجبن دون الشجاعة؟ لولا الوهم والجبن لما احتل الإنجليز الشرق. ولو أدرك الشرقيون قوتهم الطبيعية لا نكشف ضعف الإنجليز. ربح الإنجليز بالمكر والحيلة، وخسرت الأمة بالجبن والوهم. كان الإنجليز أمة مجتمعة القوة مستكملة العدد مستعدة للفتوحات، والشرقيون مغرقون فى حجب الجهل بالصنائع فأعدوا كل غريب معجزة، وكل بديع سحراً أو كرامة. فإذا انتهز الإنجليز الفرصة وسيطروا على الشرق، على الأمة إذن التحرر من الوهم والجبن وأن تعود كما كانت أسوداً تسترد المفقود وتحافظ على الموجود[1].

والوهم مثل الجهل ضد العقل والعلم. فما استحكم الجهل الا وتفرقت الكلمة. ووجود الجهل فى غياب العلم، وإذا وجد العلم غاب الجهل. وإذا خلا الميدان من العقلاء تسابق الجهلاء. وإذا ساد الجهال ساءت الأحوال. والجاهل الحى ميت، والعالم الميت حى. والعالم الفقير غنى بعلمه، والغنى الجاهل فقير بجهله. وانهزام

---

[1] الجبن، الأعمال ص ٣٧٤/٣٧١ خاطرات ٢٦٠-٢٥٨/٣٨٧/١٩٤.

العقلاء أما الجهلاء أولى من الظفربهم. وشر الأزمنة أن ينبح الجاهل ويسكت العاقل. فالجاهل أعلى صوتاً والعالم أكثر صمتاً[1].

والعلم هو العلم الواضح دون تطويل للمقدمات أو سقم للنتائج، ومع ذلك فالقياس منهج العلم. القياس هو البرهان وليس قال يقول، أقوال الناس. وإذا ما تعارض السماعى مع القياسى أى النقل مع العقل فإن فى أحدهما عوج أوانحراف. إذ لا يحق لأحدهما أن يمنع الآخر. فإذا ما جاز انحراف السمع فإنه لا يجوز أعوجاج العقل، ومن ثم فالعقل أساس النقل[2]. لذلك ينقد الأفغانى رجال الدين الذين أضاعوا حقائق الدين بين سوء معقولاتهم وعدم تفهم منقولاتهم.

والعلم هو العلم الحى وليس العلم الميت، العلم فى الراس وليس فى الكراس، العلم الشفاهى وليس العلم المدون، العلم فى القلب وليس العلم على اللسان. فالعلم الحى فى الصدر الحى. ومقبرة العلوم خزانات الكتب. كان مقر العلم فى الرأس والصدر ثم انحدر إلى الجبة والسطر. وأصبحت صورة العالم "**عمامة كالبرج وجبة كالخرج**". وكما أن عظمة الملك لا تكون بالتيجان فإن وقار العلم لايكون بالطيلسان"[3]. وينقد الأفغاني رجال الدين الذين يحللون ويحرمون بغير نص. وقد نهى الرسول عن ذلك. وكان قد رأى شيخا بعمامة كالبرج وجبة كالخرج أخذ بتلابيب رجل بجوار جامع الآستانة لأن لبس القميص حرام وكفر لأنه من صنع الأفرنج الكفار مع أن عمامة الشيخ وجبته من صنع الأفرنج. ولايستوى العالم والجاهل كما لا يستوى الملك والرعية والأمير والصعلوك وإلا لما نفع فى الشرق لسان أو قلب. والعلم نور داخلي. وعماء البصيرة أضر من عماء البصر. وكم من أعمى نبغ، حسده ويحسده المبصرون، وكم من أبكم بإشاراته أفصح من عيى بكلماته. ولذلك يتم الحجر شرعياً على الفرد السفيه[4].

---

[1] الأعمال ص ٢٤٢ خاطرات ص ٣٨٩/٣٩٠.

[2] خاطرات ص ٣٢٩-٣٦٣-٣٨٣/٣٦٩.

[3] خاطرات ص٣٨٨/٣٢٩ ص ٣٢٩/٣٦٣-٣٩٧٠.

[4] خاطرات ص ٣٩٤ / ١١.

والعلم للجهر والإعلان. فالصامت عن حقه محروم. وصاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته كان أولى بالخرس. وإن أكبر دليل على كبر الهمة مجاهرة المرء بمخالفته المألوف إذا تحقق بطلانه. ويكون التعبير عن الحق بلا اختصار مخل أوتطويل ممل. فقلة الكلام لا تكون فى الغالب دليلا على الكمال. وليس فى كل اختصار بلاغ. وفى نفس الوقت التكلف للسجع ينفر منه الطبع، ويحسن وقعه إذا جاء عفواً. وإن أحقر صناعة لنحات أنفع من تقعر النحاة. وأن أظهر الآداب وأليقهما بالعلماء والمتعلمين عدم قطع الحديث على المتكلم وتركه يتم ما يريد، أن يرويه من غير أن يسبقه إليه ولوكان من منسياته[1].

والعلم الصحيح نسب صحيح بل وراثة النبوة طبقاً للحديث المشهور "**العلماء ورثة الأنبياء**". العلم يتراكم حتى يحدث الوعى العلمى، والوحى يتوالى حتى يكتمل ويحقق غايته فى إعلان استقلال العقل وقدرته على الفهم واستغلال الإرادة وقدرتها على الحرية والاختيار. وكل دعوة تستند الى علم. فكثرة النصراء لداع أو لدعوة عن غير علم منهم بصحة الدعوى ذلة ومذلة. وقليل من النصراء لدعوة عن علم مكانة واستطالة[2].

والعلماء والعقلاء لا يصح أن يكونوا أكثرية فى محيطهم. وحكيمان عاقلان فى أمة مجموعها مليون خير من ألف متعاقل ومدعى حكمة فيها. ويقل العلماء حتى يكثر المتطفلون والمدعون. هنا يبدو الأفغانى من أنصار الأقلية المؤمنة والنخبة العالمة القادرة على قيادة المجتمع، نخبه العلماء والعقلاء والحكماء. فالعالم الحق يساوى نصف مليون من مجموعة الأمة. ومن ثم تكمن الخطورة فى مدعى العلم والحكمة والمتطفلين عليهما[3].وهى النظرة النخبوية الموروثة عن تاريخ الأنبياء والصحابة والحواريين والتى مازالت مسيطرة حتى الآن على الجماعات الإسلامية المعاصرة. ومع ذلك علماء العصر يظهرهم العصر، وقادة الأفكار تبرزهم الأخطار فى تفاعل جدلى بين القيادة والجمهور والعصر. والعلم هو العلم

---

[1] خاطرات ص ٣٨٨-٣٨٩/٢٤٢/٦٥-٦٧/٣٩١/٣٩٥-٣٩٦. الأعمال ص ٥٣٦-٥٣٧/٤٩٦.

[2] الأعمال ص ٢٤٢ خاطرات ص ٣٨٧/٣٨٩

[3] خاطرات ص ٣٨٩.

بالغاية. إذ ليس فى الإنسان عضو يتحرك لغير قصد وغاية. فكل حركة يعملها الإنسان لا يعلم غايتها يُحكم عليه بالجهل. العلم هو العلم بالعلة الغائية وليس بالعلة الفاعلة بالضرورة كما هو الحال فى العلم الطبيعى. العلم الإنسانى يتحدد بغاياته ومقاصده. العلة الغائية هى العلة الفاعلة بالحقيقة كما هو الحال عند إقبال وفشته. العلم على ما به من جمال لايرضى الإنسانية كل الارضاء لأنها تتعطش إلى مثل أعلى، وتحب التحليق فى الآفاق المظلمة التى لايستطيع الفلاسفة والعلماء ارتيادها[١].

وصحيح العلم والذل نقيضان لا يجتمعان لأن العلم يهب القوة والعزة. وصاحب القلم لايحتاج إلى عصا لأن علمه قوة. ولولم يتنازع الخلق على الحق لما كان ثمة باطل. فالعلم نضال بين الحق والباطل. وبعض الخلق يرضون بالموت خوف الموت، ويلبسون لباس الذل خوف الذل، فيموتون بالذل. ولكن بعض الشرقيين يرون الحقيقة مرارة، والوهم حلاوة، والذل هناء، وطلب العلا والعز الشقاء والعناء. وقد شكى إليه مرة رجل من الأدباء عدم صرف رواتبه فشجعه جمال الدين لأن الدخول فى باب الذل يثمر الذل. والشرق فى فقر لخوفه من الفقر، وفى موت لخوفه من الموت. فالذهاب إلى السلطان بمنطق الاستغناء، ومنطق الهمة ورفع الصوت أدعى لاسترداد الحقوق. والذل نتيجة للجبن الذى يقعد بالنفوس عن العمل، وينحدر بها إلى مناطق الزلل. فالجبن يوهن دعائم الملك، ويقطع روابط الأمم، ويوهن عزائم الملوك. فتنقلب العروش، وتضعف القلوب، وتسقط الصروح، وتغلق أبواب الخير، ويسّهل للنفوس احتمال المذلة، وتحمل العبودية. يُلبس النفس عارا وموتاً كل لحظة[٢].

والعلم تواضع، والعلماء أول المتواضعين. والمبتدىء فى أوليات العلوم يظن أنه تبحر فيها وانتهى. والراسخ المحقق يعتقد أنه مازال فى الابتداء. ومحدث النعمة بالمال يستعرضه فى كل مكان، ومحدث النعمة بالعلم يلقيه على كل إنسان. وقضايا الجهل فى الإنسان أكثر من قضايا علمه. وعمر الإنسان أقصر من أن ينله

---

[١] خاطرات ٣٨٨ الأعمال ص ٢١٠.

[٢] الأعمال ص ٢٢١/ ٢٢٦ خاطرات ٣٨٨/٣٨٩٠/ ٢٥٤-٢٥٧.

ما يجب أن يعلمه. والعلم قشور ولباب. فالواقف على القشور يغرق فى بحر الغرور. والمغرور من لايرضى إلا عن نفسه وعما يصدر عنه قولا كان أو عملاً. وطالما كثر الإدعاء المجرد بالصلاح والإصلاح عم الفساد وشمل. ولا تطيب نفس الإنسان بالتواضع إلا إذا علم بعض العلم. فالتواضع لا يعنى الجهل حقيقة أوادعاء. والإفراط فى التواضع دليل على الادعاء. ويدافع الأفغانى عن صديقه شبلى شميل وأتهامه بالغرور ويعتبره عزة نفس على عكس السوفسطائى قليل العلم ويطلب الاحترام ويضع النياشين ويدعى أبهة المنظر[١].

ويسترسل الأفغانى فى بيان بعض الرذائل التى يمحوها العلم مثل الحسد والنفاق. فأثقل الأعباء محاولة الحسود سترفضل المحسود. وكثيراً ما ينشأ النزاع بين العلماء لا بسبب العلم بل بسبب الحسد. فالاكفاء فى العصر لايكونون فى الغالب أصدقاء وكأن السماء لا تسع إلا لكوكب درى واحد. والنفاق ادعاء، وإيجاد من لا وجود له. والمعوج الظاهر من الناس أقل ضرراً من المتلبس بالاستقامة. ومن ظن أنه خدع الناس بالباطل يكون أول مخدوع. والعجيب أن المنافق لا يتصور أن الناس تراه. فهو كالأعمى الذى يظن أن جميع الناس بدون أبصار[٢].

وأخيراً يبرز الأفغانى ارتباط العلم بالعمل بطرق عديدة. يبدأ العمل بالمبادرة. فالعاقل من أعتقد بعجزه ثم سعى إلى العمل. والاعتماد على النفس والتوكل من أقوى عوامل الظفر. ومن فتح له الباب ولم يدخل كان أولى بالطرد. والعمل لايعنى فقط الجهد النظرى ولكنه يضم أيضاً العمل اليدوى. فأصغر صناعة لنحات أنفع من تقعر النحاة. وحمال الحطب للإتجار أنفع من حمار الذهب للادخار. ولاتنفع الحكمة أن لم يشفعها عمل. فطلاب الحكمة كثيرون ولكن ما أقل العاملين. ولاينفع القول إن لم يتبعه عمل. فالقائد من قاد بأفعاله لا بأوامره وأقواله. والأمير بأفعاله خير من الأمير بأمواله. وألف قول لا يساوى فى الميزان عملا واحداً. والعمل تحقيق لأمل. فالأمة أرضها الأمل وبنيانها العمل. والاستقلال أمل يتبعه عمل وحمل النفس على المكاره واقتحام المهالك والمصاعب. والحرية تؤخذ ولا

---

(١) الأعمال ص ٣٠٠ خاطرات ص ٣٨٨-٣٨٩/ ٣٩٥.

(٢) خاطرات ص ٣٩٤-٣٩٥.

تعطى والاستقلال لاينال بالأقوال. وإذا لم تتذرع الأمة بشكواها من ظالمها بغير الكلام فاحكم عليها بأنها أقل من الانعام. والعمل هو الطريق إلى جنة النعيم حاضراً أو مستقبلاً. فالنعيم والجحيم يتجليان للإنسان فى صور أعمال فيتنعم بالحسن منها ويتألم من القبيح. وقلماً يأتى الحق بدون عناء. فالعمل جهد ومشقة . لذلك كان الأنبياء من كبار العاملين. فمحمد نبى مرسل. وكان قبل النبوة أميناً صادقاً. لم يقتنع بأسود بيته، حمزة وعلى وأبطال قريش والانصار. بل شاركهم فى الحرب، وتكسرت ثناياه. وتخضب وجهه بالدم انتصاراً للحق ومقاومة الباطل. كان معلماً بنفسه لغيره بقوله وعمله. ويتخذ الأفغانى الرسول قدوة صائحاً فى المسلمين "**أين المسلمون اليوم من هذا الإقدام وتلك الهمة؟**" [1].

[1] خاطرات ص ٣٨٧-٣٩٤/٢٤٢/٣٨٩ الأعمال ص ٢٤٨/٢٦٥/٢٧٠.

الفصل الرابع

الأخلاق الفردية والاجتماعية

١- الفضائل الفردية

إن أهم ما يميز الإنسان على الحيوان هو الفضائل والأخلاق. فلا خير في إنسان يفضله الحيوان. فالإنسان حيوان أخلاقي. والأخلاق هي التي تدل على الإنسان وتعبر عن جوهره. فأنم شيء على الإنسان فضيلته ورذيلته[١]. وميسور على الإنسان فعل الأسود، وممتنع على الأسود عمل الإنسان. والإنسان مثل الحيوان قوة، والحيوان ليس كالانسان فضيلة.

ويفسر الأفغاني مقولتي الحسن والقبح تفسيراً أخلاقياً مثل المعتزلة القدماء، مشيراً بهما إلى الفضائل والرذائل. فالفضائل سجايا للنفس للتأليف والتوفيق كالسخاء والعفة والحياء. أما الرذائل فهي كيفيات خبيثة تعرض للأنفس، تحلل وتفرق كالقحة والبذاءة والسفه والبله والطيش والتهور والجبن والدناءة والجوع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق[٢].

والغريب أن الأفغاني يجعل الأحكام بالحسن أو بالقبح نسبية على عكس المعتزلة، مرتبطة بحالة الإنسان في الرضى والغضب. فمن الغرائب في طبائع الإنسان أنه إذا رضي استحسن القبيح واستسهل الصعب، وإذا غضب عكس الأمر فيستقبح الحسن ويستصعب السهل . فلو مزج الإنسان ساعة رضاه في ساعة غضبه لوقع على الهيئة المتوسطة وفاز بالفضيلة. فالحكم بالحسن والقبح يتبع الحالة الشعورية للإنسان. ولما كان الشعور في حالتين متعارضتين كما هو الحال في

---

[١] خاطرات ٣٨٧/٣٨٩٠/ الأعمال ص ٢٢١

[٢] الحسن والقبح، الأعمال ص ٣٧٦-٣٨٢ خاطرات ص ٣٩٥.

أحوال الصوفية فإن الإنسان يصدر حكماً فى حالة التوسط بينهما. وهى حالة افتراضية صرفة إذ إن الحكم الأخلاقى لا ينتظر هذه الحالة المتعادلة، ولايصدر طبقاً لهذه القسمة الحسابية. ويضرب الأفغانى المثل على نسبية الحقائق والأحكام بأن لكل خط طرفين، ولكل إنسان وجه وقفاً، وهما الفضيلة والرذيلة. الفضيلة وجهه، والرذيلة قفاه. لذلك يختلف الحكم على الاشخاص باختلاف الزمان والمكان والموقف وقصد القائل، مما يجعل الإنسان قادراً على الاقتناع بالشىء وضده فى موقفين مختلفين. ويؤصل الأفغانى هذه النسبية ـ على عكس ما هو شائع ـ فى حياة الرسول. فقد تعامل مع أبى سفيان بطريقتين: إذلاله بعبور جيش المسلمين أمامه، وإكرامه بعد الفتح لأنه من سادة قريش. وأثنى على تبختر أبى دجانة طالبا "قريش" للمبارزة، كما أثنى على الخل باعتباره نعم الأدم تطيبياً لقلب الفقير[١].

ثم يعدد الأفغانى بعض الرذائل وبعض الفضائل الفردية وآثارها على حياة الأفراد والجماعات. وربما تكرر البعض منها فى "**الرد على الدهريين**". منها الجبن والذل. فالجبن لا يغنى والشجاعة لا تفقر. والجبن أقبح عيوب الملوك. إذ يحتاج الملك الجبان إلى الصعلوك الشجاع وبالتالى يستمد الملك الجبان وجوده من الرعية الشجاعة. ومن ثم يكون الجبن والشجاعة نقيضين، الجبن من الرذائل والشجاعة من الفضائل. ومن دواعى الذل المسكنة، والسؤدد مع عزة النفس. وأصغر الناس من يطلب موت الناس ليحيا، وأعظمهم من يستميت ليحيا ولوواحد من الناس. فالحقارة أنانية، حياة الفرد ولومات الآخرون، والشهادة غيرية، موت الفرد ليحيا المجموع. والتسفل أيسر من الترفع لأن الترفع يحتاج إلى جهد ومعاناة وضبط للنفس. وساقط الهمة من علم موقع الفضيلة وصدق الدعوة ولم يبادر إليها بل ينتظر أن يكون تابعاً مقلداً لغيره فيهما. وخبث النفس من الرذائل. ومن خبثت نفسه لان ملمسه وكثر ختله وخداعه. ومن الرذائل الإسراف فى سوء استعمال الصحة. فإسراف الإنسان بصحته أضر من إسرافه بثروته. فالثروة تعوض، والصحة لاتعوض. ومن الأدواء

---

[١] الأعمال ص ٣٥٠ نسبية الحقائق والأحكام، الأعمال ص ٢٣٢-٢٥٣.

والأمراض ما هى عند أكثر الناس نعمة تفوق نعمة العافية. ومثال الأمراض النفسية جمع المال مع صعوبة التمتع به وتربية الأولاد ثم استطالتهم على الأبوين. ووباء الغرض أفتك من دواء الأمراض لأن فساد النية أخطر من فساد الجسد[1].

ويعد الأفغانى بعض الفضائل وهى عكس الرذائل مثل الشجاعة والجبن، والترفع والتسفل، والرفعة والذل، والقناعة والطمع، والأمل وطلب المجد فى مقابل سقوط الهمة. وتبدأ الفضائل بمحاسبة النفس أولاً، وأمر النفس بها قبل أمر الغير. لو يحاسب الإنسان نفسه كما يحاسب غيره لقل خطؤه وقرب من الكمال. ومن عجز عن إصلاح نفسه كيف يكون مصلحاً لغيره؟ وأقرب مواد العدل القياس على النفس، وعدم أمر الناس بالبر ونسيان النفس. والعاقل من مثل فى نفسه مثال ما استحسن من غيره، فالبداية بالنفس قبل البداية بالغير. والبداية بالنفس شىء طبيعى فى البشر نظراً لأن حب المحمدة هو الدافع لحسن الأخلاق. العالم الإنسانى كتاب مفتوح للنظر والقراءة، للعظة والاستبصار لكل ما خطه القدر الالهى. فأول ما يلاحظ نهضة الشعوب وانهيارها وتبدلها فى أطوار مختلفة. فمن الناس من يراها أحداثا بلا دلالات، ومنهم من يراها عظة وعبرة. والسبب فى ذلك أن الله قد أودع فى الإنسان ميلا وهو حب المحمدة الحقة، وحسن الذكر من وجوه الحق، ليس عن طريق الزور والغش والرياء. المحمدة غذاء روحى ومقوم نفسانى. ومن الفضائل التوسط وعدم الإسراف. فالانسان مسرف فى كل شىء. لذلك كثر بين الناس المفرطون وقل المعتدلون. ومن أعظم مجال الحكمة المحافظة على الهيئة المتوسطة. والفضائل بلاشك هيئات متوسطة بين خلتين ناقصتين. ومن الصعب وضع حد للعفة وحصرها بداية وانتهاء. فالعفيف فى الماديات مثلاً إذا عف عن أخذ ألف دينار كيف يكون موقفه عن المليون إذا عرض عليه؟ فالفضيلة تختلف كما كاختلافها كيفا. ومن يقطع اليد فى سرقة محفظة يترك من يسرق الملايين من

---

[1] خاطرات ص ١٨٧/٣٨٨-٣٨٩/٣٩٢/٣٩٦-٣٩٧ الأعمال ص ٢١٨/٢٢١/٥٣٩/٢٤٢ كم حكمة لله فى حب المحمدة الحقة، العروة ص ٢ ص ٦٤-٦٨.

ثروات الشعوب. وربما تكون القناعة أحد أسباب السعادة ولكن ليس لها حد معروف. ومع ذلك فان أول صفة رافقت الإنسان الأول هو الطمع وفيه العناء وليس له حد. والقناعة وفيها الهناء وحدها ممكن وهو الاكتفاء بالموجود وترك المتشوق للمفقود ولكن لا يعمل بها أحد [1].

وتتداخل القيم الأخلاقية مع القيم الدينية مثل الإيمان، وهو من أفعال الله كما هو الحال عند الاشاعرة. ومع ذلك ينقد الأفغانى ضعف الإيمان فى نفوس المسلمين وجعلهم مذبذين، مسلمين فى النهار، منقلبين فى الليل، سنيين وشيعيين، وهابيين وإباحيين. ومن القيم الدينية الأخلاقية الصبر والثبات. وهما فضليتان مثل باقى الفضائل الأخلاقية، الصدق والكرم والشجاعة. أثبتهما الشعراء مثل زهير والصوفية مثل الجنيد حتى لو كان على الرذائل مثل السرقة وقطع يد السارق ثم اليد الأخرى ثم الرجل الأخرى ثم الصلب لأن السارق ثبت على السرقة. الثبات يعنى التمسك بالطبيعة والفطرة ﴿**إنا خلقناهم من طين لازب**﴾ ، ﴿**أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير**﴾. والعجيب أن الأفغانى لايجعل فضيلة الصبر والثبات فقط على الخير، مثل الثبات فى الجهاد من أجل النصر فى مواجهة الجبن، فلا يهزم جيش يتحلى قائده بالصبر والثبات واقتحام الموت قبل الجنود ولكن أيضاً على الشر. بل إن الصبر فضيلة فى الطبيعة، فى النبات. فالقوى من الشجر لا يعجل بالثمر. ومن الفضائل الدينية الأخلاقية السعادة. فالسعادة فى الدنيا ضالة البشر. وإذا وجدها أحد قلما يدل عليها. وربما ليست من موجودات هذا العالم الفانى. يراها الأفغانى غاية قصوى يستأثربها الفرد وكأنها أنانية لايجوز تعميمها على الغير. ويعتبرها خارج هذا العالم كما يفعل الصوفية[2].

ثم تعود الفضائل من جديد أخلاقية مثل الشرف. والشرف ليس تشييد القصور ولا الفاخر من الثياب بل حقيقة محمودة، بهاء للشخص وكرامة له. وحقيقة

---

(1) الأعمال ص ٤٧١/٢٤٨/٢٦٥/٣٣٩ الدافع لحسن الأخلاق، الأعمال ص ٣٨٤-٣٨٧.

(2) خاطرات ١١ص١٣٥-١٣٧/٣٣٩ العروة جـ١ ص ١٠٥-١٠٦.

الأنفة وعزة النفس عدم الاتكال على الناس. والأمل وطلب المجد والعلوم يدفع الإنسان إلى العلا. ويبدأ الأفغانى بآيات قرآنية ﴿إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ ،﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾. ويحولها إلى تحليلات نفسية وتاريخية، فردية وجماعية لاثبات أن الوحى الإلهى والفطرة الإنسانية شىء واحد، فالأمل وطلب المجد شيء فطرى. ومحبة الشرف فى قلب الإنسان. والإنسان يسعى إلى المجد بالإلهام الإلهى ويواجه المخاطر لأجله. وكل أمة نالت مطلبها من المجد نالت حظها من السؤدد، ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾. الأمل ينير الطريق، ويبعث الهمم، ويعيد الحياة للأموات. الأمل وحب الكرامة طبيعيان فى الإنسان. ويعيد الأفغانى ذكر الآيتين الأوليين لبيان الوحى صاعدا من الطبيعة وكانه يبين أسباب النزول. اليأس ضد روح الإسلام وروح التاريخ ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾. وإن كانت للعامة غفلة فليس للعلماء عذر، ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾. فالراحة بالرضا، والنصب بالطموح. والغرب عالى الهمة يركب الأخطار وغيره من الفرنسيين الأحرار. فلماذا تقعد الشرقيين الأوهام الباطلة والأحلام الكاذبة وقد كان لهم فى اسلافهم سنة حسنة؟ [١].

وتمثل مجموع الفضائل الأخيرة استرداد الحق ورفع الظلم واستعمال القوة. فلذة استرداد الحق لا تضارعها الهيبة والتهيب. وأمة ثبتت فى جهادها لأخذ الحق ساعة خير لها من الحياة فى الذل إلى قيام الساعة. وصاحب الحق قوى ولو كان ضعيفاً، والمبطل ضعيف ولو كان قوياً[٢]. واسترداد الحق لرفع الظلم. ولا يكفى فى ذلك الكلام. واعتماد المظلوم على وعود الظالم بالكلام أقتل له من المدفع والحسام. وإذا لم تتذرع الأمة بشكواها من ظالميها بغير الكلام فاحكم عليها بأنها أضل من الأنعام. والظلم حق باق حتى ولو لم يسترد. المظلوم حى ولومات،

---

[١] خاطرات ١١/ص١٣٥-١٣٧ /٣٣٩ العروة جـ١ ص ١٠٥-١٠٦.

[٢] خاطرات تنازع البقاء، الأعمال ص ٢٤٣-٢٤٥/٥٣٩- ٢٢٦/٢٥٣/٣٨٨-٣٨٩ الأعمال ص ٣٨٩-٣٩٤/٢١٨.

والظالم ميت ولو عاش. المهم ألا يقع المنتصر للمظلوم فى شرك الظالم. وسجن الظالمين للمصلح رياضة، ونفيهم له سياحة، وقتلهم له شهادة وهى أسمى المراتب. ولا خير فى حق لا تدعمه القوة. وإن أضعف ما فى هذا العصر حق لضعيف لا قوة له. وأقوى شيء باطل لقوى يجعل باطله حقاً. القوة صنم مرهوب، والضعف شبح مربوب. ولا يؤمن بربوبية القوة إلا شبح الضعف. القوة قانون طبيعى، هو أساس تنازع البقاء. إذ تخضع الكائنات إلى ناموس عظيم هو القوة. وظهرت آثاره فى الحيوان والنبات والجماد والأفلاك. فلكل حركة اضطرارية تأتيها طوعاً أوكرها. القوة طريق استجلاب المنافع ودفع المضار. وتسمى أيضاً الجاذبية لحفظ نظام الكون. بالقوة يحيا النبات، ويجذب الغذاء، ويدافع عن نفسه باعضاء لافتراس الحشرات. وتظهر القوة فى عالم الحيوان. القوة مظهر الحياة والبقاء. والضعف يؤدى إلى الفناء. بالقوة تظهر المواليد، وبالضعف يبدأ الموت. القوة للذات تتطلب اضعاف الغير وتسخيره. لذلك لا تنال الأمم المهضومة حقها إلا بالقوة. فقد امتلكها الاستعمار بالقوة. استعمر الانجليز الهند لضعفها. وامتلك الإسبان المغرب بالقوة. والتحرر لا يكون إلا بالقوة. وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. ﴿**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**﴾ . وقلما يأتى الحق بدون عناء. والقبة الجوفاء لا ترجع إلا الصدى. والمصلح الزعيم من لا يفر ولا يتضعضع من أذية اللئام. والاسد لا يعدم فريسة أينما ذهب. ويبدو أن الأفغانى هنا أقرب إلى دارون وتنازع البقاء ونيتشه وإرادة القوة، وإن رد على الدهريين لأسباب دينية خالصة تتعلق بالخلق[1]

٢- فلسفة التربية

والتربية هى وسيلة الانتقال من الأخلاق الفردية إلى الأخلاق الاجتماعية. وترتبط فلسفة التربية بفلسفة الطبيعة وتدرجها من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان. وهنا يبدو الأفغانى أقرب إلى نظرية التطور منه إلى نقدها. فإذا توجه العقل إلى الأجسام الحية علم أن قوام حياتها بتفاعل عناصرها الداخلية دون غلبة أحدهما على

[1] خاطرات ص ٢٥٣/٣٩٥/٢٢١/٣١٦-٣١٩/٣٨٨.

الآخر من أجل، حدوث الوسط المتناسب أو التعادل بينها كما هو الحال عند القدماء. ووضعت علوم النبات والحيوان والطب لذلك لإعادة التوازن بين البسائط التى يتركب منها الجسم للوصول إلى حالة الاعتدال حتى تحقق حكمة الله فى بقاء الأنواع. وقد ارتبطت علوم الحياة بعضها ببعض، ولزم الطبيب معرفة علم النبات وعلم الحيوان. والروح الإنسانية تعمل بالتضاد من أجل خلق هذا المزاج المعتدل، وروح الكمال الإنسانى. وباجتماع أخلاق متضادة تقوم الأخلاق بالتعادل بينها. فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين التبذير والبخل كما قال القدماء. ويقع الفساد بتغلب أحد الضدين على الآخر. لذلك وضعت علوم التربية والتهذيب لهذه الغرض، المحافظة على فضائل النفس ضد الانحراف والتطرف مثل الطب، وعلاج الأرواح فى مقابل علاج الأبدان. وكما يعلم الطبيب منافع الأعضاء يعلم عالم الأرواح منافع الأخلاق ومضارها. وكما أن الطبيب يتصف بأخلاق الشفقة والرحمة كذلك المربون فضلاء لضرورة تطابق الفكر والعمل. وكما لايتخذ الطبيب الطب للوصول إلى أغراض شخصية كذلك المربى الناصح المرشد يقوم بتوجيه الأفراد نحو خدمة الأوطان والأقوام. هنا يبدو الأفغانى مثل القدماء فى التماثل بين طب الأجسام وطب الأرواح مثل الرازى والفارابى وابن سينا واخوان الصفا. ويقوم هذا الطب على العلة الغائية. فليس فى الإنسان عضو يتحرك لغير قصد وغاية. كل حركة يعملها الإنسان لا يعلم غايتها يحكم عليه بالجهل. القصد هو أساس النظام. فالنظام هو ما انتظم به شمل عالم متفرق يصرفه لوجهة ناقصة. والحجر خير من بشر يقعد لغير علة ويحتاج بشراً مثله[1].

والعلم هو طريق التربية والتحول من فضيلة للفرد إلى فضيلة للجماعة. فالعالم إن كان أعزلا فهو بعلمه اجتماعى، والجاهل وإن كان اجتماعيا فهو بجهله أعزل. وهو صادق على مصر وفى هذا الزمان، زمن تحرير الأرقاء وإسارة الأحرار. وتنهض الأمة ضد الوصايا عليها بإثبات كفاءتها وترقيتها بالعلم والأخذ بأسباب حكم ذاتها بذاتها. وهو ليس أمر سهلاً. العلم سلاح التحرر كما أن القوة أداة

---

[1] فلسفة التربية، الأعمال ص ٢٧٢-٢٧٦ ، خاطرات ص ٣٨٨-٣٨٩.

الاستعمار. وإذا كانت الدول حفاظاً على مستعمراتها تحظر إدخال الأسلحة حتى لا تستعمل ضد الاستعمار فإنها تحجر على العالم لأنه ليس أقل خطراً من إدخال السلاح إلى المستعمرات. فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح، وموت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم. والعكس صحيح أيضاً من أجل يقظة الشرقيين وحصولهم على الاستقلال بدأب متواصل، وهمة لا تفتر، وعزيمة لا تكل[١].

والعلم هو العلم الوطنى. إذ يمنع الغربيون الشرقيين بطرق خفية ترقيتهم لأنفسهم بطريقة وطنية خاصة بهم، ويعرقلون مساعيهم، ولايسهلون وسائل تهذيب أخلاق مجموعهم بل يقومون بالعكس. وبالتالى لا يمكنوهم من التوصل إلى الحكم الذاتى بأساليب المكر والمغالطة والاستعانة ببعض أهل البلاد عليهم من الأسقط همة. مدارس الحكومة بها سموم للوطن يمكن أغلاقها والتعويض عنها بالمدارس الأهلية. مدارس الحكومة لا تسلم من ضرر لما فها من علوم غير نافعة لايحتاجها المتعلم وفنون لا فائدة منها تترك التلميذ عليل الجسم والعقل، لا ينظر إلى كتاب، خيالياً، وهاماً، نفوراً من العمل، جامداً فيما تعلم، بليداً فيما يعمل. وتخشى المدارس الحكومية من المدارس الوطنية وحب الوطن لأنها تحت وصاية الأجانب حتى يظل الطلبة تحت الوصاية. وكلاهما مر. أما المدارس الأهلية الوطنية فهى التى تجمع بين العلم والوطن. فهى دور علم وعمل، ليس فقط داخل القاعات بل أيضاً خارجها لمزاولة العمل. كل علم بالعقل يتبعه عمل بالأعضاء. فيعمل الطالب بالحدادة والنجارة والبناء مع الرفاق، ويربى الحيوان، يحلب الأبقار، ويصنع الجبن، ويستخلص السمن والزبد مما ينفعه جسدياً، ويفيده ماديا بعد التخرج. هو رجل علم وعمل، لا رجل غطرسة وعجرفة وكسل، كَلٌّ على أهله، كُثْر لا ينتفع بهم أحد. ومن فاته سن التعلم من الرجال والكهول بالدروس يمكن للنوادى الوطنية والمحاضرات العامة أن تقوم بنفس الدور، وكذلك باختلاط أبناء الطوائف ومعرفة طرق النهوض بالوطن بالخطب والمثال الحسن والتذكير والتحذير اى بالنشاط

---

[١] فى التربية والتعليم، الأعمال ص ٢٧٨-٢٨٠ رأيه فى كيفية الوصول لرفع ما وقع وسيقع على الشرق وأهله من الحجر وخطورة ما يلزم ذلك من الأمر من الحكمة والتدبير وبيان وعورة المطلب، خاطرات ص ١٣١-١٣٢

الثقافي الوطني العام.والدين عبادات ومعاملات، العبادات للرب بمعزل عن الناس، لايعارض غيره ولا يعارضه غيره، لكل وجهة هو موليها، نصارى ومسلمين ويهود، من نفس واحدة. أما المعاملات فهي للعموم، المساواة في الوطن، والتعاون والتفاضل فيه، والعمل في المدرسة سويا والتخرج إخواناً مع الولاء للوطن والإخلاص له دون حل لرباط الوطن أونسيان عهد الصبا. هم في جسم الوطن كأعضاء الجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء كما هو الحال فى الحديث المشهور. سماء واحدة، وأرض واحدة، ووطن واحد، ولغة واحدة، ومقاصد واحدة. وواضح أن تصور الأفغاني للعمل هو الزراعة وليس الصناعة التى لم تكن قد ازدهرت في عصره. كما أن الزمن قد تغير من الدفاع عن التعليم الأهلي الوطني إلى تحول التعليم الأهلي إلى خاص أجنبي في عصر الخصخصة. ولا ينسى الأفغاني من التنويه بضرورة تربية المرأة من أجل حسن تربية الأطفال والصبيان. فالأمم تتعهد الطفل رضيعاً للكمال، الصحة والعقل، وترضعه حب الوطن مع التدرج في العلوم، وإفساح المجال للنور الفطرى ابعاداً له عن الكذب. وتحبيب العلم إليه وتمرينه عليه[1].

ويعطي الأفغاني عناية خاصة لموضوع المرأة . فالمرأة شريكة حياة الرجل. فإذا اتخذت المرأة لفضلها شريكة حياة نعمت الشركة وطابت الحياة. وإذا ما اتخذت لمحض الشهوات كانت شركاً للممات. المرأة عون الرجل، من صنع الأم، فكيف تترك هذه المنزلة؟ وإذا كانت حاجة الكون للرجل مرة فحاجته إلى المرأة كرة. ومع ذلك عاش الأفغاني أعزباً. وكلما اشتكى له أحد كثرة العيال وقلة المال قال "**وأثقلت ظهرى بالذى خلف ظهرى**" ومستشهدا بقول أبى العلاء :

هذا جناه أبى على ∴ وما جنيت على أحد

لم يتزوج الأفغاني لأن الزواج يتطلب العدل وهو مايعجز عنه. والطبيعة قادرة على التكيف. ومن ترك شيئاً عاش بدونه. يقوم الأفغاني بواجباته تجاه

---

(1) كيفية تربية الطفل الذى سيكون رجل المستقبل، وتكوّن من تكونه أمة صالحة تحكم نفسها بنفسها وتخلص من حجر الغرب، خاطرات ص ١١.

السلطان. أما الزواج بالجارية الحسناء فلها أكفاؤها. وإذا أصر السلطان على ذلك فالأفضل للأفغانى أن يكون خصياً ويقطع أعضاء التناسل، وكأنه عدو المرأة كما يقال على بعض المفكرين المعاصرين. وقد قل من الرجال من يعرف الهناء بغير النساء، وندر منهم من لا ينسب شقاءه اليهن. والأقرب إلى الصواب أن يقال فيهن ما يقال فى الأولاد : وجودهم بلاء وبلاهم بلاء! (١).

والموضوع الرئيسى الذى يتطرق إليه الأفغانى هو موضوع المساواة بين المرأة والرجل الذى طالما هاجم فيه المستشرقون والمتفرنجون الإسلام، بداية بموضوع السفور. فلا مانع من السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور. والحجاب له أنصاره وخصومه. وهو ستار إذا رفع فجأة تظهر شناعة الخلاعة والتبرج والفجور. أما السفور المعقول التدريجى فلا غبار عليه. وهنا يبدو الأفغانى انقلابياً ثوريا فى السياسة، تدريجياً فى التغير الاجتماعى. لذلك لابد من تحديد صريح للمعانى المطروقة مثل مساواة المرأة بالرجل والحجاب ورفعه حقوق المرأة والغاية المرجوة من ذلك حتى لا يتحول إلى هتك الحجاب وهو عند الأفغانى مثل هتك العرض.

والموضوع كله ناتج من تقليد الغرب من بعض الناشئة فى الشرق والمتفرنجين. فهم الذين يطالبون بمساواة المرأة بالرجل فى التكوين وهو مستحيل. فالمواهب الفطرية لا مجال فيها للاكتساب. والعلوم المكتسبة على نسب مختلفة. فهل تستطيع المرأة ذلك؟ ويستشهد الأفغانى بالمتنبى فى نقده للشرقيات المقلدات للغربيات ومدح أخلاق البداوة ونقد أخلاق الحضارة :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ∴ وفى البداوة حسن غير مجلوب

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها ∴ مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

---

(١) الأعمال ص ٢٦٥ ص ٣٥٠ – ٥٣١ خاطرات ص ٣٩ فى تكليف السلطان عبد الحميد أن يزوجه من أحدى جوارى قصره ورفضه وكلامه فى الحكمة الزوجية ومساواة المرأة بالرجال وضجة المستشرقين والمتفرنجين فى إعادة حقوق المرأة المهضومة، خاطرات ص ١٠ / ١٢١-١١٢.

وينتهى الأفغانى إلى أن المساواة بين المرأة مع الرجل ضد الطبيعة.إذ يقوم المجتمع على دعامتين : المرأة والرجل . ولكل منهما تكوينه الخاص طبقاً لعلم التشريح. وهذا من حكمة الطبيعة التى احكمت الصنع، فتبارك الله أحسن الخالقين. الرجل للعمل فى الخارج والمرأة للعمل فى الداخل. وهذا ليس رفعة من شأن الرجل أو حطة فى شأن المرأة . وإذا لم تساو الطبيعة بين الرجل والمرأة بالتكوين فعبثاً نحاول مساواتها بالأقاويل. وعمل واحد تختص وتقوم به النساء تعجز عنه رجال الغبراء. وقوة المرأة بضعفها. وتبلغ المرأة بضعفها ما لايبلغه الرجل بقوته. الموضوع إذن به سفسطة كبيرة بالمطالبة بمساواة المرأة بالرجل بالرغم من الفروق الطبيعية. ويستعمل الأفغانى نظرية التطور التى نقدها من قبل فى "**الرد على الدهريين**" مبيناً أن المرأة والرجل كانا فى مستوى واحد من التطور ثم سبق الرجل المرأة. وقوته أتته تدريجياً عبر العصور بعمله فى الخارج ومصارعته الحيوانات وعمله فى الأرض والحرب. ويذكر دعاة المساواة التاريخ، تاريخ مساواة المرأة بالرجل أيام الرومان، ويستلهمون عصر شيوع المرأة، وأن الولد لم يكن يعرف أباه بل كان ينسب إلى أمه. ولا يمكن الدعوة إلى ذاك اليوم. والتطور يخلق الأنسب والأنفع والأصح صناعة وأخلاقا واجتماعاً . انتقل الإنسان من العصر الحجرى إلى العصر الحديدى لمنفعته. ولا يمكن للتاريخ أن يرجع إلى الوراء . وقد ولّد شيوع النساء وعدم طهارة الأزواج الزنا والسفاح وما يسببه من أمراض. الدعوة إلى المساواة ضد حكمة الوجود وثنائية الرجل والمرأة كى يصبح فى الكون جنس واحد، رجلاً أو أمرأة، وتغيب الأم مربية الرجال. واجب المرأة فى البيت. وأهم واجباتها صناعة الرجل. المرأة هى التى تهىء الرجل للمجتمع، وهى أسمى مهمة للمرأة. قوة المرأة فى ضعفها، وفضل الرجل فى قوته وضعفه امام المرأة. والمساواة خروج على الفطرة والطبيعة. غاية التطور بقاء الأنواع. ومع ذلك يعتبر الأفغانى أن للهيئة الاجتماعية دعامتين : الرجل والمرأة. ولكن الرجل تطور وارتقى، والمرأة جمدت وتوقفت. ويجعل الرجل مسؤولا عن ذلك، يقتل مواهبها باسم الدين مرة، وباسم ضعفها الجسمانى مرة أخرى، مع أنهما فى البداية كانا

متساويين فى التكوين. الاستثناء الوحيد الذى يعترف به الأفغانى خروجاً على القاعدة هو عائشة وركوبها الجمل. ولايعتبر ذلك فخراً تتشبه به النساء. وقد تنبأ به الرسول وأدانه. أما ذهاب النساء إلى ساحات الحروب لخدمة الجيش فهو مستحسن إن لم يكن هناك زوج قعيد أو والد ووالدة وأطفال. فالجهاد فرض على كل مسلم ومسلمة. واستثنى منه المعيل، واشترط موافقة الوالدين. فخدمة الوالدين جهاد. فإذا لم يكن للجهاد مانع، زوج أو ابن أو أقارب كانت خدمتها فى الجيش حسنة.

كتب القتل والقتال علينا ∴ وعلى الغانيات جر الذيول[1]

ولا يشير الأفغانى إلى تعدد الزوجات ولكنه يرى استحالة عيش النساء فى بيت واحد لأن الفصل فى نزاع نساء البيت ينغص الحياة. وأن أعدل قضاء فى الدنيا يعجز عن إرضاء متخاصمتين من النساء على رجل واحد أو شىء. كما يتعرض لعلاقة الحماة بكنتها. فإذا كانت الأم تسعى وتتصور من وراء زواج ولدها النعيم فإن زوجته ترى نفسها فى الجحيم. ويوصى بعدم سكن الأولاد مع الآباء. فإن أعقل الآباء من لا يساكن أولاده بعد الزواج، ويستعيض بالتزاور عن التجاور. وهذه كلها آراء لها ما يشابهها فى القرن الماضى عن الغربيين خاصة فشته[2].

ويتعرض الأفغانى لبعض قضايا التربية الاجتماعية مثل الشباب والقضاة. فالشباب جسر من جنون لا غنى للعقلاء من المرور عليه. ومن الطبيعى للثائر أن يجعل الشباب فى مقدمة الثوار. فالثورة روح الشباب. ويركز الأفغانى فى على ضرورة إنصاف القضاة. فإذا لم تنصف الحكومة القضاة فأحرى بها أن تجعل الذئاب رعاة لأن إنصاف القاضى واجب قبل انصاف المتقاضى. وإذا كان القاضى يتظلم فكيف لا يتألم المظلوم؟ ونظراً لأهمية القاضى العادل يرى الأفغانى أن قاضياً فى الجنة وقاضيين فى النار[3].

---

(1) مركز المرأة فى المجتمع ، الأعمال ص ٥٢٤ - ٥٣١ خاطرات ص ٣٨٩-٣٩٠ ص ١٠٧-١٠٨.

(2) خاطرات ٣٨٥-٣٩٦ انظر دراستنا : المرأة للرجل : تصور المرأة عند فشته ، هاجر، كتاب المرأة، سيناء للنشر ، القاهرة ١٩٩٤ ص ٥٩ ـ ٧١.

(3) خاطرات ٣٩٢ - ٣٩٣ الأعمال ص ٣٢٦/ ٥٢٩.

٣- الفضائل الاجتماعية

وتبدأ الفضائل الاجتماعية بتجاوز الأنانية وحب الذات إلى الغيرية وإنكار الذات. تظهر الأنانية وحب الذات إذا ما ظهر اعتقاد النفس وكما لها ونقص الغير، والرضا عن النفس واحتقار الغير. فيضيع الاعتدال، ويختل التناسب مادام الخير في الذات والشرفي الغير. ويظهر ذلك في علاقة الآباء بالأبناء وحال المواطنين في مدينة واحدة، وحال الملوك والرعية، كل طرف يدعي أنه على حق، والآخر على باطل. بل إن الحكماء والعقلاء أيضاً وقعوا في ذلك، وظن كل حكيم أنه على صواب والآخرون على خطأ. فاختل ميزان النظر. وعادة ما يكون المحب للذات من أرذل الأخلاق واشنع الخصال، قاسياً ظاناً أنه رحيم، متكبراً واهما أنه متواضع، يصغر عيوبه ويكبّر عيوب الآخرين. هذا هو داء حب الذات. وهو غشاوة على العقل تمنعه من استطلاع الحقائق. وطريق الخلاص هو أن ينظر الإنسان إلى نفسه في مرآة غيره وليس في مرآة ذاته. فالإنسان جميل في مرآة ذاته، قبيح في مرآة غيره. خير الأخلاق إذن إنكار الذات. وأعظم الدلائل على إنكار الذات الأعمال. والإصلاح يبدأ بالنفس قبل الغير. ومن عجز عن إصلاح نفسه كيف يكون مصلحاً لغيره؟ الإنسان من وقر نفسه، وعرف حق غيره من جنسه.[1]

ثم تبدأ الفضائل الاجتماعية بعد تجاوز الأنانية إلى الغيرية. فالهيئات في الاجتماع، حكومية كانت أو غير حكومية إنما هي خليط من أفراد يقوم على مراعاة التشاكل والتجانس فيها وإلا فسد الخليط. وعدم التشاكل من أعقد المشاكل. ولكن بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة. فالأزمة تلد الهمة. وإذا ما تكونت الهيئة الاجتماعية سرت العدوى الاجتماعية أي الترابط الاجتماعي بين أفرادها. فالأجرب يعدي السليم، والمرتكب يعدي المستقيم[2].

---

[1] الأنا، الأعمال ص ٢-٤٠٧ خاطرات ص ٣٨٩-٣٩٠.

[2] الأعمال ٢ ٤٩٩ خاطرات ٢٤٨/٣٩٦/٢٩٤.

الفضائل مناط الوحدة الاجتماعية. ومجموعها العدل فى الأعمال. وهى قوة الحياة المستكملة فى كل عضو. فهى فضائل وسطية عضوية حيوية. وهى فضائل إجتماعية وسياسية. فالأمة التى تسودها الفضائل تقوى وتنهض لأنها تكون متحدة مجتمعة. يقوم كل فرد فيها بدوره، وتتمثل فضائل العقل والتروى وانطلاق الفكر بين قيود الأوهام والعفة والسخاء والقناعة والدماثة والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والإيثار والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والعفو والرفق، والمروءة والحمية، وحب العدالة والشفقة. فإذا تحلت أمة بها غلبت. لذلك قال النبى "**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**". فإذا تغيرت هذه الفضائل إلى نقائضها من رذائل هلكت الأمة ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾. فالرذائل تورث العداوة والبغضاء، والخلاف والشقاق. تقضى على الأمة، وتجعل البأس بينها شديد ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾. هذه علل الخراب. وقد ظهرت فى طائفة الدهيرومنك فى الهند المعروفين عند الأوروبيين بطائفة باريا ﴿**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم**﴾. فالفضائل والرذائل ليست فقط فردية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية بل هى أيضاً قوانين للتاريخ، لنهضة الشعوب وسقوطها. فحياة كل أمة بيدها. يبدأ التغير منها ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ . والشر من النفس ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**﴾. وتلك مهمة العلماء ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون**﴾، ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾. ووعد الله حق ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾. وإن لم يبدأ الأفغانى بآية قرآنية تغنى عن قانون التاريخ فإنه يضع هذا القانون بالعقل والتجربة.ثم يبدأ ببيان تجليات هذا القانون العام فى الأفراد والمجتمعات والتاريخ. ففى مقاله عن "الأنا" يبدأ بتعريف الممكن مع وضع مقدمات تنتهى إلى إثبات الموضوع وهو أن السعادة ممكنة التحقيق مثل الصحة للبدن التى تقوم على الاعتدال والتناسب كما تقوم العلاقات الدولية على المحافظة على الحقوق المتبادلة بينها[1].

---

[1] الحسن والقبيح، الأعمال ص ٣٧٦-٣٨٢ الأنا ص ٤٠٢-٤٠٧.

وأهم فضيلة اجتماعية هى الاشتراكية. وهـى نوعـان اشـتراكة غربيـة ماديـة تقـوم علـى الصـراع، واشـتراكية إسـلامية روحيـة تقـوم علـى المحبـة والإخـاء. الاشتراكية فى الغرب تؤدى إلى الضرر مثلما تؤدى إلى النفع لأنها تقوم على حاجة الانتقام من جور الحكام وعوامل الحسد فى العمـال مـن أصحـاب رؤوس الأمـوال، وكرد فعل على حياة البذخ والترف. فكل إفراط يؤدى إلى تفريط. وينتهى الأمر إلى فوضى فى الغرب تنتقل إلى الشرق . الشركة شرك. إذا لم يصطاد الشركاء غيرهم اصطادوا بعضهم[1].

أما اشتراكية الإسلام فإنها نابعة من الإسلام. عمل بهـا الخلفـاء. وهـى مـن متقضيات البداوة أى أنها محلية وليست وافدة من الغرب. اشـتهر بهـا حـاتم الطـائى فى السـنوات المجدبـة. ذبـح فرسـه لإطعـام إمـرأة وأطفالهـا الجيـاع. وتـبرع طلحـة الطلحات بسيفه وفرسه ورمحه وجهز ألف فارس. تظل الثروة مع الأفراد ولكن مع حسن استعمالها حتى تصبح الاشتراكية أمراً مقبولاً، لا أنانية ولا أثرة، لا استطالة على الفقير، ولا عدوانا على الغنى. وهى قائمة على القرآن، مساواة الجميع أمـام الله والحمد لله رب العالمين. وقد خاطب القرآن القادة والغزاة وأرباب القوة مؤكداً حق الجميع في الثروة ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن الله خمسه وللرسول ولـذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله ومـا أنزلنـا علـى عبدنـا يـوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير**﴾. فاللــه والرسـول وذو القربـى واليتامى والمساكين وابن السبيل لهم نصيب من المال. كما نقد القرآن اكتناز الذهب والفضة. وعقد الرسول الإخاء بين المهـاجرين والأنصـار، وأشـركهم فـى الأمـوال. وخير الأمور الوسط. والزكاة من أركان الإسلام بالإضافة إلى الغنـائم والصدقـات. وحرم الربا ﴿**الذين يأكلون الربا لايقومـون إلا كمـا يقـوم الـذى يتخبطـه الشـيطان مـن المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا. فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف، وأمره إلى الله. ومن عـاد فـأولئك أصحـاب النـار هـم فيهـا**

[1] الاشتراكية، الأعمال ص ٤١٤-٤٢٣ خاطرات ص ٣٩٥.

خالدون. يمحق الله الربا، ويربى الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم﴾. وأيضا ﴿يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. وحث الإسلام على الصدقات ﴿إن تبدوا الصدقات فنعمّا هى، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرلكم، ويكفر عنكم من سيئاتكم، والله بما تعملون خبير﴾، ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله﴾ وأيضاً ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾. والتفاوت فى الثروات يجلب الحسد كما قال زهير.

ومن يكُ ذافضلٍ ويبخل بفضله ∴ على قومه يستغن عنه ويذمم

وبالإضافة إلى تأصيل الأفغانى للاشتراكية فى الإسلام فإنه يؤصلها أيضاً فى البداوة والمساواة الطبيعية التى لا تقوم على الحسد أو الانتقام. ثم جاء الإسلام فجالس الرسول الفقراء وشاركهم فى الحياة العامة طبقاً للطبيعة البدوية. وسار أبو بكر على سنة الرسول مع أنه كان تاجراً غنياً ولكنه كان يعيش عيشة الفقراء. وسار عمر على أثره بالرغم من اتساع الفتوحات وازدياد الثروات. وراقب سير عماله، معاوية فى الشام، وعمرو وفى مصر، وغيره فى العراق. وحذرهم من سيرة الأكاسرة[1]. واضح أن تصور الأفغانى للاشتراكية أنها دينية فقهية، وأنها أخلاقية تطوعية تقوم على إعطاء الصدقات، وأنها سلمية تنبذ العنف والحقد، وأنها بدوية محلية تقوم على حياة الفطرة والمشاركة فى المجتمعات الأولية كما فعل كاوتسكى فى "المسحية البدائية". ويظل السؤال : هل يمكن من المبادىء الأخلاقية العامة تأسيس أيديولوجية اقتصادية متكاملة؟ وهل يمكن من هذه المبادىء العامة أن تتحول إلى ممارسة فعلية؟

ويجيب الأفغانى نفسه على بعض هذه التساؤلات جواباً على سؤال أحد الجالسين عن تكفير مشايخ الإسلام للاشتراكية بأن الاشتراكية وإن قل نصراؤها

---

[1] رأيه فى الاشتراكية (السوسيالست) وأنها لا تخالف الدين بل يقول بها، خاطرات ص ١١ ص ١٧٧-١٩٠.

اليوم فإنها ستسود العالم عندما يعم العلم الصحيح ويشعر البشر بأنهم أخوة، وأن التفاضل بالأنفع للمجموع وليس بالسلطان السياسى أو المالى أو العسكر. وإنما يحتاج الأمر إلى الشجاعة والبسالة والجهر بالحق كما قال المسيح "**بيتى بيت الصلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة للصوص**".

ثم تغير الأمر، وتبدلت الأحوال. وخاطب عمر بن الخطاب واليه عمرو بن العاص على مصر بأنه لم يقطعه مصر له ولقومه، وأنه يحيا حياة الأمراء بينما يموت باقى المسلمين جوعاً وقحطاً، يبنى القصور والدور وغيره فى العراء. وهدد معاوية فى الشام وحذره من غطرسة هرقل وتعاظم الاكاسرة. وطالبه بمشاركة الناس فى الأموال. وأعطى عمر النموذج والقدوة. فلبس مثل باقى المسلمين، وأكل وشرب وسكن مثلهم دون تململ أو تذمرمن أحد. ولما جاءت خلافة عثمان ثم الأمويون من بعده، تذمر الهاشميون خاصة والقرشيون وفى مقدمتهم أبناء الصديق والفاروق. فقد تغيرت الحياة الروحية فى الأمة، وقرب عثمان ذوى القربى وأرباب الثروة، طبقة فوق طبقة، أمراء وأشراف، فى ثروة وثراء وبذخ. ونشأت الطبقات الاجتماعية. فقام أبو ذر الغفارى وخاطب معاوية فى الشام وأمره برد الأموال إلى الفقراء. ورد معاوية بأنه يستحيل العودة إلى الوراء، إلى الصديق والفاروق. إنما الصدقات واجبة، والوعظ ضرورى لتخفيف حسد الفقراء للأغنياء. استمر أبو ذر فى النصح، وعاود مذكراً بسيرة السلف الصالح. فأرسل له معاوية ألف دينار ليلاً لامتحانه وشرائه فوزعها أبو ذر على الفقراء. فلما أراد معاوية استردادها لأنها أتت إلى أبى ذر خطأ أمره باستردادها من الفقراء. فلما علم معاوية صدق أبى ذر أرسله إلى الخليفة عثمان فى المدينة. ولكن أباذر استمر فى دفاعه عن الفقراء، وذكره بأحاديث الرسول إذا واصل التمييزبين الناس فى العطاء واستعلاء الأغنياء على الفقراء. ووجبت الهجرة على أبى ذر. فترك المدينة وفى قول آخر نفاه عثمان إلى الربذة.

وظل الأفغانى يركز على القيم الاجتماعية مثل المساواة دفاعاً عن الفقراء. فالفقر عدو الفضيلة، والثراء نصير الرذيلة. ولا فضيلة لفقير لأن الصراع من أجل البقاء يأتى أولاً. ولا فضيلة لغنى لأن الثراء يؤدى إلى الانحلال. الغنى غنى النفس، والفقرٰ فقر الروح. وكم من غنى محمود بمظهره فقير مقهور فى حقيقة أمره. ومع ذلك فالمال عصب الحياة. ووضع الحسب يستطيل بالقليل من المال على غيره[1].

ويتناول الأفغانى قيم الزراعة والصناعة والتجارة. فالزرع قيمة. ولولا الزرع ولولا القرع ما كان سرف الاغنياء ولاترف الأمراء. والصناعة قيمة. وموقف الزراع والصناع من الحضارة أنفع من موقف الإمارة. أما التجارة فهى فضيلة واحدة بصرف النظر عن المتاجر فيه. فبائع الدر وبائع الفحم يتساويان بالاسم ويختلفان بقدر المباع. والتجارة فضيلة إنسانية والهية. لذلك استعملها القرآن لشرح العلاقة بين الإنسان والله للمجتمع التجارى دون نقد أخلاق التجار كما يفعل ابن خلدون[2].

ثم ينتقل الأفغانى من الفضائل الاجتماعية والاقتصادية إلى الفضائل السياسية: النخبوية، والسلطة، والعدل، والديمقراطية، والأمة. فالنخبوية فضيلة. والحق مع الأقلية وليس مع الأكثرية دائماً أو على الأقل أحياناً. والدليل خروج الحق عما الفته الأكثرية، وقدرة الأقلية على تغييره. واعتناق الأكثرية المألوف أحياناً لا يفيد إذ يتحول إلى تقليد بلابرهان. وقد انتشرت الحقائق بأفراد قلائل، وقاومها المجموع. لم يتجرأ أحد على مقاومة جوبتر وانتهت ديانته. وموسى كفر بالوهية فرعون. وعيسى كان معه نفر قليل من الحواريين ضد مجموع اليهود. ومحمد آمن معه نفر قليل وقاومه الجموع، والملايين اليوم تدين باليهودية وبالمسيحية وبالاسلام. والسبب فى ذلك أن تعاليمهم جاءت موافقة لروح البشرية. هى حق فى ذاتها حتى ولو خالفت المألوف. وقد اعتنق المخالفون لهذه الديانات الثلاث هذه الديانات بعد ذلك بفضل الصمود للمؤمنين الأوائل. وكانت الدعوة

---

(1) الأعمال ص ٢٢١ خاطرات ٣٨٩.

(2) خاطرات ص ٣٩٥ الأعمال ص ٢٩٦ / ٢٤٨.

للحرية فى فرنسا من الأقلية، وسالت من أجلها الدماء. وكذلك كانت دعوى الاشتراكية وان قل أنصارها فإنها ستسود العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح وتسود البشرية روح الإخاء والمساواة. إنما يحتاج الأمر إلى الشجاعة والبسالة والجهر بالحق كما قال المسيح "**بيتى بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة للصوص**". وكسر محمد الأصنام، وأبى قبول الملك من قريش. وأصر موسى أمام فرعون على إخراج اليهود من مصر. الأقلية تعلن، والأكثرية تستجيب. والساكت عن الحق شيطان أخرس. ولايوجد فى هذا الكون من القول أو الفعل ما يستدعى الكتمان إلا ما كان فى علانيته مضر. الإعلان كمال للبشر، والكتمان نقص. ولاخير فى دولة تعتم عن أمتها أمورها. "**من أحب فليعلن**" . والمحبة معنى مطلق أى حب الخير والمعرفة للناس. حب الصدق الجهر به، وحب الكذب كتمان، وحب الخير إعلان عنه. والقبيح فقط هو الذى يتم التستر عليه. لذلك عرفت المروءة بأنها عدم العمل فى السر ما يستحى منه فى العلانية. ولما كانت الحاجة من حيث هى حاجة ذلا، والذل من حيث هو ذل قبيح فإن أقل الناس حوائج أكثرهم جهراً، وأكثرهم حوائج أكثرهم كتماناً. وقد كانت أقصى مطالب ديوجينيس وهو فى برميله الا يحول أحد بينه وبين الشمس كما طلب من الإسكندر. فالطبيعة ملك الجميع، والشمس تعلن عن أشعتها جهراً للجميع[1].

ثم يتناول الأفغانى قضية السلطة. فيميز بين السلطتين الزمنية والروحية أى السياسية والدينية ثم يوحد بينهما. إذا لا يستغنى البشر عن سلطتين زمنية وروحية. غايتهما واحدة، وجوهرها واحد، وأصلهما واحد. وإذا طرأ على أحدهما الخلل يعمل الآخر على إصلاحه. السلطة الزمنية، ملكاً أو سلطانا، تستمد قوتها من الأمة لقمع الشر وصيانة الحقوق العامة والخاصة، وتوفير الراحة للجميع، والسهر على الأمن، وإقامة العدل، ورعاية المنافع العامة. فإذا ما جهلت السلطة وعتت وفسدت فإنها تتحول إلى تسلط ، وتصبح مشيئة الملوك قانون المملكة. ومن هنا لزمت مقاومة الشعب لاسترداد إرادته وحريته يعد أن أكره عليها وإلا ظل الشعب كالانعام السائمة. والسلطة الروحية تعنى كل ما للدين من نفوذ معنوى. وهى قوة أحياناً

---

[1] الحق والأكثرية، الأعمال ص ٤٢٥-٤٢٧ الإعلان والكتمان ص ٥٣٦-٥٣٧ خاطرات ص ٦٥/١١-٦٧

أقوى من السلاطين والشرطة. هى القضاء العادل. تقف بالمرصاد للسلطة الزمنية، تراقبها وترشدها، وتقتص منها فى حالة انتهاك المحرمات وسفك الدماء. فإذا انحرفت تمت مقاومتها لا رجاعها إلى الصواب[1]. إذا سار الدين نحو غايته الشريفة حمدته السلطة الزمنية، وإذا سارت السلطة الزمنية نحو الغاية المقصودة وهى تحقيق العدل المطلق حمدتها السلطة الروحية. فلا تنافر بين السلطتين إلا إذا خرجت كل منهما عن أصلها وقصدها ومسارها. الدين رادع عن رضى فى السر، والسلطان وازع فى الجهر بالقهر، هذا هو الفرق بين الرقابتين، رقابة كل منهما على الآخر، الدين سراً، والسلطان علناً، الدين من الداخل، والسلطان من الخارج. الدين صوت الضمير، والسلطان صوت المصلحة العامة والأمن الجماعى. ولا فرق بين الأديان الثلاثة فيما ينفع المجموع البشرى، الخير المطلق ورفع الشر، دون أن يعلن الأفغانى أنه لا فرق ايضاً بين سلطة وسلطة. فالوظيفة واحدة، حماية الأمن وتحقيق المصلحة العامة. ثم يضرب المثل بضرورة السلطتين وتلازمهما بالجسم والروح. فكما لا يوجد جسم بلا روح، لا يوجد مجتمع بلا سلطة. ولكن القضية فى الروح. فالروح الإنسانية إما النبوة وإما الحكمة. النبوة منحة الهية يختص بها الله من يشاء من العباد، والثانية اكتساب بشرى بالنظر والفكر. الأولى لا تخطئ والثانية معرضة للخطأ. الأولى ملزمة الطاعة، والثانية ملزمة أيضاً عن طريق الأولى والأفضل بشرط عدم مخالفة الشرع. هذا هو جسم السعادة الإنسانية. وهى نفس ثنائية النبوة والحكمة عند القدماء. يحاول الأفغانى هنا أن يشق طريقاً بين السلفيين الذين يوحدون بين السطتين الدينية والسياسية، والعلمانيين الذين يفرقون بينهما. كل منهما رقيب على الآخر. إنما تختلف شكل الرقابة، داخلية فى الدين من وازع الضمير، وخارجية فى السياسة. وهى تفرقة أيضاً غير دقيقة. فالدين رقيب من الخارج عن طريق الحسبة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقضاء. والسياسة رقيب من الداخل عن طريق مباىء العدل والشورى كأساسين للملك. كما أن هذا الطريق الثالث لا ينتهى بالضرورة إلى السلام بين السلطتين. فما

---

[1] السلطتان الزمنية والروحية، الأعمال ص ٣٢٢-٣٢٤ خاطرات ٢٦-٣٠.

العمل إذا لم تطع إحدى السلطتين نصيحة السلطة الأخرى؟ ولمن تكون الغلبة فى حالة الصراع؟ ولمن يكون الحكم بينهما فى حالة الخلاف؟ ويبدو أن الأفغانى لا يتصور السلطة الدينية سلطة رجال الدين بل مجرد وازع أخلاقى داخلى. فلا توجد إلا سلطة واحدة فعلية هى السلطة السياسية. فالإيمان واليقين ليس معناهما عبادة رؤساء الدين. لذلك كثيراً ما ينقد الأفغانى رجال الدين ويعتبرهم مسؤولين عن انهيار الدولة وفساد السلطة السياسية. فإذا ما أمكن تحرير السلطة السياسية من سيطرة السلطة الدينية يلزم أيضاً تحرير السلطة السياسية من رجال الدولة وبطانة الملك. وكما أمكن تحرير الدين من رجال الدين كذلك يمكن تحرير السياسة من رجال السياسة، من دسائس البلاط وجماعات القهر السياسى داخل الدولة، من الوزراء أو المستشارين أو الشرطة والجيش أو الأجانب. ويبدأ الأفغانى بوضع قانون عقلى تجريبى عام مثل **"كيف يجب أن تكونوا"** وآية قرآنية تصديقاً لهذا القانون تأويلاً ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا، ودوا ما عنتم. قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر. قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون**﴾. وأحياناً يضع الآية القرآنية أولاً ثم يثنى بالقانون التاريخى تنزيلاً. ثم يشرح الأفغانى القانون والآية بأن البلاد تصان بحرس الملك والبروج والقلاع والجيوش والأسلحة. ولكنها لا تعمل بذاتها إلا من خلال البشر والرجال من ذوى التدبير والحزم والدراية، يقومون بشئون المملكة، ويوطدون الأمن، ويقيمون العدل، ويطبقون الشريعة، ويراقبون الممالك الأجنبية. ومن ثم يكون السؤال: كيف للحاكم أن يحصل على بطانة للمملكة من ذوى الرأى السديد كيف له بعقلاء رحماء، أباة أصفياء، لهم الشفقة والرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية من الأمة، على الفطرة، يرتبطون معاً برابطة الجنس أو الدين، فلا ينتقد مصرى سوريا أو سورى مصريا لانتمائهما معاً بعروبة واحدة؟ أما الأجانب الذين لا يرتبطون بهاتين الرابطتين الجنس أو الدين، فهم كالأجراء فى المملكة، لا يهمهم إلا استيفاء الأجر، ولا يبالون بعد ذلك إذا انهدم الملك أو قام. هذا إذا صدقوا فى الاعمال، يؤدون للدولة قدر ما يأخذون منها. لا يتشرف الأجنبى بشرف الأمة، ولا يمسه شىء مما

يمسها لأنه منفصل عنها. يعود إلى منبته إذا ما أصابها السوء، ويخدم غيرها. لا يحزن على خير فقدته، ولا يفرح لشر تجنبته، على فرض عدم وجود دوافع أخرى لديهم مثل الحقد والخديعة والتآمر. هذا حال الأجانب فى الممالك الإسلامية، يعتمدون على الغش والخيانة. ويثبت التاريخ أن الدولة التى تعتمد على الاجنبى لا تبقى. ودخول العنصر الاجنبى فى الدولة إيذان بخرابها. ويأسف الأفغانى على أمراء الشرق خاصة أمراء المسلمين الذين سلموا أمورهم إلى الاجانب يحمونهم، ويوالون الغرباء ويثقون بهم، مستشهدا بآيتين ﴿ **ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم**﴾، ﴿**إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وأن تصبكم سيئة يفرحوا بها**﴾. هذه سنة الله فى الكون[1]. وما يقال على الدولة يقال أيضاً على الجيش. فإن قبول الدخلاء والمتطوعة أى المرتزقة فى الجيش مفسدة للنظام ومن عوامل الانهزام[2].

والعدل اساس الملك. وهو من أشرف الصفات وأسمى الفضائل. يحفظ المجتمع الإنسانى، وعليه تقوم الممالك ويتأسس العمران. وهو وسط بين الجور والظلم من ناحية والخرق والتسيب من ناحية أخرى. ويلجأ الأفغانى هذه المرة إلى قانون التاريخ استقراء وليس إلى الآية القرآنية استنباطاً. فالتاريخ يشهد على أن دول المؤابيين والرومان والأشوريين والمصريين والتتار وحكامهم كانوا على نوعين: الأول فاتح لا يأبه إلا بالغنائم والقتل والغزو، اعصار ينتهى. والثانى يحكم بالعدل فيدوم الحكم ويبقى أثره مثل كسرى أنوشروان الذى كان عادلاً بالفطرة ومثل الفاروق الذى كتب إلى عمرو بن العاص "**أكسرى أعدل منا؟**". وأمره بهدم حائط مسجد بعد أن أخذه عنوة من يهودى وبغير رضاه بناء على حب العدل لذاته. فى حين أن أحد أجداد كسرى وهو أبرويز أحب فتاة فرفع الظلم عن قريتها، ليس حباً فى العدل بل حباً للفتاة . فانقضى العدل بانقضاء الغرض. وقد عدل المسلمون الفاتحون مع الرهبان والولدان والشيوخ وبناء على وصايا الصديق والفاروق والخلفاء الأمويين والعباسيين، بلا غرض أو غرور بل حباً للعدل فى ذاته. أما سلاطين آل عثمان فلقد فتحوا البلاد بدافع الغرور بما لديهم من قوة وبأس، وما

---

(1) رجال الدولة وبطانة الملك، الأعمال ص ٣٩٨-٤٠٠.

(2) الأعمال ص ٥/٨.

اعتقدوه رحمة وعدلاً. كان العدل عرضياً لا جوهرياً. لذلك سمح آل عثمان للأجانب كمترجمين بالتواجد في الدولة حتى تحكموا في البلاد واستطالوا على العباد، وصار الوطن محكوماً ذليلاً للأجنبى. إذا قتل اليونانى العثمانى انقذه القنصل كما كان معروفاً فى المحاكم المختلطة فى مصر إبان الاحتلال الإنجليزى، اعتبر الانجليز أنفسهم من طينة غير طينة الآدميين، ولا يجرؤون على مثل ذلك مع باقى الأوروبيين مثل البلجيك أو السويسريين والدانماركيين. هناك إذن فرق بين عدل يأتيه الفاتح عن علم وحب بإجراء العدل والأخذ به وبين ما يأتيه من غرور واتيان العدل لبواعث من خارجه. وأقرب موارد العدل القياس على النفس، وقبول للغير ما يقبله الإنسان لنفسه. بالعدل تتحقق المساواة والوفاق والوئام، وبالأثرة تتحقق الأنانية والنفرة والخصام. وكان الأفغانى يقسم بالعدل، **"وعزة الحق، وسر العدل"**[1].

ويقرن الأفغانى العدل بالقوة. فخير ما يحتاجه الشرق من الملوك القوى العادل. ولاخير فى العادل الضعيف كما أنه لاخير فى القوى الظالم. وهو الموقف الفقهى القديم فى الجمع بين العدل والقوة. والجبن أقبح عيوب الملوك لأن عيب الكبير كبير. ويحتاج الملك الجبان للصعلوك الشجاع. فالشجاعة قوة، والجبن ضعف. وعظمة الملك لا تكون بالتيجان بل بالقوة والعدل. ولكن أكثر أمراء الشرق إذا ألقى أحدهم فى أضيق جب من الاستعباد وحفظت له ألقابه الضخمة مجردة حسبها عرضها السموات والأرض، لأنه أصبح ألعوبة فى أيدى الأجنبى. ومع ذلك لا يكون الملك القائم على العدل والقوة مظهر رهبة من الناس. فمن رهب الملوك بغير جريرة فهو الصعلوك. ومهابة تصدر عن كرسى الحاكم لا عن عدله وفضائله أقرب للسخرية منها إلى الاحترام[2].

والحكم العادل القوى هو الحكم الديمقراطى. والتحول من التسلط إلى الديمقراطية سنة تاريخية وسنة الهية، لافرق بين قوانين التاريخ والآيات القرآنية. الحكم للعقل والعلم. وإذا ما تحول إلى جهل يظهر الحكم المتسلط. والتفرد بالسلطة

---

(1) العدل، الأعمال ص ٤٠٩-٤١٢/ ٣٩٢ خاطرات ٢٣٢-٢٣٦/٢٨٧.

(2) خاطرات ص ٣٨٩/٣٩٢/٨١-٨٣.

وسوق الأمم على هوى الفرد يزيل العالم ويحوله إلى خراب. والأمة التى لا تستشار فى مصالحها وليس لها حل ولا عقد فى إرادتها تكون خاضعة لحاكم واحد، وإرادته قانون، ومشيئته نظام. لا ينضبط لها سير، ولا تثبت للرجال، وتتأرجح بين السعادة والشقاء، بين العلم والجهل، بين الغنى والفقر، وبين العز والذل. فإن كان الحاكم حازم الرأى، رفيع الهمة، قويم الطبع، عدل السياسة صلحت الأمة. وإن كان سيء الطبع، سافل الهمة، خسيس النفس، فسدت الأمة. فساد الأمة بفساد حاكمها إذا كان الحكم فردياً. لذلك وجبت استشارة أهل الرأى. هنا يقترب الأفغانى من نظريته الشهيرة فى المستبد العادل، الذى يجمع بين العدل والقوة وإن ضحى بالشكل الديمقراطى. فقد لا يحكم قوم من غير قاهر من أهله وكأن الاستبداد طبيعى فى الحكام. وقد يعبر الأفغانى هنا عن عصر محمد على وبسمارك وقيصر روسيا وعصر الميكادو فى اليابان وربما عن نظرية الاستبداد الشرقى عند مونتسكيو. ولكنه يسخر فى النهاية من الجبروتية والفرعونية التى تساق بسياسة بقروتية. فالفرعون الجبار لا يسوق شعبه إلا بسياسة الأبقار. ويستشهد الأفغانى بتاريخ الغرب وصراعه من أجل الديمقراطية. فالبرغم من تجزئة الغرب واستقلال عناصره بميزات قومية إلا أن الغربيين تساووا نسبياً بينهم بالفضائل وأهمها العلم بالواجبات والحقوق، مالهم وماعليهم. فانتفى منهم التفرد بالسلطة وسوق الأمة على هوى السلطان. وسينتهى الحكم المطلق فى التاريخ تدريجياً طبقاً لمقتضيات الفطرة كما حدث فى الغرب. إذ تحكمه الشورى. وصارت كل أمة فى مأمن من أن تغزوها الدول المجاورة. ومتى ساد العلم فى أمة فإن أول ما تناهضه هو هذا الشكل الفردى فى الحكم وتعمل على التخلص منه. هذه سنة الله فى الكون ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾ . هنا تصدق الآية القرآنية قانون التاريخ، ويكون القانون تحقيقا لمناطها كما يقول الأصوليون. لذلك اشتمل القرآن على تدبير المالك وأصول الحكم الشورية ووظائف الملوك، والإشارات إلى مقدمات العلوم والفنون الحديثة[1].

وعلى هذا النحو يحتاج الملك إلى أمة أكثر مما تحتاج الأمة إلى ملك. فقد رأينا شعباً يعيش بدون ملك ولكن ما رأينا ملكا يعيش بدون شعب. ومع ذلك فسؤدد الأمة معقود بقادتها طالما وجد الاثنان، الشعب والملك. لذلك تحتجب الحقائق عن

---

[1] خاطرات ص ١٥١-١٥٥/٣٨٨ العروة حـ٢ ص ١١٠-١١٢ السياسة والعلوم فى القرآن، الأعمال ص٢٦٧-٢٧٠.

الملوك بقدر تحجبهم من الأمة. الملك هو العالم بأحوال شعبه وليس الذى يسكن فى قصره بمعزل عن الناس. والصراحة هى أساس العلاقة بين الحاكم والمحكوم منعا لازدواجية الخطاب والسلوك بينهما. يقول الحاكم ما لايفعل، ويؤيد المحكوم وهو لايرضى. والأمة التى تطعن حاكمها سراً وتعبده جهراً فإنها لا تستحق الحياة. والأمة بأفرادها. والشمم بالتجرد عن النفع الذاتى وطلبه فى النفع العام. فالفرد للجماعة والجماعة للفرد. وما مات أحد فى حب أمة إلا وأحبته. ومن أحب الحياة فإنه يموت فى سبيل حياة أمته. ومن طالب الموت فى سبيل حياة الوطن إما أن يموت بطلاً شهيداً وإما أن يعيش سيداً عزيزاً. ولا أمة بدون أخلاق، ولا أخلاق بدون عقيدة، ولاعقيدة بغير فهم. وخير موازين الأمم أخلاقها[1].

---

[1] الأعمال ٢٩٦/٤٧٥/٢٢٦/٢٤٨/٢٥٣ خاطرات ٣٩٥.

الفصل الخامس

الأنا والآخر

١- الأصالة والتقليد

وانتقالاً من الفلسفة النظرية إلى الممارسة العملية يضع الأفغانى ثنائيات الصراع بين الأنا والآخر التى تتجلى فى الأصالة والتقليد، والإسلام والنصرانية، والشرق والغرب. فالتقليد أيا كان اتجاهه يؤدى إلى سقوط الهمة والعجز. فساقط الهمة من علم الفضيلة وصدق الدعوة ولم يبادر إليهما بل ينتظر أن يكون تابعاً ومقلداً لغيره فيهما. والتقليد يرفض الدين، وليس مصدراً من مصادر العلم عند المتكلمين والفلاسفة والأصوليين. ومن قال إن الدين يأمر بالعسر دون اليسر بالضار دون النافع لمجرد التقليد والمألوف فهو كذاب. فالحقيقة لا تؤخذ إلا بالبرهان ولا يُحصل عليها بالتقليد. والطريق الصحيح للمعرفة، وهو البرهان، أضمن للمعرفة ذاتها بالتقليد. و لوكان لابد من تقليد خاصة بالنسبة للعامة، فتقليد نافع ثبتت منفعته أولى من تقليد مألوف ثبتت مضرته. فالنفع هنا شفيع لنقص الاجتهاد. ويظل التوازى قائماً بين الاجتهاد والتقليد، والمنفعة والضرر[١].

ويكون التقليد لجهتين، تقليد الغرب وتقليد القدماء. تقليد الغرب غالباً من الشباب، وتقليد القدماء غالباً من الشيوخ. يقلد الشباب الغرب بمجرد تعلمه لغته والتأدب بآدابه دون فهم لتجربة الغرب وتدرجها ومعناها. ويعتقد أن كل العيوب والرذائل ومظاهر الانحطاط ومعوقات التقدم فى قومه. فيسير فى تقليد الغرب، يجلّ الآخر، ويسفّه الأنا. يعطى الآخر أكثر مما يستحق، ويعطى الأنا أقل مما تستحق. يأنف من الاشتراك فى أى عمل وطنى، ويسارع بالاشتراك فى عمل الأجنبى ولوكان اسماً. يعيب كل شىء فى قومه، ويقدس كل شىء عند الغريب. يسهّل له

---

(١) خاطرات ص ٣٨٧/٣٩٤ الأعمال ص ٢٧٦.

مقاصده، ويطلعه على معايب قومه، ويساعده على أهله. وقد يصل الأمر إلى حد الخيانة للوطن واستعباد الغرب له، مؤثراً مصلحته الخاصة على مصلحة الجماعة. وسواء تم ذلك عن علم أو جهل فقد ابتلى الشرقيون بهذه العلة. والأزمة فى ازدياد حتى يستيقظوا عندما يصل الأمر إلى دين لا يتعبدون به، وتجارة دون مال أومجال، وفقدان الحرية الشخصية، ووقوع فى القهر والذل. ولافرق فى ذلك بين مسلم ومسيحى. فكلاهما فى التقليد سواء لأن التقليد موقف حضارى لا ينبع من دين أوطائفة. وقد يشعر المسيحى ببعض الميزة على المسلم فى تقلد الوظائف لمسيحيته ومعرفته باللسان الأجنبى فيقربه الأجانب ويوالوه. فيقع التنافر، وتحدث الفرقة فى الأمة. وكلاهما متساويان فى المذلة والهوان. والعجيب أن هذه الأمة التى وقعت فى تقليد الغرب كانت مبدعة فى ماضيها. أمة لم تكن شيئاً، وأصبحت كل شىء فى العلم والعمران، ودانت لها الشعوب والأقوام. ثم وهن البنيان، وضعف التعاون، وتقطعت الأوصال. ومن ثم فإن هذه الأمة فى حاجة إلى تربية جديدة حتى تبدع فى الحاضر كما أبدعت فى الماضى. ويضع الأفغانى قواعد لتربية الأمم لا عن طريق الجرائد الأجنبية بل عن طريق تعلم القراءة والكتابة لفهم الحياة الوطنية، وليس عن طريق إنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة على النموذج الأوروبى لحاجة ذلك إلى سلطان قوى بل عن طريق المدارس الأهلية القادرة على التعليم الوطنى. ولايتم ذلك تدريجياً بالضرورة لأن الأمة لاتعرف هذه العلوم الغريبة عنها ولاكيف بدأت وفى أى تربة نبتت. ويكفى نقلها كما فعل العثمانيون والمصريون لأنها ارتبطت بالبيئة التى نشأت فيها، وبنظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى. لذلك لم ينجح النقل من الخارج. وبدلا من التشدق بألفاظ الحرية والوطنية دون فهم لمعانيها يمكن البحث عن هذه المعانى أولاً والتعبير عنها بعديد من الالفاظ الموروثة أو الوافدة. ويمكن أيضاً تغيير عادات الشرقيين وقلب أوضاع المبانى والمساكن وتبديل هيئات المأكل والملبس والفرش والتنافس مع الأجنبى فيها بعادات أصيلة جديدة أكثر قدرة على مواجهة تحديات العصر. لكل أمة طورها الحضارى، ولا يمكن انتحال طور أمة

لأمة أخرى أو تقليدها كما حدث للأفغان من تقليد الإنجليز، فأصبحوا أعواناً لهم وامتداداً. ولايمكن النضال ضد الاستعمار بتقليد المستعمر بالرغم من مقولة ابن خلدون بأن المغلوب مولع بتقليد الغالب إما إحساسا بالنقص أمامه أو لمحاربته بسلاحه[1].

وقد يكون التقليد أيضاً للقدماء والأسلاف وهو الأقل شيوعاً عند الأفغانى. فتقليد الغرب أخطر من تقليد القديم الذى يمكن محاربته بضرورة الاجتهاد. ومن الطبيعى أن يقلد المسلمون آثارهم القديمة، آثار العرب والعجم المدفونة عند القدماء، الآثار العلمية والعملية، آثار الفتوحات والنهضة والعمران. ومع ذلك فالمسلم، عربياً كان أم أعجمياً، إنما يعجب بماضيه وتراث الإسلاف وهو فى أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف يجب أن يكون .

ليس الفتى من قال هذا أبى ∴ ولكن الفتى من قال ها أنذا[2]

ويأخذ الصراع بين الأصالة والتقليد شكل الصراع بين الأجداد والاحفاد. يعيب الأفغانى على الاحفاد عدم اتباع سنن النبى، والفخر بالثبات والصبر والاقدام والبسالة والاعتصام بحبل الله، ويدعوهم إلى استلهام الأجداد. ويستنفرهم للتمسك بالأصالة التى يرمز لها الأجداد. فللاحفاد حق فى ميراث الاجداد. وفى نفس الوقت يؤيد الأفغانى الشباب فى معركتهم ضد الشيوخ. فمن سفه الرأى أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمشيب فقط. وربما أفادت السنون تجارب ولكن الأقدمية لا تجدى الأفضلية غالباً. ليست الأفضلية بالعمر والزمن ولكن بالعمل. وتجربة العمر قد تكون أقل من علم الشباب. العلم قد يكون فى الأحداث ولكن التجارب لا تكون إلا فى الشيوخ. وبالرغم من أن كثيرا من الآباء يستميتون ليحيوا أبناءهم فقليل من الأبناء لا يستثقلون طول حياتهم ويستعجلون موتهم. فالآباء أكثر رحمة من الأبناء، والابناء أكثر قسوة على الآباء[3].

---

[1] الأصالة والتقليد، الأعمال ص ١٩٠-٢٠١.

[2] خاطرات ص ٢٨٩-٢٩٢/ ٣٨٧/٣٩٦ بين الأجداد والاحفاد، الأعمال ص ٢٠٤-٢٠٦/٢١٠/٣٨٢.

[3] قوله فى الناشئة الشرقية استحسانا واستهجانا، خاطرات ص ١٢-١٣.

والسبيل إلى تجاوز التقليد هو العودة إلى الأصول الأولى المبرأة من البدع، والتى تؤدى إلى الاتحاد ولم الشمل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة، والحث الفضائل. والدليل على ذلك تاريخ الأمة العربية ونبوغها العلمى فى الماضى بعد أن عرفت طب بقراط وجالينوس وهندسة اقليدس وهيئة بطليموس وحكمة أفلاطون وأرسطو. ودليل آخر اليابان الحديث. ليس صحيحاً أن اليابان قد ارتقت بتقليد الغربيين دون توسط الدين. فاليابان مثل الصين أخذت بالأفضل، تركوا الأوثان وأخذوا العلم، وقلدوا الغرب على نحو صحيح، وأقاموه على قواعد المدنية السليمة والمتفقة مع أخلاقهم وعاداتهم، ونبذوا ما كان مألوفا فى الغرب ولايوافق طباعهم. أخذوا بالتدريج والارتقاء، لا فرق بين ذكر وأنثى فى التربية على حب الوطن. لم تقم اليابان حضارتها على وثنيتها بل على العلوم الحديثة وعلى أخلاقها وآدابها. اليابان أمة شرقية مثل الصين ومصر تعتمد على العلم والعقل كما نص القرآن ﴿ومايعقلها إلا العالمون﴾ ، ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، وكما أوصى الحديث "**اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد**". ومما ساعد اليابان فى نهضتها العمرانية ميل الأمبراطور الميكادو (العادل) إلى تقييد الحكومة بالدستور وقبوله الشورى. فبعث البعثات إلى أوروبا لتعليم أسرته أشكال الحكم النيابى الدستورى وقواعده حتى تعجب أمبراطور النمسا من شدة رغبة امبراطور اليابان فى الحكم الدستورى النيابى، وهم يريدون التخلص منه فى الغرب. وذهب تعجبه عندما أخبره أمبراطور اليابان بأنه يقيم حياته على أربعة أشياء : بلاده، ورعيته، والعدل، وأخيراً احترامه لنفسه. ولاتتحقق هذه المبادىء الأربعة إلا بالحكم النيابى الدستورى. تعلمت اليابان أنه لا قوة مع الجهل، ولا ضعف مع العلم. فتحملت جور الغربيين، وأخذت بالتقليد الصحيح، وأرسلت البعثات إلى أوروبا بالمئات فى العلوم والفنون. وبعد ربع جيل انتظمت المحاكم وعم العلم، وانتشرت المدارس الوطنية، وأسست هيئات إجتماعية وقومية حديثة صحيحة دون تقليد للأفرنج. ورفعت التهم عن الشرقيين بأنهم لا يحسنون الإدارة أو معرفة الحقوق أو العدالة. استعملت

اليابان أولاً عدداً من الأخصائيين الاجانب ثم تفوق اليابانيون عليهم وأخرجوهم من بلادهم بعد أن أصبحت اليابان دولة شرقية متفتحة، مع أن مصدر شقاء باقى الشرقيين الامتيازات الأجنبية، والمحاكم المختلطة الأجنبية التى تحابى الأجنبى على الوطنى. والناس أبناء ما يحسنون. ولله فى خلقه شئون[1]. فواضح إعجاب الأفغانى بتجربة اليابان التى يقارنها بتجربة محمد على، الجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين الماضى والحاضر، بين العلم والحرية. ولايفصّل الصين كما يفصل اليابان.

والاجتهاد عند الأفغانى طريق التمسك بالأصالة والمعاصرة فى آن واحد، والبعد عن تقليد القدماء والمحدثين. الاجتهاد ضد التقليد. فباب الاجتهاد مفتوح. ولم يغلق باب الاجتهاد لانصا ولاعقلاً ولا واقعاً. وينكر الأفغانى كل قول يسد باب الاجتهاد. بل إن الاجتهاد عند الخلف أكثر منه عند السلف. فما أقل المجتهدين فى السلف وما أكثرهم فى الخلف. ويرفض قول القاضى عياض فى إحدى المسائل. فهذا اجتهاده الذى قد يؤدى إلى الجمود. ويحق لغيره ومن يأتى بعده أن يجتهد من جديد نظراً لتبدل الأزمان. فلماذا يقال باب الاجتهاد مسدود؟ وأى دليل نص أوعقلى او تاريخى يدل على ذلك؟ وأى أمام قال إنه لا ينبغى لأمر أن يجتهد بعده والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان؟ ولوعاش أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل اليوم لجددوا مذاهبهم القديمة طبقاً لظروف العصر. واجتهاد القدماء ما هو ألا قطرة من بحر **﴿وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾**. لقد نزل القرآن بلغة العرب **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾**، **﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾**، **﴿إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾**، وذلك من أجل أن يفهم وأن يعمل الإنسان بالعقل لتدبر معانيه وفهم احكامه ومقاصده. وفكر الأفغانى هو فكر شرعى يقوم على الاجتهاد عن طريق الالتحام المباشر بالواقع والتنظير المباشر له اعتماداً على روح الإسلام ومقاصد الشريعة وليس القياس الفقهى القديم الآلى الثابت، تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع

---

[1] الأعمال ص ١٩٨-٢٠١ أمثلة فى التقليد النافع، وضربه المثل دليلا بدولة اليابان الشرقية ، خاطرات ص ١٣ قوله فى الناشئة الشرقية استحساناً واستهجانا وأمثلته على التقليد النافع وضربه المثل بدولة اليابان الشرقية وذكره انجح الوسائل للنهوض من السقوط، خاطرات ص ٢٩٩ - ٣١٥.

لتشابه بينهما فى العلة. فالنص هو الوافع، والعلة مقاصد الشريعة، والفرع أحوال المسلمين من استعمار وقهر وتسلط وتخلف وتجزئة، والحكم هو النضال والثورة. يعتمد على المعقول والمنقول والمعاش. والاجتهاد مذكور بنص القرآن. ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ ، ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ . لقد أضر جمود بعض المستعلمين بالاسلام والمسلمين. لذلك يفتخر الأفغانى بصفات التعقل والتروى وانطلاق الفكر من الأوهام. نعم، فى الإمكان أبدع مما كان. وتعجز العين المجردة عن رؤية الاشباح والأجرام البعيدة، وتستعين بالمجاهر والنظارات. وإذا كان على مستوى الخلق ليس فى الإمكان إبداع مما كان فإنه على مستوى الصنعة هناك باستمرار فى الإمكان إبدع مما كان. والعصامى قد يكون لمن يخلفه عظاماً. والعظامى فقط قد يبقى وارثا للعظام[1].

٢- الإسلام والنصرانية

ويتجلى الصراع بين الأنا والآخر فى الإسلام والنصرانية أو الشرق والغرب أو التحرر والاستعمار أو السقوط والنهضة. ويبدأ الأفغانى بآية قرآنية ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ من أجل النظر فى التاريخ والإجابة على سؤال شكيب أرسلان تلميذه: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ ويبدأ بتقرير واقع حسى بديهى، أن الله خلق الإنسان عالماً صناعياً، ويسر له سبل العمل وهداه إلى الإبداع والاختراع، وقدرله الرزق من صنع يديه، يفلح الأرض ويرعى الحيوان، ويخيط الملابس، ويبنى المساكن تحقيقاً لفكره وإبداعه. ولولم يعمل ويجتهد لعاش عالة على غيره يستجدى العون. وهو فى فكره وعمله فى حاجة إلى من يرشده ويعلمه وهو الدين. فالدين مرشد للحياة. وتتنازع فى الإنسان صفتان متناقضتان : الشجاعة والجبن، الجزع والصبر، الكرم والبخل، القسوة واللين، العفة والشره، الكمال والنقص. لذلك احتاج إلى التربية منذ طفولته الأولى لتنشئة الإنسان على الفضائل دون الرذائل. وتبدأ فى الإنسان ثلاثة بواعث : الأ

---

[1] باب الاجتهاد مفتوح، الأعمال ص ٣٢٩-٣٣٠،ص ٥٣٠/٢٤٨ الرد على الدهريس ص ١٧٨- خاطرات ١١/١٦٥-١٦٧/٣٩١-٣٩٢/٣٩٦.

يرفعه نحو الأسرار الإلهية وبالتالى اكتشاف الدين، والثانى نحو الخواص الطبيعية وبالتالى اكتشاف العلم، والثالث نحو الحقائق الإنسانية وبالتالى اكتشاف العلوم الإنسانية. ويعتمد فى إشباع هذه البواعث على كل ما اختزن الآباء والأمهات والأقوام والمربون. أما التكوين البدنى فلا شأن له بالا ستعدادات الذهنية إلا قوة أوضعفاً. الاستعدادات موجودة بالطبع، ويختلف الناس فيها قوة وضعفاً، فطرة واكتسابا. قد يتفوق فيها السابقون على اللاحقين، وقد يتفوق فيها اللاحقون على السابقين. ويظل للروح سلطان على البدن والذهن كما يقضى بذلك العقلاء.

والدين وضع إلهى، والبشرهم الداعون إليه. تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين. فهو مكتسب لمن لم يخصهم الله بالوحى ومنقول لهم بالإبلاغ والدراسة والتعليم. وهو أول ما يمتزج بالقلوب، ويرسخ فى الأذهان، وتصطبغ به النفوس، وما ينتج عنه من عادات وممارسات بدنية، وعزائم وأدوات. فهو سلطان الروح ومرشدها لتدبير البدن وكأن الإنسان مجرد لوح أبيض ينقش عليه الدين أول ما ينقش. ولو خرج الإنسان على الدين لم يخرج عما تركه فيه من صفات. واضح أن الأفغانى يجعل تقدم النصرانية وتخلف الإسلام إنما هو راجع لقانون تاريخى، القدرة على السيطرة على العالم وإعادة تصنيعه بهدى الدين. وأن الإنسان به الخير والشر، ورسالته فى العالم تقتضى غلبة الخير على الشر. وأن الإنسان فى بواعثه إما يكون عالماً إلهياً أو عالماً طبيعياً أو عالماً إنسانياً. وهى مقدمة ضرورية للاجابة على سؤال تخلف المسلمين وتقدم النصارى وإرجاع ذلك للدين دون أن يطور ملاحظاته بأن النصارى تركوا الدين القديم وأخذوا دين العقل والعلم والانسان والطبيعة فتقدموا وأن المسلمين أخذوا الدين الشعائرى العقائدى الفقهى وتركوا الدين العقلانى العلمى الإنسانى الطبيعى فتخلفوا[1].

---

[1] النصرانية والإسلام وأهلهما، الأعمال ص ٢٨٢-٢٨٨ نظريته العامة فى الإسلام والمسلمين وأسباب ما الّمَ بهم من الانحطاط مع توفر ما فى الدين من دواعى النهوض وأسباب الرقى على عكس من نهض وليس فى دين ما يحمله عليه. وفيه من أخذ العدة والنهضة المنشودة فيهم وفلسفته بذلك خاطرات ص ٣٢٠-٣٢٨.

وقامت المسيحية على المسالمة والمياسرة فى كل شىء، ورفع القصاص، وطرح الملك والسلطة، ونبذ الدنيا وبهرجها. وأوصت بطاعة ملوك الدنيا وترك مالقيصر لقيصر وما لله لله، والابتعاد عن التنازع والاحقاد والأهواء كما هو الحال فى الوصايا على الجبل. هذا على مستوى النظر، وهى مبادىء صحيحة فى كل دين. أما على مستوى العمل فقد قام المسيحيون بعكس ذلك، التقاتل على الدنيا، والمفاخرة والمباهاة، ورغد العيش، والصراع بين الممالك، والتغلب على الأخطار. يبدعون فى فنون الحرب، ويستعملونها ضد بعضهم البعض وضد الغير، فانقلب المثال إلى ضده. وتحول المسيحيون إلى وثنيين، وبدلا من تطبيق محبة الجار طبقوا شريعة الغاب. وقام الإسلام على طلب الغلبة والشوكة والفتح والعزة، ورفض كل قانون يخالف شريعته، ونبذ كل سلطة لا تقوم على أساسه. فهم أهل قتال وحرب، وعلم وقوة، ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾. لذلك حرمت الشريعة المراهنة إلا فى السباق والرماية أى فى الفنون العسكرية. وهى مبادىء صحيحة للإسلام ولكل دين يبغى العزة لقومه فى الدنيا والنجاة فى الآخرة. أما على مستوى العمل فإنهم مستضعفون متخلفون مستعمرون أذلاء، فاقتهم الأمم الأخرى فى الفنون العكسرية وأصبحوا مقلدين لها. عاشوا تحت سلطة مخالفيهم، ورضخوا لهم. لقد اخترع أهل النصرانية مدافع الكروب والميترايوز وبندقية مارتين، وأحكموا الحصون، وأقاموا البواخر قبل المسلمين. وهنا تكمن المأساة، تحول النصارى إلى مسلمين فتقدموا، وتحول المسلمون إلى نصارى فتأخروا. كل فريق عمل عكس ما توحى به تعاليم دينه، فتقدم النصارى، وتخلف المسلمون.

ويتساءل الأفغانى: ألم ترسخ الديانتان فى قلوب الناس، هل نبذت كل ملة عقيدتها وكتبها المقدسة؟ هل تبدلت سنن الكون؟ هل طغت الابدان على الأرواح ؟ هل طغى الخيال على العقل؟ هل انقلب الناس على الدين وعصت النفوس؟ هل السبب اختلاف الأجناس مع أن البشر متقاربون وينتسبون إلى أصل واحد؟ هل السبب اختلاف الأقطار وطبائع البلدان؟ ولا يجيب الأفغانى على هذه التساؤلات

ولكن يعطى حجة تاريخية. فالتاريخ خير شاهد. فقد تمثل المسلمون الأوائل الإسلام فبهروا الأبصار. وانتصر العرب والفرس والترك بفضل الإسلام. وكانت للمسلمين فى الحروب الصليبية آلات نارية مثل المدافع أفزعت المسيحيين. وكان محمود الغزنوى يحارب الوثنيين فى الهند بالمدافع فهزمهم عام ٤٠٠هـ قبل أن يعرف النصارى عنها شيئاً. فلماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ تقدم النصارى ضد قواعد دينهم، وتخلف المسلمون ضد قواعد دينهم كذلك. كان سبب تقدم النصارى أنهم أبقوا على عادات وطبائع الرومان، وبقيت فى الاعماق. وجاءت النصرانية ولم تغيرهم فى شيء. بقيت النصرانية فى الكنائس والأديرة، خارج الحياة العامة. ثم شرّعوا الحروب الصليبية فانتهت النصرانية، وتزعزت العقائد، وعادوا كلهم إلى الوثنية التى نشأوا عليها. وأصبحوا مسيحيين فى الظاهر، وماديين فى الباطن. أما المسلمون فبعد تمثلهم الأول للإسلام وأصوله ظهر أقوام بلباس الدين، وأدخلوا فى أصوله ماليس منه. فانتشرت عقائد الجبر والاستكانة بالإضافة إلى ما أدخله الزنادقة والسوفسطائيون فى القرنين الثالث والرابع، ووضع الأحاديث المهبطة للعزائم. وتحول السم من الخاصة إلى العامة خاصة بعدا انحسار التعليم والتقصير فى الارشاد. ولم يبق الدين إلا عند خاصة الخاصة. ومع ذلك لو أصبح المسلمون مسلمين، أو عادوا إلى 'الأصول لخفت العوارض ومالحق بهم من تخلف فى التاريخ. هذه المقارنات بين المسلمين والنصارى تقوم على المرآة المزدوجة، قراءة الأنا فى مرآة الآخرو قراءة الآخر فى مرآة الأنا مع بيان أوجه التشابه والاختلاف بين التجربتين التاريخيتين كما فعل الطهطاوى فى "**تخليص الإبريز**" وكل أدب الرحلات الذى حاول "**علم الاستغراب**" تحويله إلى علم دقيق[1].

---

(١) الأعمال ص ٢٨٤-٢٨٨ أنظراً أيضاً دراستنا : جدل الأنا والآخر، قراءة فى تخليص الإبريز للطهطاوى، هموم الفكر والوطن جـ٢ دار قباء للطباعة، القاهرة ١٩٩٨ وأيضاً "مقدمة فى علم الاستغراب"، الدار الفنية القاهرة ١٩٩١.

وإذا كانت أوروبا قد وصلت إلى مبادىء الإسلام ومقاصد الشريعة بالعقل فإن أهل أوروبا يكونون مستعدين لقبول الإسلام إذا أحسنت الدعوة إليه. فالإسلام مقارنة بالديانات الأخرى يتسم بيسر العقائد وقرب تناولها. وأقرب الناس إليه الأمريكيون. فلا يوجد بين الإسلام وأمريكا عداوة كما هو الحال بين الإسلام وأوروبا. وقد تحققت نصف نبوءة الأفغانى، وانتشر الإسلام بين الأفريقيين الأمريكيين، الإسلام الأسود، وأصبح قوة مؤثرة فى حياة الأمريكيين فى الداخل والخارج بما يمثله من دعوة إلى الفضائل وسياسة خارجية لصالح الشعوب. ولم يتحقق النصف الآخر وهو تحول أمريكا إلى عدو للإسلام مع أوروبا خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والبحث عن عدو جديد. وقد لفت القرآن نظر الأفرنج إلى حسن الإسلام لأنه يدعوهم بلسانهم، العقل والتجربة. ولكنهم يرون سوء حال المسلمين فيتراجعون عن الإسلام. ومن ثم يكون السبيل إلى الدعوة إلى الإسلام، التغير العملى والتحقق بالإسلام . فالقرآن أول من دعى إلى الوصول إلى الحقائق بالبراهين الفلسفية والبحث عن العلل. وقد كان العرب فى الجاهلية لاشىء معهم. وبفضل القرآن ملكوا العالم، وفاقوا الأمم علما وصناعة، فلسفة وحضارة. وإذا استطاع القرآن ذلك قديماً فهو قادر على أن يصنعه اليوم. العيب فى المسلمين والتبعة على الأمة، الانصراف عن الأخذ بروح الإسلام والعمل بمعانيه ومضمونه، وانشغال المسلمين بالالفاظ والإعراب، والوقوف على الباب دون الدخول إلى المحراب. وكما لخص تلميذ الأفغانى القضية عند ما ذهب إلى الغرب فقال . رأيت إسلاماً بلا مسلمين، وعندنا مسلمون بلا إسلام[1].

٣- الشرق والغرب

الشرق والغرب أحد مظاهر ثنائيات الأنا والآخر على مستوى المواجهة وكما بدت فى الاستعمار الحديث. ويرسم الأفغانى صورتين للشرقى والغربى ويحدد معالمهما وخصائصهما التى تجعل الغربى يستعمر الشرقى، والشرقى يقبل استعمار الغربى. ويأخذ الإنجليزى نموذجاً للغربى. فالإنجليزى قليل الذكاء عظيم الثبات، كثير الطمع والجشع، عنود صبور متكبر، على عكس ما هو شائع من ذكاء

---

[1] أوروبا والإسلام ، الأعمال ص ٣٢٦-٣٢٧ انظر أيضاً دراستنا "مناهج التفسير ومصالح الأمة" فى الدين والثورة فى مصر، جـ٧ اليمين واليسار فى الفكر الدينى، مدبولى، القاهرة، ١٩٨٩ ص٧٧-١١٦.

العربى. وواضح أن هذه الصفات إرادية أكثر منها ذهنية، رومانية أكثر منها يونانية. ويأخذ العربى نموذجاً للشرقى. فالعربى او الشرقى على عكس الإنجليزى كثير الذكاء، عديم الثبات، قنوع جزوع، قليل الصبر متواضع. فواضح أن صفات الشرقى هى العكس، صفات ذهنية، وعيبه ضعف الإرادة وجزعه وعدم ثباته وصبره ونقص طموحه. فكان من الطبيعى أن يستعمر الغربى الشرقى بهذه الصفات المتباينة. فالاستعمار إرادة بلا عقل . كما يثبت الإنجليزى على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره، والشرقى لا يثبت على الصواب ولا على طلبه. فيفوز الإنجليزى على العربى بفضيلة الثبات، ويخسر العربى أو الشرقى كل حق لرذيلة التلون والتردد وقلة الثبات وعدم الصبر. استعمر الغربى الشرقى لثبات الغربى وتردد الشرقى وهى صفة أيضاً من صفات الإرادة إيجاباً وسلباً.والأفغانى يعيش فى عصر نيتشه، وتوفى قبله بثلاثة أعوام. وما أكثرما ورد فى القرآن من ذكر للصبر ﴿اصبروا وصابروا﴾ ، ﴿والذين صبروا﴾، ﴿ولو أنهم صبروا﴾ ، ﴿وبشر الصابرين﴾. والأمة العربية خاصة والمسلمون عامة أحوج ما تكون إلى الصبر والثبات. يستهويها الوعد الكاذب وترضى به ولاتصبر على الوعد الصادق، وتخسر فى الحالتين. فالأفغانى لا يشخص الداء ولكنه يشير إلى الدواء. وربما تغير الأمر الآن بعدما أصبح الصبر داء لا دواء.

والمصريون خاصة والشرقيون عامة فى لقائهم مع الإنجليز أو الغرب مثل رجل مثر ترك من الأموال والأملاك وخلفه ورثة سفهاء مبذرين. لذلك قضت الشريعة بالحجر على الوارث. وهذا الوصى هو الغرب. وفرق بين حجر الشريعة الذى يمكن أن يرفع وبين وصاية الغرب الباقية إلى الأبد فتتحول إلى استعمار وتملك واستعباد. ويتخذ الغرب ذريعة حفظ حقوق السلطان أو اخماد فتنة ضد الأمير أو إنقاذ نصوص الفرامين أى صكوك الدائنين أو حماية حقوق المسيحيين أوالأقليات أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم أو دفاعا عن حرية الشعوب المقهورة أوتعليم أصول الاستقلال أو إعطاء الشعب حقوقه تدريجياً من الحكم الذاتى أو إغناء الشعب الفقير بالاشراف على موارد ثروته. ويصدق الشرقى هذه الدعوى كما قال الشاعر.

مازال يغدق آلاء ويشفعها ∴ بما يفوق أمانى النفس بالعظم

فيطيع الشرقى الغربى منتظراً تحقيق الوعود. والغربى نفسه يعتبر الشرقى خاملا جاهلا متعصباً. أراضيه خصبة، ومعادنه كثيرة، ومشاريعه كبيرة، وهواؤه معتدل. والغربى أولى بالتمتع بكل هذا عن الشرقى، ويضع خطة للاستيلاء عليه. فالبقاء للأصلح. ويستعمل لذلك عدة أساليب منها : اقصاء كل وطنى يمكن أن يجهر بمطالب وطنية، تقريب الاسقط همة، والأبعد عن المطالبة بالحق، تفريق البلاد طوائف وشيعاً، وايثار واحدة على الأخرى حتى يقع الشقاق بينهما، ويتقارب كل منهما للأجنبى طالبا العون والتأييد ضد الطوائف الأخرى[1].

ولا يتم مطلب الاستقلال الا بترقية النفس بالعلم الصحيح، والوقوف على مواطن الضعف، ومعرفه الواجبات، وكيفية تحقيق الهدف، واقتصاص الضعيف من القوى، واتفاق الكلمة، وجمع الأهواء. نهض الغرب بالعلم والعمل، وانحط الشرق بالجهل والكسل. الداء دفين فى جسم الشرق يجب معرفته قبل طالب الدواء. والدواء هو العزة كما قال الشاعر :

عش عزيزاً أومت وأنت كريم .·. بين طعن القنا وخفق البنود

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى .·. حتى يراق على جوانبه الدم

وهو دواء أخذه الغربيون فحقق لهم العظمة والاستعلاء. ووجده الشرقيون مراً فطرحوه جانباً كما قال الشاعر :

ولايقيم على ذل يراد به   إلا الأذلان عير الحى والوتد

والأديب فى الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً، بينما الأدباء فى حياتهم أفقر الفقراء فإذا هم بعد الموت يصيرون بالرثاء وحفلات التأبين أغنى الأغنياء. فلا يلتفت إلى عظمائه إلا بعد مماتهم.

---

[1] العرب والشرق، الأعمال ص ٤٥٣-٤٥٨ رأيه فى الأنكليز ووصفه الأنكليزى والعربى وفلسفته فى الحجر الشرعى على الفرد السفيه وشكل تطبيقه اليوم على أهل الشرق من الغربيين، خاطرات ص ٣٩٤/١٢٢.

الشرق فى حاجة إلى عمل جديد، وجيل جديد، وعلم صحيح، وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان على الأجساد والأرواح وهو الدين، وجمع شتات أهل الأديان، وقبول الموت فى سبيل الحياة، حياة الوطن. وقد تأسست جمعيات أهلية لتكوين جيل جديد لايقرع باب السلطان ولاتضعف إرادته، ولاتهن عزيمته، ولايغريهم الوعد بالمنصب، ولاتلههم تجارة أومكسب، وارتياد المكاره لنجاة الوطن. ويؤول الأفغانى حديث الرسول "**اشتدى أزمة تنفرجى**" بأن الأزمة هى تلك الهمة التى يستثيرها فى الشرقيين، وهى سنة الله فى الخلق وأداة تحريك التاريخ كما قال الشاعر:

ومهما ادلهم الخطب لابد أن ينجلى ∴ وأظلمت الدنيا فلابد من فجر

هذه الهمة هى التى خلقت مجد الأقدمين فى العراق والشام والاندلس ضد روح اليأس والقنوط. لقد حاول الغرب أضعاف لغة الشرقيين والتدرج بقتل التعليم القومى، وتشجيع احتقار اللسان القومى، وإيهامه بعجزه عن الإبداع الأوروبى حتى ينفر الشرقى من لغته وآدابه ويقع فى الرطانة الأعجمية واستجداء المناصب من الغربيين. ويمكن مواجهة ذلك بتعليم وطنى، تكون بدايته الوطن، ووسيلته الوطن، وغايته الوطن.

لاينفع فى الشرق لسان ولاقلب طالما خلق المالك والمملوك، الأمير والصعلوك، العالم والجاهل سواء فى العالم الصورى قبل الخلق المادى، وطالما يرى الشرقيون فى الحقيقة مرارة، وفى الوهن حلاوة، وفى الذل هناء، وفى طلب العلا والعز الشقاء والعناء. المشكلة فى الشرق إذن مشكلة سياسية، السيد والعبد، الراعى والرعية. وطالما لا يتم القضاء على هذه الثنائية، ثنائية الأعلى والأدنى، التصور الرأسى للعالم، الاستبداد الشرقى ينتهى كل إصلاح فى الشرق إلى طريق مسدود. ويظل الشرقيون ضحية الوهم، ويعوج الشرقى باعوجاج حاكمه، ويستقيم إذا استقام. لذلك لا ينطبق على الشرقيين "**مثلما تكونوا يولّ عليكم**" بل ينطبق عليهم "**مثلما يولّ عليكم**

تكونوا" ليس الحاكم من نوع المحكوم، بل المحكوم من نوع الحاكم. الأول طريق الديموقراطية والشورى، والثانى طريق الدكتاتورية والتسلط والقهر[1]. وكما لاحظ ابن خلدون من قبل أن المغلوب مولع بتقليد الغالب.

ولهذا التقابل بين الشرق والغرب طمع الغرب فى الشرق. وامتدت مطامع الغرب إلى عموم دول الشرق. وأصبحت ممالك الشرق وأهله مهددة بأن يكون مصيرها مثل مصير مصر والاحتلال. والاحتلال سبب الفوضى وارتكاب المنكرات والتعدى والسرقات. فالشراك منصوبة والسقوط قريب إلا إذا نهضت الأمم الشرقية ووحدت كلمتها ونشطت عقولها وعمل أولو العزم، وحفظت أسباب الملك، ومقومات الحرية والاستقلال. وشر أدواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد، واتحادهم عل الاختلاف. وبعد تقسيم الدولة العثمانية إلى عشر خديويات، لكل منها استقلالها الذاتى فى نظام لا مركزى، تطالب إيران وأفغنستان والهند الآن بالاعتماد على السلطنة حماية لها من مطامع الغرب وحتى يعود الشرق للشرقيين. كان هدف الافغانى اذن إيقاظ المسلمين والشرقيين بالحجج والبراهين وإظهار فظائع حكمهم ليبين لهم أسباب الاستعباد والذل والمهانة لمن لم يسقط بعد من ممالك الشرق فى براثن الاستعمار أو ليؤجل سقوطه ويلم شمله. ولكن انهيار ممالك الشرق كان لايمكن إيقافه وهو فى الانحدار لبعده عن الدين. والمسكنات لا تغنى عن المرض والموت، وموت الأموات خير من ميت الأحياء، وكأن الأفغانى هنا مع حتمية التاريخ فى السقوط والنهضة.

ليس من مات فاستراح بميت ∴ إنما الميت ميت الأحياء

وبسبب هذا الطمع، وهو الباعث الأخلاقى على نشأة الاستعمار، وسع الأوربيون ممالكهم، وتفننوا فى ذلك بالحرب والقتال والغزو أو بالدهاء والحكمة

---

[1] الأعمال ص ٣٥٣/ ١٩٠/٢٣٩ -٢٤٢ خاطرات ٣٩٦.

واللين والخديعة. وقد أدى كلاهما إلى الاستعمار، وتحويل ممالك الشرق إلى مستعمرات، وحكامه إلى مستعمرين. ولفظ "الاستعمار" من الاضداد فإنه يعنى الأعمار والتعمير حسب الاشتقاق ولكنه فى الواقع يعنى التخريب والاسترقاق والاستعباد. ولا تستعمر إلا البلاد الغنية فى ثرواتها ومعادنها وتربتها لجهل أهلها وخمولهم. ولاتنفع المقاومة الضئيلة أمام المعدات الحديثة. وقد يدخل الاستعمار بلعبة حربية، انتصاراً لأمير أو تثبيتاً لملك أو قمعا لثورة وبدعوى الصداقة وحب الشعب ورقيه. الاستعمار تسلط دول وشعوب قوية على دول وشعوب ضعيفة وجاهلة. فالقوة والعلم أسباب حركة الشعوب والتاريخ إلى مناطق الضعف والجهل. فهو قانون تاريخى ثابت. والدول تخضع لقانون الحياة، القيام والسقوط، النهضة والانهيار، وهى قوانين الحياة والموت. الضعيف يخشى من القوى ويرهبه، والقوى يستذل الضعيف ويستعبده. استعمر الإنجليز الأمركيين، فقام الأمريكيون بثورة ضد الانجليز، وتحرروا من الاستعمار دون اللجوء إلى الشكوى. وقاد استقلالهم جورج واشنجطن طبقاً لقول الشاعر :

السيف أصدق أنباء من الكتب ∴ فى حده الحد بين الجد واللعب

كما استقلت ولايات العثمانيين، اليونان والعرب والجبل الأسود وبلغاريا ورومانيا وهى دويلات صغيرة مدافعة عن الحرية والاستقلال. لا يفرق الأفغانى إذن بين استعمار إنجلترا لأمريكا واستعمار الأتراك لدول شرق أوروبا، ويأخذ صف المستعمَرين حتى ولو كانوا من النصارى ضد المستعمِرين حتى ولوكانوا من المسلمين. لم يكن حضور آل عثمان فى دول البلقان حضور الفاتحين المسلمين الأوائل، حضور العدل والحرية والمساواة والتعريب بل كان حضور المستعمر الأجنبى، حضور الظلم والقهر والاستغلال والتتريك[1].

---

[1] الاستعمار، الأعمال ص ٤٤٧-٤٥١ رأيه فى المستعمرات والمستعمرين وأن الاستعمار لأى دولة مهما تعاظمت قوة واقتداراً، فمستعمراتها أن هى إلا أثواب عارية قابلة للاسترداد والأدلة على ذلك، خاطرات ص ١٢ أن الغربيين ساعون بالمطامع نحو الشرق، ورأيه فى كيفية الوصول لرفع ما وقع وسيقع على الشرق وأهله من الحجر، وخطر ما ما يلزم ذلك الأمر من الحكمة والتدبير ووعورة المطلب، خاطرات ص ١١.

ويحلل الأفغانى بمزيد من التفصيل وكثير من التكرار وعدم الترتيب سياسة انكلترا فى الشرق واستعمارها لمصر والهند والسودان وقمعها لثورة عرابى فى مصر وثورة المهدى فى السودان وقضائها على إمبراطورية المغول ثم على ثورات الهند المتعددة منذ القرن الماضى. ويبدأ بصورة فنية، وهو الخطيب الثائر "**هلع على ما فى البيت فهلوع لاغلاق الباب، فانخلع المصراع، وانفض الجدار من ورائه**". هذا حال بريطانيا فى الهند وقناة السويس. كانت تريد باب أمن، فانخلع الباب وانهدام الجدار. أرادت إنجلترا بعد احتلالها مصر أن تدخلها تحت حمايتها، وتبدل بالجيش المصرى جيشاً إنجليزيا. وتقيم فى السودان سلطة مستقلة، وإرضاء المصريين بتنظيم أموالهم وتسكين روع العثمانيين. ثم قسمت الممالك فى الهند، وأقامت لكل قسم حامية فيها حتى استولت على الهند تحت غطاء الإحسان الإنجليزى والاستبشار العثمانى بما يحدث فى مصر والهند.

ثم ظهرت الدعوة المهدية فى السودان. وسارعت إنجلترا بالتدخل فى مصر كطريق للهند. وسالت الدماء على سواحل البحر الأحمر. ونفرت القلوب من الانجليز. وبدأ الخوف فى المغرب الإسلامى وطرابلس الغرب والشرق الإسلامى. فجزيرة العرب باب الهند. وأرسلت إنجلترا جوردون باشا إلى السودان لتفريق كلمة المحاربين فشتتهم ظلماً، وجلب قساوسة بروتستانت من السويد لنشر المسيحية بين المسلمين لاخماد الثورة. وأراد منح المهدى لقب أميركردفان. ولكنه أخفق فى سعيه. فذهبت قوة إنجليزية بقيادة الجنرال جراهام إلى سواحل البحر الأحمر لاسترجاع شرف بيكر وهس من الضباط الإنجليز الذين هزمهم أنصار المهدى. وغلبوا ثلاثة آلاف من العراة السودانيين، وقتل منهم ثمانمائة بدوى ومع ذلك لم تجبن القبائل وظلت تحارب وتقاوم. وقد فتك المهدى بعشرة آلاف جندى بريطانى مرة، ومرة أخرى بألفين وخمسمائة، وكلهم تحت مشاهير قواد جيش إنجلترا. فلا يفت فى عزمه انهزام بعض المنتسبين إليه. تخيلت إنجلترا أنها نجحت وهنأتها الدول على انتصارها فى معركة وكأنها نابليون الأول أو غليوم الثانى. وليس فى أفكار غوردون أن يخمد الثورة ولكنها قد تهدأ قليلا بفضل العثمانيين والمصريين المتعاطفين مع المهدى.

كان يكفى إنجلترا حفظ باب الهند بتأييد العثمانيين والمصريين. ولكنها التفتت إلى تقوية باب الهند الشمالى، أفغانستان وباكستان. ولم يغن الباب عن انهيار البناء كله. فقد لجأ التركمان فى مرو إلى روسيا بعد أن كانوا مستقلين. وقد يتبعهم تركمان سرخس وينضمون إلى فارس، وهم مخالفون لهم فى المذهب فيفتح بذلك الطريق إلى روسيا إلى فراه ثم إلى قاين ثم إلى سجستان ثم إلى الهند. وهناك قبائل أفغانية فى ضجر من حكومتها قد تتبع أبناء عمومتهم التركمان. وقد تخرج قبائل أخرى على الأفغان ضد سلطة أهل السنة، وقد كانوا فى الحرب الأخيرة مع الإنجليز. وقد يتجاوزون إلى روسيا لوعودها لهم، فيمتد سلطان روسيا إلى شمال الهند، وتهدد الهند، وربما يمتد إلى قناة السويس، والايقاع بقبائل الأفغان واختلافها على الإمارة بعد أن تقربت إلى ألمانيا والنمسا، وعقدت معاهدة معهما على حفظ السلام فى أوروبا حتى تتفرغ لآسيا. فهل يمكن للإنجليز تفهم الخطر القريب وألا يقعوا فى شرك المسألة المصرية. يخافون منها ويقعون فى شركها، وهم لا يقدرون عليها إلا بمعونة العثمانيين وبعض المصريين؟ فواضح أن الأفغانى هنا يؤسس سياسة ضرب إنجلترا بروسيا، وضرب روسيا بانجلترا، واللعب على تناقض المصالح بين القوتين الكبريتين فى عصره، تخويف انجلترا بروسيا، وتخويف روسيا بانجلترا كما حدث نفس الشيء، بعد ذلك أثناء الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وقيام حركات التحرر الوطنى وقادة العالم الثالث خاصة عبد الناصر بالاستفادة من التناقض بين المعسكرين المتنازعين لصالح الاستقلال الوطنى للشعوب المتحررة[١].

ومع ذلك يبدو الأفغانى أكثر تعاطفاً مع روسيا كما كان عبد الناصر فيما بعد، وأكثر عداوة للاستعمار الغربى ممثلا فى إنجلترا كما كان عبد الناصر معادياً للاستعمار الغربى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. فبريطانيا تفتح البلاد وتوقع

---

[١] سياسة إنجلترا فى الشرق، الأعمال ص ٤٦٠-٤٦٤ الإنجليز والإسلام، العروة ص ٦٨-٧١ رأيه فى الإنجليز ووصفه الإنجليزى والعربى، خاطرات ص ١١.

بين أهلها البغضاء، وتتدخل فى أمور الشرق، وتستعمر الهند ومصر لاستعباد أهليها. الانجليز فى ذاتهم أمة من أرقى الأمم تعرف العدل فى الداخل، ولكنها تمارس الظلم فى الخارج. الإنسان له حق الحياة. وهو الإنجليزى، ولغيره من البشر الموت. ليس فى الوجود إلا الله وحق الإنجليزى. الطمع دافعه . وكل بقعة غنية فى العالم له. لذلك لا يصدر عنهم فى الخارج إلا الظلم. ووسليتهم المكر والخديعة. ومن السفه مطالبة الشرقيين الإنجليز بالعدل أو الانصاف لأن معنى العدل هو التخلى عن البلاد وهو ما لن تقبله انجلترا. يكشف المعيار المزدوج لإنجلترا العدل فى الداخل، والظلم فى الخارج، التشدق بالعدل كمبدأ عام ثم تخص نفسها بالوصاية على النوع الإنسانى.

ومما ساعد على استعمار الشرق من الغرب، تفكك عُرى الأمة الإسلامية وعدم الاتصال بين الأقوام مثل الأفغان والإيرانيين. فقد وقعت ثورة الهند عام ١٨٦٠ ولم تصل أخبارها إلى ايران وأفغانستان إلا بعد أن تمكن الإنجليز من أخمادها. وكذلك لا يعرف الهنود أخبار إخوانهم المسلمين. فالتركى والمغربى، والتونسى والجزائرى والمراكشى يعلمون أنه توجد مقاطعة اسمها الهند بها ملايين من المسلمين الهنود. ويعلم الهنود ان على الأرض دولة عثمانية إسلامية، يفرحون لفرحها. ومع ذلك تجهل كل أمة أحوال الأمم الأخرى. فلا يدرى أحد أخبار الهند باستثناء وقوعها تحت الاستعمار الإنجليزى. والهند درة غالية فى آسيا، كانت هدف الفاتجين منذ القدم ومطمح أنظار الملوك والسلاطين. زحف إليها الاسكندر، ودخلها فاتحا من الشمال كما فتحها جيش الحجاج من الشمال، من بخارى وكابول. ثم أعاد فتحها السلطان محمود الغزنوى. وعطش الجيش فى الطريق فأعطى خادم السلطان له قربة ماء فأراقها أمام الجيش "**لاخير فى حياة إذا هلك الجيش**" وفضل الموت إذا كان فيه سلامة العسكر فتحمس الجند، وساروا حتى وصلوا إلى مكان المياه ثم انقضوا على حصون الهند، ودكوها بالمدافع ثم فتحها تيمور لنك ثم نادر شاه الإيرانى وأخذ من خزائنها وأموالها. وفتحت الهند بعد ذلك عدة مرات بحروب ومخاسر عديدة.

أما الإنجليز فقد ملكوا ثلث العالم بلا مخاطر ولا دماء ولا أموال. بل استعملوا سلاح الخديعة والحيلة، أسودا فى ملمس جلود الأفاعى. يعرضون أنفسهم خدما صادقين وأناسا ناصحين، داعين إلى الأمن واستقرار النظام، وتثبيت الأمراء، وتنفيذ الفرامانات، وتأييد السلطان. فإذا تصدى لهم ملك شرقى حاذق شوشوا عليه، وألبوا عليه الرعية، وأثاروا عليه الأحقاد، وأيدوا، بدلا عنه، السفهاء من الأمراء، ودعوا إلى عصيانه أوالاتفاق معهم على خلعه، وتنصيب أمير ضعيف أحمق أوصبى لم يبلغ بعد سن الرشد من ابنائه أو أقاربه. فعلوا ذلك بالهند. انتشروا كتجار، وفرقوا كلمة الأمراء، وأقروا الراجات، وطالبوهم بالاستقلال والانفصال عن الدولة التيمورية لتقسيم الهند إلى ممالك صغيرة. وأغروا كل أمير بقلب. فإذا ما احتاج إلى المال عاونوه، مرة بالذهب، ومرة بالسيف. ونفروهم من عساكرهم، واتهموهم بالضعف والجبن والخيانة والاضلال، وطالبوا باحلال الانجليز محلهم لما هم عليه من قوة وبسالة ونظام وقيادة إنجليزية مع بعض الجنود الهنود. ووضعوا على كل عاصمة فرقة انجليزية لحماية الحاكم، وأعطوها أسماء محلية مثل العمرية للحكومة السنية، والجعفرية للحكومة الشيعية، والكشتية للحكومة الوثنية. فإذا ما فرغت خزائن الحكام فتح الإنجليز خرائنهم، واقرضوهم بفوائد كثيرة أوقليلة. فإذا ما عجز الأمير عن السداد طالب الإنجليز بقطعة أرض للاستفادة منها وسداد الدين وارجاعها، فيضعون أيديهم على أخصب البقاع، ويؤسسون فيها القلاع والحصون على أبواب العواصم. ويغرون الأمراء بمزيد من الإسراف والتبذير، ويغرون الحكام بالحروب بينهم، ويأتون لمساعدتهم، ويجبرونهم على الصلح فى مقابل تنازل المهزوم عن جزء من أرضه للمنتصر، وهم الخدم الصادق والناصح الأمين، حتى إذا ضعف الجميع قادوهم إلى السياف بجنوده أو خلعوه، وأحلوا محله أحد أعضاء العائلة المالكة بشرط أن يقطع لهم أرضاً أو يمنحهم امتيازاً، ويقع الكل في مخالب الإنجليز [1].

---

[1] الهند والاستعمار، الأعمال ص ٥٠٨-٥٢٩ حديثه عن الهند ومستقبلها وشيء من سيرة السلطان محمود الغزنوى بفتحه لتلك الأقطار، والمقابلة بين حالة مصر فى عهد محمد على باشا وحالتها بعد الاحتلال، خاطرات ص ٢٤١-٢٠٢

ويستمر الأفغانى فى هذا الوصف التفصيلى المعروف فى مصر أيضاً فى عصر إسماعيل وتكبيله بالديون ثم شراء أسهم قناة السويس وخلعه ووضع سعيد ثم توفيق مكانه حتى احتلال مصر، مركزاً على شبه القارة الهندية خاصة فى الشمال. فعندما وقعت الحرب بين الأفغانيين والبنجابيين خاف الأنجليز من تسلط الأفغان. فتدخلوا للصلح بينهم. وسحروا الأفغانيين بلين القول حتى تركوا لهم بيشاور وما يليها، وأجلى الأفغان بنجاب . وبعد ذلك بعشر سنوات زحف الإنجليز على بنجاب وافتتحوها بأنفسهم، واستولوا على بيشاور، وأدرك الأفغان الحيلة بعد فوات الأوان. وقد حدث أيضاً أن خلع الانجليز فى الهند أميراً رأوا فيه البصيرة والحزم. وأقاموا بدلا منه ابنه، وجعلوا أنفسهم أوصياء عليه. واستولوا على خزائنه، وأداروا مملكته، واستولوا على عسكره، ولم يبق له إلا الاسم. وتم لهم ذلك تحت راية العدالة والاصلاح واستقرار النظام، والمحبة والاخلاص. وإذا اشتكى الملك إلى لندن تركوه حتى يجوع. وأمراء الشرق تلهيهم الالقاب والاسماء والالفاظ حتى ولوكانت مجردة من أية حقوق يلتذ بها مثل : نائب، راجا، خديوى، سلطان. وفى نفس الوقت يستولى الانجليز على كل الوظائف السامية. ويوزعون بعضهم على الطوائف لتقريب بعضها على البعض الآخر مثل الفرس أولاً الذين على دين زرادشت، وهم المجوس، ثم الوثنيون وأخيراً المسلمون. فليس للمسلمين حظوظ فى الوظائف الا مايتركه المجوسى والوثنى، وفى نفس الوقت يدعى الإنجليز أنهم أولياء المسلمين، وينفون علماء المسلمين الذين يؤمنون بآيات الجهاد فى القرآن الكريم.

تحولت الهند إلى خراب بفضل الإنجليز بعد نهبها وتقطيعها. وأهان الانجليز الهنود، يركلونهم بالعصى لأنهم ليسوا من البشر. وتسلط الانجليز فى الأماكن العالية مع أن البراهما الذى فتح الهند قادما من إيران لم يذل الهنود مع أنهم كانوا يعتقدون أنهم من سلالة الآلهة، واشركوا الهنود معهم. وفتح المسلمون الهند، وعاملوا الوثنيين مثل معاملة المسلمين حتى أوقع الإنجليز بينهم الشقاق، يتهمون المسلمين بالتعصب مع أن فى حكومة المسلمين سنة وشيعة ووثنيين وفى حكومات

الإنجليز لا يوجد هندى فى وظيفة شريفة. ولكن النعمة تجلب النقمة. ونعمة الهند جلبت نقمة الإنجليز لا على مما يحيط بالهند لأن الإنجليز يعتبرونه من خلال ما يجب تأمينه حفاظاً على الهند. أتت النقمة على العثمانيين ومصر. فقد استولت إنجلترا من العثمانيين على قبرص بحجة المحافظة على ممتلكات إنجلترا فى شرق المتوسط، وربما كانت نفس الحجة لاحتلال مصر وقناة السويس باب الهند والسودان مصوع وسواكن وعدن وباب المندب وجبل طارق، وكلها أبواب للهند وافغانستان وإيران. وقد حاول الإنجليز نفس التحايل على أفغانستان فلم تفلح فأتت بجيش قوامه ستون ألف جندى لاحتلاله وهم فى أعلى درجات التسليح ولكن هزمهم الأفغان. فعاد الإنجليز إلى الحيلة. أما بلاد العجم فقد تم تقيسمها إلى مناطق نفوذ بين إنجلترا وروسيا اقتصاديا، ملاطفة الأفغان مرة والقسوة على إيران، وملاطفة إيران مرة للقسوة على الأفغان، ضربا للأخ بأخيه، والعدو كاسب فى كلتا الحالتين، توحيد الأعداء، وتفريق الأصدقاء. ولم يأت الأفغانى الهند ليخيف بريطانيا أولاحداث شغب عليها ولكن خوف بريطانيا من عالم أعزل يثبت ضعفها وعدم أمنها من حكمها. إنما مهمة الأفغانى استنهاض الهنود ويقظة الشرق فى مواجهة الاستعمار.

ويستعمل الأفغانى أسلوب الرمز. ويشرح أسطورة هيكل عظيم خارج مدينة اصخر لم يأوه أحد الا مات دون معرفة سبب موته. فأتاه شخص يحب الموت. وسمع أصواتا مزعجة تريد الفتك به. فرحب بها لأنه سئم الحياة. ثم اختفت الأصوات داخل الطلسم، وتناثرت الدراهم والدنانير. وفى الصباح أتوا لتشييع جنازته فوجدوه حياً مستبشراً. وذلك لأن هلاك من هلك إنما كان بالفزع مما لا حقيقة له. فكذلك بريطانيا هيكل عظيم يموت الداخلون فيه من الفزع. هكذا حال الهنود، يخافون من شبح لا وجود له. فقد ذهب الإنجليز إلى الهند قوة مجتمعة، وتسابقوا مع الفرنسيين والهولنديين والبرتغاليين إلى أراضى الهند الواسعة، وغلبوا طيبة قلوب الهنود، وأوهموهم بتخليصهم من الأمم الظالمة، فرنسا والبرتغال

وهولندا. سيطر الإنجليز فى الهند والهند الصينية وبرما على نحو مائتى وثمانية مليوناً من الشرقيين. ولو كانوا ذبابا لأصموا الآذان بالطنين. ويصيح فيهم الأفغانى صيحته الشهيرة "**لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين ذبابا مع حاميتكم البريطانيين، ومن استخدمتهم من ابنائكم فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف، لو كنتم أنتم مئات الملايين كما قلت ذبابا لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى، ويجعل فى آذان كبيرهم المستر غلاد ستون وقرا. ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم أحراراً....اعلموا أن البكاء للنساء والسلطان محمود الغزنوى ما أتى إلى الهند باكيا بل أتى شاكيا السلاح. ولاحياة لقوم لا يستقبلون الموت فى سبيل الاستقلال بثغر باسم**"[1].

وهذا ما حققه غاندى بعد ذلك بالساتياجراها، تحويل الملايين من الهنود إلى قوة بشرية فى مواجهة الاستعمار الإنجليزى. وهوما استأنفه غاندى وسعد زغلول وعبد الناصر ونهرو وعرابى والمهدى من قبل وليس كما يحدث الآن من تفتيت للسودان وعزلة عن مصر، واتجاه مصر غربا.

---

[1] الأعمال ٥١٨-٥١٩ حديث له عن الهند مستقبلا وشيء من سيرة السلطان محمود الغزنوى بفتحه تلك الأقطار، خاطرات ص ٢٥٨/١٢-٢٥٩، الهند ومصر، خاطرات ص ٢٦٦-٢٧١.

الفصل السادس

مصر والشرق

١- المسألة الشرقية

سواء بدأ الأفغانى من العام إلى الخاص، من الشرق إلى مصر أو بدأ من الخاص إلى العام، من مصر إلى الشرق فإن النهاية واحدة، مصر بؤرة الشرق، والشرق مركزه مصر.

ويبدأ الأفغانى بتأصيل الموضوع فى المسألة الشرقية فى الماضى والحاضر والمستقبل. فقد انتشر الإسلام فى الشرق، ومصر والمغرب العربى جزء من روح الشرق. انتشر حربا أم صلحا فى أقصر عصر، انطلاقا من شبه الجزيرة العربية إلى الشام والعراق ومصر وفارس والهند وتركيا بدافع دينى يقوم على المساواة والترابط الاجتماعى وانتشار الآداب واللسان العربى والأخلاق الفاضلة مثل الصدق والوفاء بالعهد والعدل والحرية والمساواة وإغاثة الملهوف والكرم والشجاعة. لذلك سقطت العروش. وتحولت مصر الرومانية إلى إسلامية عربية، وكذلك سوريا والعراق. كانت الفضائل وسيلة التعرب وكذلك الآداب. فقد كان العرب الأوائل، حتى قبل الإسلام، يقدرون آداب الغير، ويحلّون بها لسانهم مثل كسرى أنوشروان. وظهر من بينهم الحكيم الطبيب مثل الحرث بن كلدة يماثل حكماء الفرس. وكان للشاعر فى قبيلته المكان الأول. وإذا ما استعمرت أقوام وحافظت على لسانها فإن ذلك يكون أحدا أسباب تحررها.

أما الفتح التركى فقد كان عسكريا وليس ثقافيا. توغل الاتراك فى كبد أوروبا حتى فينا، واستولوا على بلغاريا والصرب والجبل الاسود، ولكنهم لم يتركوا آثارا كما ترك العرب فى مصر والشام والعراق والاندلس وكما قال الشاعر :

هذه آثارنا تدل علينا ∴ فانظروا بعدنا إلى الآثار

تعرب الأتراك ولكن الاتراك لم يعربوا غيرهم أو يتركوه. لذلك ثارت دول البلقان ضدهم. عرّب العرب بالحكمة والتسامح واللين، والتركى لم يترك أثراً

باعتراف الأتراك أنفسهم مثل ضيا باشا. فتوحات العرب حضارية وفتوحات الاتراك مجرد غزو. لم تتبع الاتراك سنة محمد الفاتح والسلطان سليم، وهو قبول اللسان العربى. أخذ الأتراك الإسلام الشعائرى العقائدى البدوى، ولم يتركوا وراءهم الإسلام الحضارى للناس وللشعوب المفتوحة. وانغمسوا فى السفه والترف والبذخ والاسراف. وكلها عوامل اضمحلال وانقراض وزوال للعمران. الأتراك مسلمون كالعرب ولكن شكلا دون مضمون. وفضل العرب على الأتراك ترك الآثار والعمران. والفرنسيون كالعرب يتركون الآثار فى حين تظهر عيوب الألمان لفرنسا فى الحروب السبعينية. ويستشهد الأفغانى بآية ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**﴾ ويفسر السعى بأنه ترك الآثار. وهو سبيل النجاح. لقد أثر العرب فى الشعوب باعطائهم أفضل مالديهم، اللغة والعلم. وانتشر الاسلام باللغة والحضارة فى كل الأرض القديمة بآداب الدين وليس بالجزية، ونشر قيم المساواة وحفظ كيان المجموع بحرية دون اكراه مع الابقاء على التعددية اللسانية والفكرية والاجتماعية. وسبب ذلك أخلاق العرب، واستحسان الأمم أخلاق الوافدين، والاعجاب بلسانهم. انتشر اللسان العربى ليس بسبب الفتح بل بسبب الآداب العربية، الحكم والامثال والمواعظ. وقد ساهم فيها البدو والحضر. ولكن العربية وسّعها البدو فى البرارى والقفار وضيقها الحضر فى المدن والامصار. وكان التحول من البدو والحضر خسارة للغة وانتقال لها من الطبيعة الى الصنعة، ومن الحرية والابداع الى التزمت والتقليد، لا فرق فى ذلك بين الأفغانى وروسو. لذلك لزمت التربية الوطنية للشرقيين بعد أن حظر الغرب ادخال الاسلحة والتعليم اليها أى القوة والعلم لابقائهم تحت الوصاية وابعادهم عن الوطن والعمل له. فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح موت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم[1]. يدرس الأفغانى المسألة الشرقية كفيلسوف

---

[1] بين العرب والاتراك، الاعمال ص٢٢٢-٢٢٥ تفسير لما أشكل على المؤرخ والشاعر التركي ضيا باشا من عدم ترك الاتراك اثراً بعد أن توغلوا فى أوروبا ولم يكن لهم ما للعرب فى فتوحاتهم وحجج جمال الدين وأيضاً العرب والتعرب، الأعمال ص ٢١٩-٢٢٠ قوله فى تأثير فضائل الوفود والفاتحين وضربه المثل بالعرب فى فتوحاتهم وانتشار لسانهم، خاطرات ص ٨٤-٩٠ فعاليات آداب اللسان، الأعمال ص ٢٢٠-٢٢١ تأثير آداب اللسان، خاطرات ص ٩٣-٩٤/٣٩٦. المسألة الشرقية وما ارتآه فى حلها=

سياسة وفيلسوف تاريخ نظراً لارتباط فلسفة السياسة بفلسفة التاريخ. السياسة محرك التاريخ، والتاريخ مجال النشاط السياسى. ويقصد بها الخلافة العثمانية وضعفها وتفككها وطريقة فتوحاتها للبلقان وشرق أوروبا وحال ولاياتها مثل مصر. وجوهرها الصراع بين الغرب والشرق، واستعمال الدين لصالح كل منها. يتذرع الغرب بالنصرانية والشرق بالاسلام، وأهل كل دين صامت خامل لا يتحرك. يسخر قادة النصرانية الدين من أجل الدنيا، ويحسنون أمورحياتهم، ويسخر قادة الاسلام الدنيا من أجل الدين ولا يعملون بأحكامه فخسروا الدين والدنيا معاً. فى الغرب الدين وسيلة والدنيا غاية. وفى الشرق الدين غاية والدنيا وسيلة. سبب نهضة الغرب التحول من احياء علوم الدين إلى احياء علوم الدنيا، وسبب وتخلف المسلمين التحول من احياء علوم الدنيا إلى احياء علوم الدين[1].

لقد ولد فتح محمد الفاتح القسطنطينية حقد الملوك المسيحيين ضد المسلمين، وأخذوا فى الكيد لهم، وناصبوا الدولة العثمانية العداء والعمل على اضمحلالها وسلب فتوحاتها منها. ويتحمل العثمانيون جزءاً من المسؤولية لأن استمرار الحروب والتغلب والانتصار فيها لا يكون إلا بالقوة والعلم وليس بالقوة وحدها. ولو أن الدولة العثمانية راقبت حركات الغرب وجارته فى مدنيته وحضارته وعمرانه، وزاوجت الفتوحات المادية بالقوة العلمية كما فعلت اليابان لما كانت هناك مسألة شرقية، ولما ظهر هذا التباين بين قوة وجهل عند العثمانيين، وقوة وعلم عند

=وتبجيله لفكرة السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم باتخاذ اللسان العربى لساناً رسميا والأخذ بتعميمه، خاطرات ص٢٠٩. وبراهينه على استحالة مطلب تتريك العرب خصوصاً وأن شواهد التاريخ من الأدلة القاطعة إذ تبرهن على أن كثيراً من الأعاجم استعربوا ولم يسمع أن عربياً استعجم، وبالاجمال نتيجة ما ارتآه فى حل المسألة الشرقية على توسع فى الموضوع وتناوله حالات العناصر فى المملكة العثمانية من حيث روحها وذكره الأسس الثابتة للأقوام من مدنية ولسان وتاريخ وما لذلك من التأثير، وفيه إفاضة ذكره الفرق بين عدل يأتيه الفاتح من علم وحب بإجراء العدل والأخذ به وبين ما يأتى من ذلك عن غرور وعزة واتيان العدل إذ ذاك عرضاً، خاطرات، ص١٢.

[1] انظر دراستنا : التصوف والتنمية، احياء علوم الدين أم احياء علوم الدنيا ؟ فى الإسلام فى العالم الحديث، حـ١ الدين والايديولوجية والتنمية، الانجلو المصرية. القاهرة ١٩٩٥ ص١٦-٤٣(بالانجليزية).

الغربيين، ولما انهزمت حكومة الجهل على يد حكومة العلم. يهزم الغرب المسلمين الآن بالعلم مصدر القوة. وينهزم المسلمون الآن أمام الغربيين بالجهل مصدر الضعف. إذن ليس الدين وحده سبب المسألة الشرقية. فقد فتح آل عثمان الممالك، وبقى أهلها نصارى أشد تمسكاً بالنصرانية. فتحوا البلاد ولم ينشروا الاسلام ولا لغته، ولا عملوا بآدابه وتعاليمه. انتصر الأتراك أولاً على الأوروبيين بالعلم العربى، وقد كان الأوروبيون أولاً جاهلين به. وجمعوا بين القوة والعلم كما يفعل الأوروبيون الآن. وجمع السلاطين بين القوة والعدل. وظل النصارى فى طاعتهم طالما كانوا يجمعون بين القوة والعلم فى الحكم، والضعف والجهل فى المحكوم. ثم انعكس الأمر فتحول الحاكم إلى محكوم، والمحكوم إلى حاكم بنفس القانون، ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾، وهو قانون ثابت، ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾ ، ﴿**ولن تجد لسنة الله تحويلاً**﴾.

قامت الدولة العثمانية فى القرن السابع الهجرى بآسيا الصغرى. واستخلص السلطان عثمان الأول ما بيد السلجوقيين من الملك من الشرق، والروح من الغرب. وركزا على شبه جزيرة البلقان، وهى منطقة التقاء آسيا وأوروبا. وقد كانت فى المملكة الشرقية بعد قسمتها إلى شرقية وغربية. وفيها غير تركيا اليونان والصرب ورومانيا والجبل الاسود. ولكل أمة منها مطامع وعروق وطوائف وميول سياسية. وقد كانت البلقان مهد الفتن والقلاقل ولاتزال. كل دويلة صغيرة تطمع فى توسيع نطاقها على حساب جاراتها أوا بتلاعها كلية من الدول الكبرى كروسيا والنمسا اللذين ساعدا البلقان على الاستقلال تحت ذريعة الدفاع عن العنصر السلافى والصربى مثل حجة النصرانية وتخليصها من الحكم الاسلامى.

افتتح السلطان مراد الثانى بلغاريا عام ١٣٨٢م. وبقت تحت حكم الاتراك أربعة أجيال. وهم قوم أشداء من أصول مغولية مثل المجريين والفنلنديين، نزحوا من قازان فى روسيا وأوروبا، ونزلوا البلقان فى القرن السابع الميلادى. تعودت على الاستقلال منذ نشأتها. وقد خشيها البيزنطيون. ثم تقهقرت وتخلفت فاستولى

عليها الروس. ثم استقلت وضعفت حتى فتحها الروم، وصارت جزءاً من المملكة الرومانية الشرقية. ثم استقلت وضعفت مرة ثانية ففتحها العثمانيون. ولكن العثمانيين لم يتركوا شيئاً وراءهم ولم يبدلوا شيئاً، وتركوا البلقان لجاهاتهم ودينهم ولسانهم ولتاريخهم، يتطورون مع الغرب. والحكام الاتراك قاعدون فى فخفخة وغطرسة وفخر بالاسلام. فنهضت وبدأت تهدد العثمانيين.

وفتح مراد الثانى الصرب عام ١٣٨٩م. وظل الاتراك بها مدة أربعة قرون بالرغم من ثورتهم أربعة عشر عاماً حصلوا بعدها على نوع من الاستقلال الجزئى أولاً ثم النهائى ثانياً عام ١٨٧٨م مثل بلغاريا. كما أخضع العثمانيون اليونان حتى عام ١٨٢٩م . ثم استقلت بمناصرة الغرب وبعد حروب دامت سبع سنوات اشترك فيها الاسطول المصرى بقيادة إبراهيم باشا. وأخضع العثمانيون رومانيا وأدت لهم الجزية حتى عام ١٧١٦م، وظلت تحت الحكم العثمانى حتى استولت عليها روسيا. ثم ثارت عام ١٨٦٦م، وأصبحت ملكية. ثم فتح السلطان سليمان القانونى الجبل الأسود وسكانه من الصقالبة. ثم استقل عن العثمانيين عام ١٨٦٢م. والخلاصة أن الدولة العثمانية لم تكن تحسن الاستعمار. وكانت سداً تمنع الشعوب من التقدم والرقى[١].

شعوب البلقان أمم وممالك، لها تاريخ ودين ولسان، وعادات وأخلاق، على طرفى نقيض مع العثمانيين. لم يوّحدها العثمانيون ديناً أو لساناً أوثقافة كما يفعل المبشرون. بدأوا باللسان التركى لتعميمه دون الدين، فكان لغة المستعمرين. وتحررت شعوب البلقان طبقاً لسنة الكون على عكس فتوحات المسلمين الأوائل فى مصر والشام. ولو أن الاتراك نشروا اللسان العربى والدين الإسلامى لا ستمرت البلقان تحت حكم العثمانيين. وبدلا من تعريب الترك بدأ تتريك العرب، فبدأ النفور بين العرب والاتراك. لم يقبل العثمانيون فكرة السلطان الفاتح والسلطان سليم بتعميم اللسان العربى. وقد توغل العثمانيون فى أوروبا والبلقان، وجعلوا القسطنطينية

---

(١) المسألة الشرقية، الأعمال ص ٢٢٨-٢٤٣.

عاصمة لهم، مع أن المدينة المستعمرة لا تكون عاصمة للملك لأنها قابلة للاسترداد. كانت المدينة مثل دمشق وبغداد عواصم وسط المحيط العربى وليست على الأطراف. وأن فتح الأتراك القسطنطينية أمر عظيم بعد أن فشل فيه يزيد وخالد وأبو أيوب الانصارى والعباسيون واكتفى الرشيد بالجزية مع أن الرسول تنبأ بفتحها "**لتفتحن القسطنطينية، فنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش**" اشارة إلى السلطان محمد الفاتح. العيب أن الاتراك جعلوها العاصمة. ولو فُتحت قديماً لكان عليها من الولاة مثل مصر والاندلس والهند وبخارى وفارس[١].

كان فتح البلقان إذن مظهر ضعف فى الدولة العثمانية نظراً للقلاقل والفتن وإعداد الجيوش لسفك الدماء. لذلك لم يكن البقاء فى البلقان مضموناً، وكان استقلالها معروفاً للعقلاء. وهو رأى عالى باشا الصدر الأعظم بعد أن رأى مخاسر تركيا. ولكن الدولة العثمانية لم تأخذ برأيه، جعل الخلافة فى بغداد وسط الأمة. وربما لم تصدق نبوءة الأفغانى هنا. فالقسطنطينية مازالت باقية فى يد الاتراك، وتشهد نهضة اسلامية معاصرة. ولو كانت إمارة لشجع ذلك الغرب على استردادها كما استرد الاندلس.

لو عمّر الاتراك الأرض، وعدلوا فى أهلها، وجروا على سنة الرشيد أوالمأمون،وقد كانوا أغنى أمم الأرض وأكثرهم سلطاناً ! لم يحسنوا إلا الحرب دون العمران، ولم يقبلوا اللسان العربى، لسان الدين والأدب، والذى دخل اللسان التركى فأغناه. ولو خلا اللسان التركى من الكلمات العربية والفارسية لكان من أفقر لغات الأرض، ولعجز عن التعبير عن حاجات الأمة البدوية، ولما كان للأتراك شعر ونثر وبيان. فكيف يعقل تتريك العرب، وقد تبرك العجم بالاستعراب، واصبح اللسان العربى لغير المسلمين لساناً؟ لقد خاطب الأفغانى السلطان عبد الحميد فى الأمر ولكن السلطان لم يكن جيد الاصغاء. وكان لا يرى أن فضل اللسان العربى كما كان يرى سليم أمراً صائباً. وكان لا يريد الاعتراف بأن توغلهم فى أوروبا

---

[١] المسألة الشرقية، الأعمال ص ٢٢٨-٢٤٣.

وفتح شبه جزيزة البلقان كان خطأ. وواضح أن الأفغانى هنا ضد الاستعمار، واحتلال أراضى الشعوب بالقوة والقهر حتى ولو كان من جانب المسلمين الاتراك. فالفتح الاسلامى ليس استعمارا للشعوب ولكنه تحرير لها، وليس احتلالاً للأرض بل فتحا لها. لم يحتل المسلمون العرب مصر وفارس والشام بل فتحوها فى حين احتل الاتراك العثمانيون شبه جزيرة البلقان ولم يفتحوها[1].

لقد ساءت الأمور، فى رأى الأفغانى. وانقضى وقت الإصلاح، وإخراج التصورات من ميدان النظر إلى ميدان العمل، بعد أن كانت الدولة العثمانية فى عنفوان قوتها وأوج عزتها. أصبح الأمر الآن للقوة وحدها. ينتصر القوى على الضعيف. ولم يعد فى إمكان السلطان عبد الحميد ما كان يفعله السلطان الفاتح أوالسلطان سليم أو السلطان سليمان. لم يعد الأمر الآن، فى رأى الأفغانى، تحقيق ما ينبغى أن يكون بل الاعتراف بما هو كائن، وليس تحقيق الواجب بل تحقيق الممكن، وبلغة الفقهاء، ليس تحقيق المنفعة بل الاقلال من الضرر، ليس العمل إيجابا بل العمل سلباً. ليس طلب المستحيل، إبقاء الدولة العثمانية فى أوروبا، بل تحقيق الممكن وهو إبقاء الدولة العثمانية فى غير أوروبا. وقد حادث الأفغانى عبد الحميد فى تصوراته عن الإصلاح، ورفض تدوينها حتى يظل الأمر سراً لا يطلع عليه أحد، وجوهرها تحويل الممالك إلى خديويات وليس إلى مجرد ولايات يُرسل إليها الولاة من الآستانة مثل باكير باشا ومحمد على باشا لجمع الأموال من غير حق وإرسالها إلى الآستانة، وتوزيعها على رجال الدولة. إن نظام الولايات ليس خيراً لها بل هو خير للسلطنة. أما نظام الخديويات فهو خير للولايات وحفاظ على السلطنة كما فعل الانجليز فى الاستيلاء على الولايات باسم السلطنة وحفاظاً عليها. وأيهما أفضل أن يأتمر الوالى بأمر السلطان، وتكون العساكر المصرية عثمانية تنفذ

---

[1] فى تأثير فضائل الوفود والفاتحين والمستعمرين وضربه المثل فى العرب وفتوحاتهم وانتشار لسانهم، وتفسير ما أشكل على المؤرخ والشاعر التركى ضيا باشا من عدم ترك الاتراك أثراً بعد أن توغلوا فى أوروبا ولم يكن لهم ما كان للعرب فى فتوحاتهم، وبيان الاسباب، وتأثير آداب اللسان، واستنتاجه أن ترك الأثر مع التفريط فى صون الملك وعدم حفظه أدعى للتأثر وليس فيه شيء من الفخر، خاطرات ص ٨٤-٩٠.

الأوامر باللحاق بجيوش السلطان، وأن يكون الشعب المصرى رعية خاضعة طائعة للسلطان أم أن تصبح الولاية خديوية، وأن يكون الخديوى معيناً من السلطان ولكنه منفذ لمصالح الخديوية وشعبها؟ كان الأفغانى من أنصار اللامركزية وإعطاء الاستقلال الذاتى للولايات. ولكن السلطان كان يخشى من أن يتحول الاستقلال الذاتى إلى استقلال كامل وبالتالى تتفتت الدولة العثمانية، وتضيع الخلافة. وكاد محمد على وإبراهيم باشا أن يستقلا بمصر. إن السلطنة العثمانية تتألف من ثلاثين ولاية، ومساحتها فى آسيا فقط ٦٦١,٠٠٠ ميل مربع على حين أن مساحة بريطانيا وإيرلندا معاً ١٢٠,٠٠٠ ميل مربع. يمكن أن تتحول الولايات إلى خديويات فى بغداد والبصرة والموصل وبيروت وسورية وحلب والقدس والجزائر والحجاز مع تعزيز أساطيل الدولة لحماية الخديويات من الغزو الأجنبى. تقتصر مهمة الدولة المركزية على الدفاع عن الخدويات اللامركزية كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى قديماً، وكل الدول الفيدرالية مثل ألمانيا. وتتحول تركيا ذاتها إلى ثلاث ولايات، لكل منها منفذ على البحر. كما تصبح البانيا خديوية، ويكون مجموعها عشر خديويات أو ممالك كل واحدة منها أعظم من اليونان. ولا يعوقها عن التقدم واللحاق بما خسرته من الانفصال عن الدولة العثمانية إلا شكل الحكم التسلطى والسلطة المركزية البيروقراطية القاتلة للهمم والموهنة للعزائم. والدولة العثمانية اليوم لاترسل من الولاة إلا أحد رجلين : إما الخامل البليد الذى همه جمع المال، وإما الرجل النشيط العاقل ولكن ليس له من الأمر شىء، يستأذن الباب العالى فى ترميم جسر فى بغداد سقط منه حجران فلا يأتى الإذن إلا بعد أشهر وأعوام يكون طغيان النهر قد جرف الجسر كله ! وما يقترحه الأفغانى أن يفوض السلطان آل عثمان إلى الخديويات بدلا من قعودهم مع النسوان، وتقريبه الخصيان. ويكون مع كل أمير وزير فاضل وأمين من غير حاشيته التى تحاصره وتكذب عليه. كان هم الأفغانى إذن الحفاظ على الدولة العثمانية وحمايتها من التفكك وتوحيد أجزائها وفى نفس الوقت إعطاء الولايات قدراً من الحكم الذاتى، وربما فيما بعد، وهو ما لم يصرح به الأفغانى، تعيين حكام وطنيين من أهل البلاد وليس من الاتراك بالضرورة ، وتعزيز أساطيل الدولة لحماية الولايات من الغزو الاجنبى. هذا هو الحل الوحيد لأية دولة فى حالة اتساع ملكها. اتبعه العباسيون قديماً،

ولايغيب عن تصور الإنجليز حديثاً، هو النظام الفيدرالى الذى يحافظ على الكيان الوطنى القومى فى إطار من وحدة الأمة.

ولكن السلطان عبد الحميد شعر بأنه لم يبق له من السلطة شيء بعد أن سمع هذا التصور الفيدرالى للدولة العثمانية والاستقلال الذاتى للولايات. لم يبق شيء لتخت آل عثمان. ورد الأفغانى عليه بأنه يبقى له ملك الملوك وعرش العروش، ربما للإبقاء عليه بلا سلطات من أجل القضاء عليه وربما اقتناعاً باللامركزية من أجل الحفاظ عليه وعلى الدولة فى آن واحد. كان السلطان عبد الحميد سيء الظن، لا يأمن لأحد. وظن أن الأفغانى بتصوره عن اللامركزية العثمانية يعمل لحساب إسماعيل كمال الذى عُيِّن لولاية طرابلس الغرب، وطلب توسيع صلاحياته وحق عقد قرض لتحسين الولاية وإصلاحه. وإذا كان الأفغانى لا يعمل لحساب إسماعيل ضد العرب فإنه يعمل لحساب إسماعيل التركى. ولكن السلطان رأى أن الأمر قد فات أوانه، ولايمكن عمل شيء الآن مستعملاً المثل التركى "**أن الجواد اجتاز اسكدار**".

والعجيب أن يمدح الأفغانى بعد ذلك السلطان عبد الحميد. فلو وزن السلطان عبد الحميد مع أربعة من رجالات العصر لبزهم ذكاء ودهاء. لقد ذلل لملكه الصعاب، وصمد أمام دول الغرب، وحول العدو إلى صديق من دول الغرب، واقتنع الجميع بحججه. يعلم دقائق السياسة ومطامع الغرب، ويخرج سالما من كل أزمة. ولكن عيبه هو العجز عن اتخاذ القرار، والجبن من أكبر عيوب الملوك، وعيب الكبير كبير، مع أن السلطان قد قبل بارتياح أفكار الأفغانى عن اللامركزية ومحاسن الحكم الدستورى، والإسلام أول من أقامه، وحسنت نواياه لاقامة الدولة اللامركزية، المناط بها نهضة المسلمين. وأعد كل شيء حتى لا تتفق أوروبا على عمل خطير ضد الممالك العثمانية. وأقنعها أن ذلك سيكون خراباً على نفسها. فيقظ لدول البلقان الصغيرة التى أحدثتها أوروبا للتدخل فى شؤونه ولتقطع أجزاء من مملكته. وكلما حاولت أوروبا توحيد البلقان ضده استطاع بدهائه تفريق ما جمعوه.

فخضع له أمير البلغار، ولبس الشعار العثمانى (الطربوش)، وافتخر برتبه المشيرية، وانتظم فى حفلة صلاة الجمعة. وكان أمير الجبل الأسود يعتبر نفسه كالابن أمام والده، يطلب الاعانة لمساعدته فى تجهيز ابنته. فدفع ذلك أوروبا إلى تحريض اليونان على حرب السلطان. والأعجب من الأفغانى مدح أبى الهدى الصيادى وهو المدافع عن السلطان والخلافة بأى ثمن. "**أما الرجل (أبو الهدى الصيادى) فهو خير عربى صحب السلطان. وقد درأ شراً واستدر ما استطاع من الخير لقومه. وفى الرجل هزة هاشمية، وخلق كريم، وهمم وشمم لا ينبغى أن يناله طعن الطاعنين. ولا أدل على فضل الرجل من قياسه مع غيره من العرب الذين انسلوا إلى السلطان ودخلوا خدمته**"[1].

٢- مصر والخلافة العثمانية

مصر هى بؤرة الخلافة. والدفاع عن الخلافة العثمانية إنما هو دفاع عن استقلال مصر وتقدمها. فمصر من الأراضى المقدسة. ولها فى قلوب المسلمين جميعاً منزلة كبيرة. وقلق المسلمين عليها ركن من أركان الدين. مصر فى المركز والقلب. ومع أن الأفغانى غير مصرى إلا أنه تجلى فى مصر، وتجلت روح مصر الوطنية فيه. ويعلن الأفغانى عن ذلك فى العروة الوثقى قائلاً : "**وعزة الحق أن ما كتبته عن حق مصر وما استنهضت من الهمم وما حذرت به من سوء المصير لو تلى على الأموات لتحركت أرواحهم، ولرفرفت على أجداثهم، ولأحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة ومراء مريعة. كاد لا يخلو سطر من العروة الوثقى الافيه ذكر مصر، ولا براهين وأدلة على ظلم الانكليز إلا ويتمثل فى مصر، ولاخوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية إلا وتراه فى التهاون فى أمر مصر. وذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له فى جسم الأمة الإسلامية والعرب عموما نغولا وبعروقها اتصالا... ولا يفوتن أهل الشرق العلم بأن كل مدينة وكل مقاطعة إسلامية شرقية هى بمنزلة مصر وإن لم تسقط تحت الاستعمار بعد. فالشرك**

---

(١) السلطان عبد الحميد، الأعمال ص ٢٤٥-٢٤٨/٥٣٩ حاطرات ١٢١.

منصوب للكل." [١] فمصر هى نموذج مصغر أو مكبر لكل الدول التى يطمع فيها الاستعمار والتى تناهض وتقاوم من أجل الاستقلال.

مصر مركز الخلافة ودرة الممالك العثمانية. وصون مصر صون لها. ومصر مفتاح المسألة الشرقية. وتحررها بداية العالم الإسلامى كله. وكل المقاطعات الإسلامية فى الحملة العثمانية هى بمنزلة مصر. فمصر هو نموذج الوطن والذب عنه. وقد كانت مصر قبل الدولة العثمانية مركزاً للخلافة. فقد انقسمت الخلافة قديماً إلى عباسية فى بغداد، وفاطمية فى مصر والمغرب، وأموية فى الاندلس. وبدأت مصر والدولة العثمانية نهضتهما الحديثة معاً بنقل العلوم الغربية دون معرفة كيفية نشأتها. ونصبت الدول الغربية الحبائل للايقاع بهما معا.

ويرصد الأفغانى تاريخا لمصر قبل محمد على وأثناء محمد على وبعد محمد على حتى ثورة عرابى واحتلال الإنجليز لمصر، مبيناً مأساة مصر وعظمتها فى آن واحد. كانت حكومة مصر قبل محمد على تعد من حكومة الاشراف (المماليك) دون معرفة ماحقيقتها. ثم أتاها محمد على يحول مصر إلى دولة حديثة وحكومة نظامية حتى تقدمت على جميع الممالك الشرقية. وهو أمى على الفطرة يحب الحضارة وبث العلوم وتأسيس العمران. وتفجرت فى مصر ينابيع الثورة وفاضت على البلاد الشرقية حتى صارت قبلة الغربيين. سادها الأمن وأصبحت مثل الممالك الأوروبية العظيمة. ثم تعثرت مصر، وحسدتها الأيام. عثر العاقل، وفرط المالك، وتهور الغبى، تقرب البعيد، وبعد القريب. وانتشرت الدسائس فى دوائر الحكومة. تقطع الوصال، وعمت الفتن. حل القضاء بالبلاد، وطمع فيها الأجانب. واحتلتها إنجلترا بحجة الدفاع عن طريق الهند. وقامت إنجلترا بالقتل والشنق والحرق والتدمير. وأصبحت ماليتها محط أنظار أوروبا. وبدعوى عدم الوفاء بالدين تم احتلال مصر وأوروبا ناقصة الإيراد، وتريد تعويض مخاسرها فى السودان فى

---

(١) المسألة الشرقية، الأعمال ٢٣٨ ص ٢٤٠-٢٤١ أسباب تخلف المسلمين. الاعمال ص ٣٦٢/ص١٩٥ التعصب ، الأعمال ص ٣٠٨.

احتلاله ثم إخلائه. وألغى الجيش الوطنى وهو الذى حقق أعظم الانتصارات أيام محمد على وإبراهيم. وطرد آلاف الوطنيين من الحكومة، وتشرد الأطفال والنساء. سادت الأهواء، وملئت السجون بالرعية، والكرابيج على الأبدان. أغلقت أبواب العمل، وتنازع الحكام، وعمت الفوضى. وارتفعت الأصوات بالشكوى، وانتشرت الأمراض، وفسدت الزراعة. اشتد الضنك، وباع الفلاح بيته. وزاد الويل بالنيل من الحريات الشخصية والأخذ بالشبهات والتهم الباطلة. تحتاج مصر إلى الاصلاح ولكن إنجلترا دخلت البنجاب بدعوى الاصلاح، واستولت عليه أربعين عاماً. فليحذر المصريون. دخل الإنجليز مصر لقمع الثورة العرابية والاستيلاء على طريق الهند وإعادة الأمن. وطردوا الآلاف من الموظفين الوطنيين فأصبحوا مشردين. امتلأت السجون بالأحرار. وأغلقت أبواب العمل. شاعت الفوضى، وتوقف العمل، وانتهكت الحريات الشخصية. أراد الأفغانى توجيه بريطانيا إلى إيقاف الخطر الروسى على شمال الهند بدلا من وقوعها فى الشرك المصرى بعد أن ظنت أنها تستطيع القضاء على مصر. وذلك لا يتم إلا بمساعدة العثمانيين وبعض المصريين[1].

والحديث عن محمد على هو الاستثناء فى الدولة العثمانية التى آثرت الغزو لا الفتح والقوة لا العلم، والاستعمار لا التمدن، وذلك بفضل محمد على فى مصر. محمد على "**ذلك الأمى الكبير، نابغة رجال أمصار وأجيال. فقد طوى تحت جبته هما تدك الجبال، وقلبا يقدم به على هائل الأعمال، وتحت عمامته دماغاً فعالاً، وعقلاً جوالا، وبصراً نافذا، وفكراً ثاقباً، ورأيا صائبا**"[2]. فقد بلغ من حدة الذهن وفرط الذكاء، وبعد أن حسن خراج مصر، وعدل ما اختل فيها، وبنى القناطر الخيرية، وشق الترع والرياحات طلب من الباب العالى أن يعيضه بالبصرة عن مصر، يفعل فيها ما فعل فى مصر ثم الموصل للإعمار والبناء، وكما عمّر القدماء دمياط ورشيد والاسكندرية ودلتا النيل. عمر محمد على مصر كما عمّر القدماء

---

[1] مصر، الأعمال ص ٤٦٦-٤٧١ خاطرات ص ٢٦٢، سياسة إنجلترا فى الشرق الاعمال ص ٤٦٣.

[2] المسألة الشرقية ، الأعمال ص ٢٣٦.

البصرة والموصل. وكان المسافر من بغداد فى عصر الرشيد غربا يمشى بين الاشجار حتى يصل إلى دمشق وحلب، وشمالا يرى الخضرة حتى سيحون وجيحون، وجنوبا حتى دمياط ورشيد والاسكندرية ومصب النيل. وكلها ملك للمسلمين. وكانوا فى نفس الوقت قادرين على الصمود ضد أهل المكر والخديعة.

كان يمكن أن تكون نهضة مصر كخديوية مستقلة نموذجاً لنهضة باقى الخديويات التى يقترحها الأفغانى كصيغة للامركزية للعراق ولباقى الولايات العشر. كما أن نهضة ولاية مثل مصر ستبعث باقى الولايات على التنافس. فتنهض ولاية العراق. بل إن ولاية إيران تسرع لتأييد السلطنة والاتحاد معها تدعيماً لكليهما ضد مطامع الغرب الموجهة نحو عموم الشرق. وقد يبعث ذلك الهند إلى الاتحاد مع السلطنة حماية لهما من الغزو الاستعمارى، ويعود الشرق للشرقيين بفضل نموذج مصر وعلاقتها بالخلافة العثمانية، الخديوية القوية المستقلة فى الدولة اللامركزية. ولكن السلطان عبد الحميد تردد فى قبول فكرة تقسيم الدولة العثمانية إلى عشر خديويات بدلا من ثلاثين ولاية لأن محمد على باشا وابنه إبراهيم كادا أن يستقلا بمصر فتحاً بالقوة. ولم يرغب فى الاستماع إلى نصيحة الأفغانى باللامركزية ابتداء من الواقع الذى فرض نفسه، واقع مصر، روح الممالك الاسلامية، وباب الحرمين. ففى صون مصر داخل الملك الاسلامى وطرد الانجليز منها صون للممالك الإسلامية، وغلق لكل بلية قد تقع للمسألة الشرقية وبؤرتها ومحركها مصر. أوصل محمد على مصر إلى باب السعادة والثراء فى أقل وقت. وما أبعد الشقة بينه وبين الانجليز فى صنع مصر[١].

وقدم إلى الآستانة الخديوى عباس حلمى مع وفد من المصريين. فدعاه الخليفة إلى حدائق يلدز. وخطب فيهم الأفغانى بأن الخديوى قد أحسن صنعاً بزيارة دار الخلافة التى تجمع شتات المسلمين. ثم طلب الخديوى مقابلة جمال الدين فأذن السلطان. وقابله الأفغانى فى نزهته المعتادة. عبر الخديوى عن إعجابه بجمال الدين

---

[١] خاطرات ص ٢٦٦.

ومحبته له، ودعاه لزيارة مصر. ولم يتطرق إلى أى موضوع سياسى. ثم أبلغت الجواسيس السلطان أن جمال الدين قد تعهد للخديوى عباس بتأسيس دولة عباسية فى مصر كما فعل الخراسانى مع العباسيين قديماً. ومصر مفتاح الطريق إلى ربوع الدولة الإسلامية. وحذر الأفغانى السلطان من خطورة الجواسيس وشبههم بالكلب العقور الذى يمنع نزول صاحب المنزل لاستقبال الضيف أو صعود الضيف لصاحب المنزل. وقد اتهم عبد الله النديم بالمشاركة فى هذه الخطة لقوله دعابة إنه لو تخلصت مصر من براثن بريطانيا وتسنى لعباس أن تكون له همة محمد على ومضاء إبراهيم وسخاء إسماعيل لأصبح لائقاً للخلافة. ولكن ليس لأمير المؤمنين اليوم ولاية على ممالك الإسلام. ولايوجد مؤمنون ملتفون حوله. ولا توجد حرية للخليفة للتصرف، وليس لديه القوة للدفاع بها عن الإذلال واستعباد المسلمين فى بلادهم. ومع ذلك أخذ السلطان على الأفغانى اتصاله بعباس حلمى خديوى مصر من أجل نقل الخلافة إليه. وهو اتهام باطل. فالخلافة فى رأى الأفغانى، كفالة الله فى خلقه، لها صفاتها وشروطها. وعباس حلمى نظراً لظروفه أعجز من السلطان فى القيام بأعباء الخلافة[1].

والسودان جزء متمم لمصر. فالأفغانى من أوائل الذين وضعوا شعار وحدة وادى النيل. فمصر للمصريين والسودان جزء متمم لها. ويدافع الأفغانى عن السودان ضد الإنجليز كما يدافع عن مصر. والعثمانيون والمصريون يخففون من حدة ثورة المهدى حقنا للدماء ولكنهم متعاطفون معها، مؤيدون لها مثل تأييدهم لثورة عرابى. ويكشف الأفغانى تفصيلياً خداع الإنجليز فى السودان منذ كان اللورد دوفرين بالقاهرة لبيان حالة مصر وكتابة تقرير لحكومته عنها، وتلويح الإنجليز بالتنازل عن السودان حرصاً على عدم النفقات. وأصدرت الأمر إلى جوردون بالتخلى عن السودان لتوهم السودانيين بمنة الاستقلال. فعين المهدى أميراً على

---

(1) مقابلة جمال الدين للخديوى عباس حلمى واختلاق الجواسيس فرية. مسألة الدولة العباسية واهتمام السلطان عبد الحميد بذلك وما احتمل هذا الأمر الذى أقام وأقعد، وما جرى من مقابلة السيد السلطان وما دار بينهما من الحديث فى هذا الشأن. دعابة السيد عبد الله النديم فى بحث الدولة العباسية وتعريضه فيمن اختلقها فى ذلك الحين، خاطرات ص ١٢٠-١٢١

كردفان، ورد الاعتبار لأمرائها على الولايات للاستيلاء عليها تعويضاً لها عن مقاومة مصر، وإقامة سكة حديد من سواكن إلى بربر لخليص جوردون تظاهراً، والحقيقة لربط إنجلترا بالسودان عن طريق البحر مباشرة فى التجارة دون المرور بمصر. ومع ذلك حدث زلزال للإنكليز فى السودان. وزحف محمد أحمد عليه بجيش، والسلطان ومصر معه. ويحث الأفغانى مصر والمصريين على القيام بواجب الدين والوطن دون انتظار امر السلطان ضد الإنجليز ودون بيع البلاد بالنقد. والخائن للوطن خائن للدين. ويعطى الأفغانى نموذجاً من الخطاب الوطنى والدعوة إلى الجهاد اعتماداً على قول الاسلاف، والحث على الشجاعة ورفض الجبن. ويستعمل آيتين قرآنيتين ﴿**فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله مالايرجون**﴾ ، ﴿**يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله**﴾ ، ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾ ، ﴿**ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾. ويرفض الأفغانى تتويجه على السودان لأن ما لايملك لا يمنح، وصاحب الحق السلطان حى يرزق. ويخدع الإنجليز السودان كما يخدعون مصر لأن الذى يريد الإصلاح ينشىء الجامعات، وهى معدومة فى مصر والسودان[1]. وقد كان الموضوع الرئيسى للعروة الوثقى مصر وسوريا، وثورة المهدى فى السودان بالرغم من انتهاء الحركة وموت المهدى واحتلال الانجليز للسودان ومصر فدية لموت غوردون. فارتباط مصر بالسودان الاحتلال والثورة.

وإذا كانت السودان محور مصر الجنوبى فإن سوريا محور مصر الشمالى منذ صلاح الدين ووحدة مصر وسوريا لمواجهة الزحف الصليبى. والتاريخ يكرر نفسه. فمصر هى القلب، والساقان فى السودان، والرأس فى الشام. مصر هى مفتاح الحجاز وباب الأقطار الشامية. لذلك لا يوجد مصرى ينتقد سوريا أو سورى ينتقد مصرياً نظراً لرابطة الجنس، العروبة[2].

---

[1] الأعمال ص ٥٠٥ العروة جـ١ ص ١٣٢-١٣٨ سياسة انكلترا فى الشرق ص ٤٦٢ السودان، الأعمال ص ٤٩٨-٤٩٩ زلزال الانكليز فى السودان ص ٥٠١-٥٠٦ عبرة وذكرى، خاطرات ص ٣٩٨-٣٩٩.

[2] رجال الدولة وبطانة الملك، الأعمال ص ٣٩٨ ، التعصب ، ص ٣٠٧

لافرق بين بر الشام وبر مصر كما هو الحال فى نهضة العرب الحديثة. وقد كان معظم تلاميذ الأفغانى من بر الشام، أديب اسحق، وسليم النقاش، من المسيحيين. وكان أديب اسحق المسيحى أثيراً عند الأفغانى أكثر من محمد عبده المسلم. وقد حاول الغرب اجبار مصر وسوريا معاً على قبول المسيحية. وهو يدعى أن الإسلام متعصب. ومصر أيضاً بؤرة محورها الغربى العرب، فى المغرب العربى وإن كان الأفغانى لا يشير إليه كثيراً ولا إلى استعمار فرنسا للجزائر منذ ١٨٣٠ ولتونس بعد مصر مباشرة، ولكن ينبه على نفور العرب بالطبع من الخضوع للأجنبى. ولمصر أيضاً محورها فى الشرق، فى فارس والهند وأفغانستان. فوحدة الأفغان والفرس نواة وحدة الشرق، وظهير للمسألة المصرية. كما أن احتلال مصر وقناة السويس كان ذريعة لحماية الهند. فانجلترا عدو مشترك لمصر والهند حتى لقد أصبح ٢٢ فبراير ١٩٤٦ عيداً وطنياً عالمياً للطلاب يوم أن ضربت إنجلترا مظاهرات الطلاب فى مصر والهند فى آن واحد. فمصر والهند وريثا الشرق ومحركاه كما اتضح بعد ذلك فى حركة عدم الانحياز فى هذا العصر بقيادة عبد الناصر ونهرو [1]. فمصر طائر ساقاه فى السودان ورأسه فى الشام، وجناحه الغربى فى المغرب العربى وجناحه الشرقى فى فارس والهند. فإذا طارت نهض الشرق والغرب مع القلب، بدلا من أن يقوى الجناح الغربى فتطير متجهة غرباً كما يحدث هذه الأيام.

٣- مصر للمصريين

والأفغانى هو الذى وضع شعار "**مصر للمصريين**" الذى تحول إلى عنوان رسالة سليم النقاش التى تقدم بها فى باريس للحصول على الدكتوراه. والشعار موجه ضد سيطرة الأجانب على مصر ابتداء من الاحتلال الإنجليزى والامتيازات

---

(١) دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الافغان، الأعمال ص ٣١٨، الأعمال ١٦ د٥ أعمال الإنجليز فى مصر والهند ص ٤٣٦-٤٦٤ العروة جـ١ صـ ٢٠٧.

الأجنبية التى أدت إلى ثورة عرابى. وكان الناس أيام عرابى قسمين : الأول مع توفيق والثانى مع عرابى. الأول فاشل ، والثانى متردد. ومع الفشل تضيع الأمة، ومع التردد يغيب الحزم. فدخل الإنجليز مصر بلا حرب حقيقية، بالترغيب والترهيب والدسائس. فابتعد الناس عن عرابى ظانين أن الإنجليز يؤيدون توفيق. تساهل المصريون مع الانجليز وأحسنوا الظن بحكومة إنجلترا التى أوهمت بأنها جاءت دفاعاً عن الشرعية. ولايوجد من المصريين من يميل إليهم. وذهلوا عن الأسباب التى مكنت الإنجليز من النيل منهم مع أن الإنجليز دخلوا البلاد بمعونتهم. ولوعلم المصريون أنه ليس فى طاقة الإنجليز حشد أكثر من ٢٠,٠٠٠ جندى لمصر والسودان لقاوموهم فى الشرقية وفى منطقة البحيرات. والانجليز فى ارتباك شديد فى المسألة المصرية مع ضعفهم فى القوة العسكرية وتورطهم بسبب اختلاف الدول حول مقاصدهم. هذه هى الاسباب التى أدت إلى وقوع المصريين تحت سيطرة الإنجليز. القسم الأول يريد الحفاظ على الحالة القديمة وطاعة الخديوى، والثانى يميل إلى عرابى ولكنه يهاب القسم الأول. فارتاب فى أمره، ووهنت عزيمته. فدخل الإنجليز مصر من باب الوهم بلا حرب بدعوى تأييد الخديوى وتأديب الثائرين عليه. واقتنع المصريون أن صاحب السيادة الشرعية هو السلطان، ففاز الإنجليز غدراً. ودخل الإنجليز مصر بمعونة المصريين وتأييد الخديوى بفرمان من السلطان. هذا هو الوهم. كما يوحى الوهم بأن الإنجليز قادرون على السيطرة على الأهالى دون مقاومة. وهذا هو الفرق بين الإنجليز ومحمد على نابغة الدهر فيما حل بمصر، وهو الفرق بين الهدم والبناء، بين الأجنبى والوطنى، بين الاستعمار والاستقلال، بين العبودية والتحرر[1].

---

(١) الوهم، الأعمال ص ٣٦٨-٣٦٩ خاطرات ص ٢٦٠، انظر أيضاً دراستنا "الدين والثورة فى الثورة العرابية" فى الدين والثورة فى مصر جـ ٣ الدين والنضال الوطنى، القاهرة، مدبولى ١٩٧٩ ص ٢٤٥ - ٣٠٦.

وتضرب الإنجليز فى الأراضى المصرية ولا يتحرك أحد من إخوانهم الشرقيين مع أن احتلال مصر ينبه الأذهان. صحيح أن الاحتلال قانون تاريخى، احتلال القوى للضعيف، والموحد للمفكك مثل احتلال انجلترا لقوة كبيرة ضعفت وتفككت. وصحيح أيضاً أن التحرر من الاحتلال دفاعا عن الاستقلال قانون تاريخى كذلك. إذا تأنف الأمم من الخضوع للأجنبى المختلف عنها فى الأخلاق والعادات. لذلك نشأت حركة فكرية فى أغلب اقطار الشرق للمطالبة بالخلاص من الأجنبى والدعوة إلى الوحدة. ويضرب الأفغانى المثل لذلك بالحركة العرابية والتى يسميها "العشواء" بالرغم من أنه هو منظرها والتى اتخذها الانجليز ذريعة لاحتلال مصر، مما يبين أن نقد الأفغانى للثورة العرابية ليس لتعاليمها ومبادئها بل لطرق تنفيذها ووسائل تحقيقها على نحو أهوج غير منظم . وهى تشبه الثورة المهدية فى السودان عندما يقف السودانيون أمام البنادق بالسيوف. ومصر عند المسلمين من الأراضى المقدسة مثل الحرمين. لذلك حركت أحزان مصر أشجان المسلمين. وقد اعتمد الانكليز على المداهاة والمكر أكثر من الاعتماد على الجيوش. ولكن من الهند إلى مكة إلى مصر مازال الناس غافلين. ومع ذلك فقد جدد احتلال مصر الروابط ووحد الكلمة. كاد الانجليز لمصر مرة بدعوى الدفاع عن الخديوى والشرعية ضد الخارجين عليه والثائرين ضده، ومرة لاخضاع رجال الدين وأئمة المساجد وعلماء الأوقاف. وهى نفس الطرق التى اتبعتها إنجلترا فى الهند، الاستيلاء على الأوطان بالحيلة والدهاء وليس بالسلاح حتى ملكوا ثلث العالم. يشككون فى الحكام الوطنيين، ويقلبون عليهم الرعية للعصيان حتى يخلعوهم أوطىّ الضعيف الأحمق وإقامة صغير بدلا عنه. وقد يسلبونه كل شيء إلا اللقب ولواحقه مثل : نائب، صاحب، راجا، خديوى، سلطان. وأشهرهم حيلة اللورد نورثبروك (كرومر) الذى فقد حكم الهند. عذبها وبكى عليها، ووعدها بالإصلاح مثل زعيم المنافقين عبد الله ابن سلول. ثم خدع المصريين، واستعمل توفيق باشا لإدخال مصر تحت حماية إنجلترا، ويلقنه الأوامر. ثم خلع توفيق وطلب تولية عباس ولداً صغيراً. وجعل نوبار باشا

وزيراً يعنيه الإنجليز، وهو غير مسلم ولا عربى. وقام بنفس الشيء فى الهند، خلع أمير وتنصيب أمير. والحال هو سبات من له الحق وحراك من لا حق له[1]. فبينما تنظر أوروبا خاصة فرنسا إلى ضياع مصالحها فى مصر، والدولة العثمانية لما لها من مكانة فى قلوب الهنود، وإنجلترا بين أصابع آل عثمان فإن الناس لا تحرك ساكناً ولاتتقدم إلا بالشكوى، وهم فقراء. والانجليز تعد بالجلاء وهم على يقين أن الدولة العثمانية فى طريقها إلى الزوال. وأعلنت السيادة على مصر، وتم الاستيلاء على السودان فداء لرأس جوردون. وقد سمح العثمانيون لإنجلترا بذلك. وسكن الناس انتظاراً لوعود إنجلترا بالجلاء. فلما بسطت انجلترا سيادتها ثار الناس، وأيدوا الثورة المهدية فى السودان والثورة العرابية فى مصر.

وكما لا تكون مصر للمصريين إلا بالاستقلال والتحرر من الإنجليز كذلك لا تكون مصر للمصريين إلا بالحكم النيابى والتحرر من الاستبداد. ففى الشعب المصرى الخامل والجاهل، ولكن هناك أيضاً العاقل والعالم. وكما ينظر الأمير إلى الشعب ينظر الشعب إليه. النصيحة هى اشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى، وانتخاب نواب الأمة لسن القوانين. فهذا أثبت للعرش وأدوم للسلطان. وتتكون القوة النيابية من نفس الأمة وليس من قوة أجنبية تكون الأمة تابعة لها أوحماية منها. ويثبت التاريخ أن الملوك لم يثبتوا رغم إرادة الشعوب. وتستطيع الأمة أن تعيش بدون ملك ولكن الملك لايستطيع أن يعيش بدون أمة. ويكون المجلس النيابى المصرى مشابها للمجالس النيابية الأوروبية. أقل ما فيه من الأحزاب حزبان، حزب الشمال وحزب اليمين، الشمال للمعارضة واليمين للحكومة. والمجلس لا يعيش بقوة واحدة مناهضة للحكومة أو مؤيدة لها. ليس

---

[1] اسباب تخلف المسلمين، الأعمال ص ٣٦٠ احتلال مصر ينبه الأذهان، الأعمال ص ٤٨٣-٤٨٧ من المصائب والنوازل وبحثه فى التعصب الجنسى والتعصب الدينى وتتبعه سير انكلترا فى الحوادث المصرية سنة ١٨٨٤ وموقف الدولة العثمانية والفرنساوية إزاء تلك الحوادث، خاطرات ص ٣٧٣-٣٧٩ كيد الإنجليز لمصر، العروة جـ٢ص ١٧٥-١٧٧/٢٠٨ المعتمد البريطانى فى مصر ، الأعمال ص ٤٩٣-٤٩٦ سبات من له الحق وحراك من لاحق له، الأعمال ص ٤٨٩-٤٩١.

النائب هو هذا الوجيه الذى يمتص دماء الفلاح، الجبان الذى لا يقوى على مناهضة الحكام، الضعيف الذى لايملك الحجة تجاه الحاكم الظالم بل ذلك الرجل القوى فى الخير والحكمة والدفاع عن الوطن ومناقشة الحساب. ويرفض الأفغانى المجلس النيابى المزور والمعين الذى يزيف إرادة الأمة ويبرر للحاكم إرادته. ويتوجه بنداء إلى قيصر روسيا بأن تكون الملايين من الرعية أصدقاء للعرش خيراً من أن تكون أعداءا له تتربص به الفرص. كما يتوجه إلى شاه إيران ناصر الدين بأن عظمة التاج والعرش بالحكم الدستورى، وأن الفلاح والعامل والصانع أنفع للأمة من الأمراء والوزراء [1].

ولكن الأحزاب السياسة فى الشرق دواء وداء فى نفس الوقت. إذ تتألف الاحزاب لطلب الحرية والاستقلال، وتبدأ والكل أصدقاء. ثم ينتهون والكل أعداء بسبب عدم تكافؤ القوى بين الأمة وأحزابها السياسية أو بلغة العصر بين الدولة والمجتمع المدنى. إذ يقوم الحزب السياسى بعناصر ضعيفة وبأفراد قلائل، يعلنون برنامجاً لتحرير الأمة من الاستعمار والاستعباد فتتألف القلوب حولها، وتجمتع الكلمة. ويستحسنها الغريب، ويخافها الدخيل. تفرح الأمة ببرنامج الحزب ووعوده فى الآجل والعاجل فتؤازره وتطيعه. ثم بعد ذلك تظهر فى رؤساء الأحزاب الأثرة والأنانية، وتفضيل حب الذات على مصلحة الأمة. فتنزوى الناس عنه وتتكمش النفوس منه، وتترك الحزب أو تعاديه. لايعنى ذلك أنه لافائدة من الأحزاب على الإطلاق، فإن الشرق بعد أن وقع فى الاستعباد فى حاجة إلى يقظة، والحزب يقوم بذلك حتى يظهر فى الشرق أفراد كما ظهر فى الغرب أفراد يستشهدون فى سبيل الأوطان. حينئذ ينشأ الحزب لجمع الشتات، والقضاء على الذل، وبيان نعمة الإخاء والتعاون والاتحاد، يعمل على عزة البلاد ونصرة المظلوم. فواضح أن مهمة الحزب تربوية ثورية. وهو ماكان الأفغانى يحلم به بتأسيس العروة الوثقى، النواة السرية للحزب، وحولها تقوم الخلايا ، ولكنه لم ينج نظراً لعدم استقراره فى وطن.

---

[1] مصر والحكم النيابى، الأعمال ص ٤٧٣-٢٩٦/٤٧٥ رأيه فى مصر والمصريين وبيان صورة الحكم النيابى الذى يجب أن تحكم فيه مصر خصوصاً والشرق عموماً، خاطرات ص ٧٧-٨٠.

وهو ما حاوله حسن البنا بعده وينجح فى تأسيس جماعة الإخوان المسلمين. وهو ما نجحت فيه أيضا الجماعات الإسلامية ولكن دون نظرية ثورية[١].

ومع ذلك، وبالرغم من تأكيد الأفغانى على أهمية الحكم النيابى والتعدد الحزبى إلا أنه صاغ أيضاً نظريته فى "**المستبد العادل**" كنظام أمثل للشرق. فقد عرفت مصر النظام الفرعونى على ضفاف وادى النيل. وانتصر لها موسى ويوسف. فالمصريون فى حاجة إلى عزم وحكمة وقوة، وذلك لا يتم بالقهر بل بالكلمة وتوحيد الأهواء وتوجيهها نحو الغاية. وتلك مهمة الرجل القوى العادل. القوة المطلقة استبداد، والعدل بلا قوة تراخ. يحتاج العدل إلى قوة قصدية وهو ما يستطيعه المستبد العادل. لا تحكم مصر إلا بأهلها واشتراكهم فى الحكم والدستور الصحيح دفاعاً عن الحرية والاستقلال. فالحرية لايهبها الملك، والاستقلال لايعطيه المستبد. إنما يؤخذان بالكفاح. ولا يسلم الشكل الدستورى من رجل قوى. لذلك لا يحكم الشرق إلا قوة عادلة تخضع لها الأمة. وهى تحقق مصالحه. وهى قوة وطنية لأن الأمير الصالح القريب أولى من البعيد الغريب. أما الحكم الجمهورى فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله[٢].

ومصر أحب البلاد إلى الأفغانى، ترك لهم فيها محمد عبده، طودا من العلم الراسخ، وعرمرما من الحكمة والشمم وعلو الهمم. ومع ذلك مازال المصريون فى جمود وقعود. ويتساءل الأفغانى كيف لم يستطع الشيخ تحقيق مهمته وله تلاميذ مثل سعد زغلول؟ كيف لم تتألف منهم اليوم عصبة حق تقف للإنجليز، تحمى الهرمين وتصون الحرمين؟ يريد الأفغانى الاستمرار فى تلاميذه ليس فقط فى البداية فى الثورة العرابية ولكن أيضاً باستمرارها فى ثورة ١٩١٩م التى قادها سعد زغلول.

---

[١] رأيه فى الاحزاب السياسية فى الشرق، خاطرات ص٧٢-٧٤، انظر أيضاً تركيزنا على ذلك فى "التراث والتجديد"، موقفنا من التراث القديم، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٧-٥١.

[٢] رأيه فى مصر والمصريين وصورة الحكم أن تحكم فيه مصر خصوصا والشرق عموماً المعروف عنه قوله "يحتاج الشرق إلى مستبد عادل" وهو من قبيل الأضداد إذ كيف يجتمع العدل والاستبداد؟ وحير صفات الحاكم القوة والعدل وليس الضعيف العادل أو القوى الظالم، خاطرات ص ٧٨ مصر والمصريون والشرق، الأعمال ص٤٧٧-٤٧٩.

واستمرتراث الأفغاني في الحزب الوطني المصري الذي كتب برنامجه محمد عبده معبرا عن أفكار الأفغاني. كان الأفغاني يسمى محمد عبده الشيخ الصديق، وعبد الله النديم الصديق. كان عبد الله النديم كثير التردد في آخر ايامه على جمال الدين حتى غار منه محمد عبده. ذهب الشيخ محمد عبده إلى لندن لمناقشة المسؤولين. فناقش اللورد هرتكتون وزير الدفاع دفاعاً عن حق المصريين في الاستقلال لأن حب الأوطان مغروز في الطبيعة البشرية التي تنفر من الأجنبي، وأن مصر شعب تعلم منذ محمد عبده بعد أن رأى اللورد أن ذلك من خصائص الأمم المتعلمة المهذبة، وأن الشعوب المستعمرة مثلها مثل الحيوانات السائمة. فالمصريون إما أن يختاروا الاستقلال دفاعاً عن شرف الوطن أو الدين أو يكونوا كالحيوانات. لقد عرف الأفغاني محمد عبده في الضراء والنديم في السراء. وقد كان النديم نفسه كالأفغاني في النفي والسجن والحكم عليه بإهدار الدم[١].

كما أعتبر الأفغاني رياض باشا رمز الوطنية، ونعم الوطني الغيور. خدم بلاده. مواقفه كالهرمين، صائب الرأى، ثاقب الفكر. أقوم أمير، وأشد حرصاً على الاستقامة، وأبصر أهل البلاد بعواقب الأمور. نقد من يتجنس بالجنسية الإنجليزية ويصبح كالأجنبي. موقفه الوطني جعله يرفض الحماية فلفظ "**برتكتورا**" غير مفهوم. فأما ترك إنجلترا البلاد وإما احتلالها ولا وسط بين الاثنين. وشريف في وطنيته مثل رياض. لذلك تأسست مجلة الرياض المصرية على اسمه والتي قال فيها الأفغاني إنه يعيش "**زمن تحرير الأرقاء وإسارة الأحرار**". ويغادر الأفغاني إلى لندن وباريس ويطالب بأمواله وكتبه من رياض باشا، ويبين ما وقع له في الهند. ويطلب من عبد الله فكري التدخل لصالحه. أما نوبار باشا فعلى العكس رمز الخيانة. ليس مصرياً ولا عربياً ولا مسلماً. باع مصر بثمن بخس. طالب بإبعاد الوطنيين من مصر مثل الزبير ورياض وشريف وكل شريف وربما أيضاً منع العروة الوثقى، وطالب بإغلاق الأزهر. عطل جريدة وطنية كالأهرام شهرا وزج بأصحابها في السجون. عمل على نكاية مصر. وتبوأ منصب رئيس النظار وليس بينه وبين

---

[١] توفي سعد زغلول في ١٩٢٧ ورثاه المحزومي في الخاطرات ص ١٢٨-٢٢٩. هؤلاء رجال الإنكليز وهذه افكارهم، العروة جـ٢ص٢١٣-١١٧.

المصريين أى صلة. فلو باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح. ولا يخسر ببيعه ملة أو دين أوصلة أو جنس. ومن الدخلاء فى مصر ما هو أشنع من نوبار وآلة للاستعباد. والخونة لا يتبدلون إلا فى الأسماء. لذلك وجببت مواجهة نوبار وإحباط مساعيه ومساعي أوليائه الإنجليز فى الكيد لمصر وتطبيق ما يسمى بإصلاحات للورد دوفرين التى عارضها رياض. ومثل نوبار الضابط عثمان باشا. ففى رسالة إلى عبد الله فكرى يصرح الأفغانى أنه لم يضمر للخديوى ولا للمصريين شرا ولا أراد ضرا، ولكن الضابط عثمان باشا نهشه ضغينة منه على إبراهيم اللقانى وإغراء من أعدائه، أحزاب عبد الحليم باشا. كان الأفغانى يقف فى صف الوطنيين المصريين مثل رياض وشريف ضد الأجانب المتغربين مثل نوبار وعثمان وغيرهم من الأرمن والشراكسة تحقيقاً لشعاره "**مصر للمصريين**"[1].

---

[1] رياض باشا، حاطرات ص ٣٦٥-٣٧١/ ٢٢٧-٢٣١ فى التربية والتعليم. الأعمال ص ٢٧٨ العروة ص٢ ص١٤٢-١٤٧ نوبار رمز الخيانة. الأعمال ص ٥٣٨-٥٣٩ رسالة من جمال الدين إلى عبد الله فكرى، الأعمال ص ٤٨١.

الفصل السابع

الأمة فى التاريخ

١- وحدة الأمة

إذا كانت مصر والشرق تعبر ان عن أحد جوانب الفلسفة السياسية عند الأفغانى فإن الأمة فى التاريخ تعبر عن فلسفته فى التاريخ ، تحويل فلسفة السياسة إلى دراما التاريخ.

والأمة واحدة، ترتبط فيما بينها برابطة الدين لا الجنس، بعصبة الاخوة وليس بعصبة العرق. ويستعيد الأفغانى العصبية عند ابن خلدون بمعنى الترابط الاجتماعى بالإضافة إلى الإخوة الدينية. والتعصب تهمة لصقها الأفرنجى بالإسلام والمقلدون لهم واتهام كل من يحافظ على شريعته بالتعصب Fanatisme مطالبين بالقضاء على التعصب الدينى. والتعصب من العصبية نسبة إلى العصبة والقوم. والعصبة بهذا المعنى أساس الترابط بين الشعوب واتحاد الكلمة، روح كلى يربط بين الأفراد، يحميه من الأجنبى ويرفع الرؤوس. وهى سنة الله فى خلقه. إذا ضعفت العصبية فشلوا وغفل بعضهم عن بعض وتقطعت الأواصر فيدخل الأجانب. والتعصب له حد الاعتدال والتفريط. اعتداله كمال، وتفريطه نقص. الكمال وحدة ترابط، والنقص الدفاع عن النفس عن حق أو باطل وهو الممقوت على لسان الشرع فى حديث "**ليس منا من دعا إلى عصبية**". التعصب الإيجابى نعرة على الجنس والنسب والاجتماع فى منبت واحد والترابط بين النوع. هوالذى يربط المصرى بالتركى والعربى والفارسى والهندى والمغربى. الأصل عون والعرق جساس[1]. والتعصب المرذول هو الذى قاد الغرب إلى اندفاعه نحو بلاد المشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح أو الدعوة إلى الدين كما هو الحال فى

---

[1] التعصب ، الأعمال ص ٣٠٢-٣١٠ خاطرات ص ٣٥٤-٣٦٥/ ٣٨٩.

الحروب الصليبية وكما فعل الاسبان فى طرد المسلمين من الاندلس وحرق المسيحيين اليهود فى القدس.

وإذا كانت رابطة العصبية قد تتحول إلى تعصب عرقى فإن رابطة الأخوة الدينية قد تتحول أيضاً إلى تعصب دينى. ولا فرق بين التعصب الجنسي والتعصب الدينى فى أن كليهما ذميم وإن كان الثانى أظهر من الأول. والعصبية قد تكون من الدين أو النسب. وهما رابطتان عند كل البشر. وصدرت عنهما آثار يفتخر بها الإنسان. وأوصلا الأقوام إلى المجد. ويأمر القرآن برابطة الدين ﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء**﴾ وللتمييز بين رابطة الدين ورابطة التعصب. الدين أول معلم ومرشد لاكتساب المعارف والعلوم والتحلى بالأخلاق الكريمة والفتح والدعوة للدين كما كان الحال فى عصر الفتوحات الأولى بناء على تعاليم الاسلام وحديث الرسول "**ان من رضى بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا**"، وآية ﴿**يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين**﴾ . وقد وصل رؤساء من الأديان الأخرى إلى مناصب عالية فى الدولة الإسلامية مالم يبلغه الغرب والروم. وساروا على نحو عادل على خلاف اليونان والرومان الذين كانوا يطالبون الناس بالتخلى عن دينهم والاقتناع بدين الغزاة كما فعلوا فى مصر وسوريا وفى البلاد الأوروبية نفسها.

ولما أراد الغرب السيطرة على المسلمين أوحى لهم بأن رابطة الدين تعصب، وهو المتعصب دينياً وجنسياً. وحاول إبعاد الأمة عن الدين وكما فعل الإنجليز فى الهند واعتمادهم على الدهريين فى إخراج المسلمين عن دينهم. وأنشأوا مدرسة فى عليكره وجريدة لتحقيق هذا الغرض حتى تضعف العقائد فيتسلط الإنجليز "**تعس من يبيع ملته بلقمة وذمته برذائل العيش**". كان أسلوب الأوروبيين للنيل من الشرقيين لايقاع البلاد العثمانية والمصرية بالتعاون مع المدعين بالعلم والمدنية الحديثة ذم التعصب الدينى واعتباره ضد العلم والمدنية، لافرق بين تعصب معتدل وتعصب مرذول. والغربيون أشد تعصباً. يتشدقون بالحرية مثل جلادستون،

وهو بطرس الراهب. ليست الرابطة الدينية تعصبا بل أحكم الروابط بين التركى والعربى والفارسى والهندى والمصرى والمغربى. وهى أساس المنافع الوطنية من أرباب الديانات المختلفة. فالمصلحة واحدة للجميع. ليست عصبة الدين وسيلة للعدوان وانتهاك حقوق الآخرين بل هى وسيلة للدفاع عن النفس وتقوية أواصر الأخوة بين المسلمين. ولاتكفى العصبة فى الداخل بل هى فى الخارج أيضاً من أجل التنافس بين الأمم فى القوة والسلطان واكتساب العلوم الناقصة والفضائل الخلقية والكمالات الإنسانية "**أجعلوا عصبيكم سبيلاً لتوحيد كلمتكم واجتماع شملكم، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة الكمال**"، ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان**﴾.

ويحول الأفغانى رابطة الجنس وعصبة الدين إلى قانون عام لقيام الأمم وانحطاطها. إذ لا تتكون الدول إلا بقوتين : الجنس للاتحاد ولمغالبة الآخرين، والدين الذى يجمع الكلمة ويوحد الوجهة. ويعطى الأفغانى نماذج من التاريخ، قيام العرب وسقوط العثمانيين. بدأ العرب فى التاريخ بقوة العروبة والتوحيد بين القبائل. وجاء الإسلام فضم إلى وحدة الجنس عصبة الدين، فانتشر المسلمون فى الأرض فاتحين. ودانت لهم القياصرة والأكاسرة من أسبانيا غرباً إلى خراسان شرقاً فى أقل من ثمانين عاما. واستمر الأمر كذلك عند الأمويين والعباسيين، ووصل إلى الذروة فى عصر المأمون والرشيد. ثم حدث التقهقر، ليس لقلة العدد بل لاهمال أسباب التقدم، حكمة الدين والعمل بها، جمع الأهواء وتوحيد الكلمة. فشى الجهل فى الخلفاء، وبعدوا عن العلم بحقيقة الدين. وهن الملك ولم تبق إلاعصبة الجنس والقبائل. ثم فقدوا عصبة الجنس فلم يبق شىء، ﴿**وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾. نظراً لوحدة الجنس لم يدخل الغريب فى بداية الدولة، وفى نهايتها دخل الغريب فقوى، واستولى على الدولة. والأمثلة على ذلك كثيرة. وما حدث للعرب تكرر للعثمانيين. استعملوا الغريب فى لحظة الانهيار، عكس الأوروبيين الذين لا يوجد لديهم مستشار هندى أو مصرى. فى الدولة العثمانية مستشار الخارجية أرتين

باشا الارمنى وسفيرها لدى إنجلترا موزوروس باشا الرومى. وحاكم جزيرة كريت قسطاكى باشا. وشغلت مناصب الدولة ببورغاكى وقسطاكى وآعزب وأوخانس. ولكل منهم أمة يحكمها العثمانيون، وتريد التخلص منهم. فكان ولاء هؤلاء الرجال لأممهم وليس للدولة العثمانية. واضح أن الأفغانى يصف الشعوبية قديماً وهى الارتباط برابطة الجنس وليس برابطة الدين كأحد عناصر الانحلال فى الحكم العربى أولاً، وتعيين الأجانب الذى لايرتبطون بالأمة بوحدة الجنس ولا الدين كأحد أسباب انهيار الدولة العثمانية حديثاً. فى التاريخ القديم، دين بلاجنس وفى الحالة الثانية لا جنس ولادين. مع أن الشريعة الإسلامية تبيح توظيف غير المسلمين فى كل وظائف الدولة المدنية حتى وزارة التنفيذ. وقد كان من سمات العثمانيين هذا الانفتاح على أممهم والاعتماد على خبرائهم. إنما القضية كانت فى الأمم ونزعاتهم الاستقلالية وولائهم لأقوامهم وليس للدولة العثمانية [1]. ويضع الأفغانى قانوناً أنه فى عزة الدولة تم توظيف الغريب باسم وحدة الدين وفى ضعفها ثم استبعاده باسم وحدة الجنس. مع أنه فى الشريعة وحدة الدين كافية لتجاوز وحدة الجنس. فالأمة الإسلامية مكونة من أقوام عدة ساوى بينها الإسلام من حيث المبدأ وتركها تتنافس وتتسابق نحو الخير، ولاتفترق الأفراد فى كل منها إلا بالعمل الصالح. وهو نوع من تحويل التاريخ إلى مثال كما هو الحال فى الحركة السلفية المعاصرة.

وباستقراء أحوال الأفراد والشعوب توجد نعرة للجنس وتعصب له، ولكنه ليس من الثوابت فى الطبيعة البشرية بل من عوارضها. فالإنسان له منافع يحصل عليها بالتربية. وفى حالة العدوان يحتمى الناس بالنسب حتى كوّنوا أقواماً وأجناساً. وتوزعوا إلى الهندى والإنجليزى والروسى والتركمانى. فلو زالت الضرورة التى أدت إلى هذا النوع من العصبية لاختفت عصبية الجنس. وتساوى الناس أمام الله

---

[1] عصبية الجنس وعصبة الدين، الأعمال ص ٣١٢-٣١٤ رأيه مختصراً فى الدولة الإسلامية ومحاكمته لما أتوه من الخطأ والصواب، وأسباب ما نراه فى الاشياع والاتباع من التقهقر والانحطاط ، خاطرات ص٢٣٧-٢٤٠.

العلى الكبير بدلاً من خضوعهم للحاكم القاهر. لذلك أعرض المسلمون عن الجنسيات فى وقت قوتهم ولجأوا إليها فى وقت ضعفهم. الدين الإسلامى أقوى رابطة تذوب فيها روابط الاجناس وكما قال الرسول "**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**"، وكما ذكر القرآن ﴿**إن أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾. وقد حكمت المسلمين أجناس عدة لافرق بينهم مادموا يلتزمون بالشرع، لافرق بين عربى وعجمى وحبشى وتركى وهندى وأفغانى. لذلك يتأسف المسلمون دون غيرهم على انهيار وحدة الأمة إلى عصبية الجنس. فواضح أن الأفغانى يرى أن عصبة الجنس مكتسبة وليست طبيعية فى البشر. سببها التجمع بين قوم واحد درءاً للعدوان وليس للعدوان[1].

أما الوحدة الإسلامية فإنها تقوم على الإخوة الدينية، ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا**﴾. قوة المسلمين فى دينهم وإيمانهم، وينعكس على وحدة الأمة. وتطالب الشريعة بالوحدة والارتباط، وتظهر العقيدة، التوحيد، فى حياة الجماعة. الإخوة الإسلامية نسب وقرابة، أخوة فى الله ونصر للدين وليست للعدوان. والملة جسم عظيم قوى البنية. يصاب بأمراض مثل الانحلال وضعف الروابط مما أدى إلى انقسام الخلافة إلى دويلات فى الداخل، والغارة على العالم الإسلامى فى الخارج، من الغرب والشرق على حد سواء ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾. الوحدة هى الأساس والتجزئة طارئة. والنهضة هى الأصل والسقوط طارىء. والتفاؤل هو الدائم والتشاؤم وقتى. والفضائل هى القاعدة والرذائل استثناء. والعلم هو الجوهرى والجهل عرضى. والنصر هو الثابت والهزيمة متغيرة.

ويستقرىء الأفغانى حوادث التاريخ، ويقرأ سنن الكون، ويتخذ العبرة التى لخصها القرآن فى محكم الآيات مثل ﴿**وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾ للتأكيد على الوحدة الإسلامية كقانون للتاريخ. الوحدة سبب

---

[1] الجنسية والديانة الإسلامية، الأعمال ص ٣٤٨-٣٥١ التعصب الجنسى والتعصب الدينى، خاطرات ص٣٨٢-٣٨٦ العروة جـ١ ص١١٣-١٢١.

النهضة والتفكك سبب السقوط. ويتذكر وحدة الأمة الماضية من المغرب الأقصى غربا إلى الصين شرقاً، ومن قازان شمالا إلى سرنديب جنوباً، أراضى وثروات وعمران، وظهور حكماء الشرق، الرازى والفارابى وابن سينا، وحكماء الغرب ابن ماجة وابن طفيل وابن رشد. وتفوقوا فى العلوم العقلية والشرعية. وكان الخليفة العباسى موضع رهبة من كل الملوك فى الشرق والغرب. وكذلك كان باقى حكام المسلمين مثل محمود الغزنوى، وملكشاه السلجوقى، وصلاح الدين الأيوبى، (تيمورلنك) ومحمد الفاتح، والسلطان سليم، وسليمان القانونى. كانت أساطيل المسلمين فى البحر الأبيض والمحيط الهندى، تحمى الديار الموروثة عن الآباء. والقرآن يعطى العقائد الصحيحة، ويطرد الأوهام، ويحث على الكمال الإنسانى. ويتحقق الوعد والاستقلال ووراثة الأرض. وقد تم ذلك بفضل وحدة الأمة والاخاء، والافتخار بالتمسك بأصول الدين ورابطة الأخوة والتواصل بين التركى والهندى والأفغانى والحجازى.

ثم انهار البنيان، وتفككت الأمة، واستعمرتها القوى الأجنبية وتأخرت فى المنافع والصنائع. فلا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم. تفرق الأمراء فتسلط عليهم الأعداء. ساد الهوى، واكتفوا بمظاهر الإمارة، ووالوا الأجنبى فضاع الأندلس، وانتهت السلطة التيمورية فى الهند، وظهر الحرص على الدنيا، وضاعت وحدة الكلمة. ولو اتبع المسلمون عقائدهم ورعاية العلماء لتوحدت الكلمة. ويقترح الأفغانى طرقاً ثلاثا : الأول إثارة الأذهان وتنبيه الغافلين لمعرفة ما يكون به الدفاع، والثانى اتفاق الآراء على القيام بذلك وتوحيد الكلمة أى القرار الجماعى، والثالث الارتباط القلبى بين الإخوة لبناء الأقطار. وقد توحد الروس وكانوا متأخرين عن أوروبا بهذه الطرق الثلاث حتى ارتقت فى الفن العسكرى. ولكن الأمراء المترفين تقاعسوا، وركنوا إلى الدنيا، يحرصون على الألقاب والمظاهر فى المواسم والأعياد، والانحناءات كرد التحيات والتوقيعات على الأوراق الرسمية بأسماء لامسميات لها، والنياشين على الصدور. فلا سبيل للخروج من هذا التفكك والانهيار

إلا بالوحدة ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. من الصعب توحيد الأمـراء فـى شخص واحد بل توحيدهم تحت سلطان القرآن ووجهة الديـن. لايكفـى الحـزن بـل العمـل لتجـاوز اليأس والضعف ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنـون ثـم تـردون إلـى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون﴾، والابتعـاد عمـن كـره اللـه انبعـاثهم فثبطهم وقيل لهم اقعدوا مع القاعدين أو من الذين ﴿رضوا بأن يكونوا مـع الخوالـف، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾. القرآن حى لايموت ولم ينسخ بوحـى آخـر ﴿ومـا اللـه بغـافل عمـا تعملـون﴾. وللعلمـاء العـاملين اليـد الطولـى فـى هـذا العمـل الشريف[1].

وبالفعل، دبت الحياة فى الممالك الشرقية فهبت من رقدتها، فتوحد الفرس مع الأفغـان بالاتفـاق علـى أصـل واحـد، ورابطـة واحـدة، الديـن الإسـلامى ونشـر ذلـك الاتفاق على إخوانهم فى الهند. ولا اختـلاف بينهـم فـى المذهـب يدعـو إلـى الفرقـة. والجزء لا يضحى بالكل، والفرع لا يقضى على الأصل. الوحدة الدينية إذن أسـاس الوحدة السياسية والحضارية لمقاومة العادين والطامعين. وقـد تـم اسـتيلاء الإنجليـز على بلاد الهند لخلافهم مـع الأفغـان. وكـل مسـلم فـى الهنـد، فـى بنجـاب، شـاخص ببصره إلى هذه الوحدة بين الفرس والأفغان. فالاتحاد أفضل وسيلة لـدرء العدوان. واتفاق سلطنة الشاه مع إمارة الأفغان، قوة إسلامية جديدة في الشـرق، نـواة الاتحـاد بـلاد الشـرق. وفـى وسـطها الخلافـة العظمـى لاسـتعادة عـز الأمـة وسـيرة الإسـلام الأولى، فتخشاه أوروبا.

ويعبر الأفغانى عن أهمية الوحـدة الدينيـة بأقوالـه المـأثورة مثـل : شـر دواء الشرقيين اختلافهـم علـى الاتحـاد، واتحـادهم علـى الاختـلاف. فقد اتفقـوا علـى ألا يتفقوا، عدم التشاكل من أعقد المشاكل أى إدراك العالم بعين الاختلاف وليـس بعيـن التشابه، لايتم عمل والتآلف مفقود، بالضبط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة، وهذا الضبط هـو الـترابط الدينـى. الشـرق، الشـرق، داؤه انقسـام أهليـه، وتشـتت آرائهـم،

---

[1] الوحدة الإسلامية، الأعمال ص ٣٤١-٣٤٦، بين الأجداد والأحفاد، الأعمال ص ٢٠٤-٢٠٦.

واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، اتفاقهم على عدم الاتفاق، واختلافهم على الاتفاق. لقد تفرقت كلمة الشرقيين عموماً، والمسلمين خصوصاً. وقد كان اتهام الغرب الشرقيين بالتعصب من أجل تفكيكهم وابتلاعهم وفرض المسيحية عليهم باسم الحرية[١].

ويفصل الأفغانى دعوته لاتحاد الفرس مع الأفغان فى آسيا مثل دعوته لوحدة وادى النيل فى أفريقيا، الأولى نواة لوحدة المشرق الإسلامى والثانية دولة ـ قاعدة لوحدة المغرب الإسلامى. ولما كانت مصر بين آسيا وأفريقيا فإن نواة الوحدة الإسلامية فى المشرق والمغرب هى مصر. ويصدر الأفغانى ودعوته بحديث "**إذا أراد الله بقوم خيراً جمع كلمتهم**"، والتعبير عن سروره بخدمة الجرائد الفارسية لأوطانها واعتدالها ونقلها بعض أبواب العروة الوثقى إلى الفارسية تنبيها للمسلمين، وإنارة للعقول من أجل تعميم الفائدة. واللغة الفارسية فى الشرق كاللغة الفرنسية فى الغرب تعبر عن إبداع القرائح السليمة خاصة فيما يتعلق بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية واحياء الرابطة الملية بين المسلمين خاصة بين الإيرانيين والأفغانيين. وهما فرعان لشجرة واحدة وشعبتان لأصل واحد، هو الأصل الفارسى القديم. ومن الطبيعى أن تكون المبادرة من الإيرانيين. فالعلماء من فارس: البخارى، ومسلم، والنيسابورى، والنسائى، والترمذى، وابن ماجه، وأبو داود، والبغوى، والبلخى، والكلينى، والرازى الطبيب، والرازى المفسر، والغزالى، والاسفراييني، والبيضاوى، والطوسى، والأبهرى، والايجى، وابن سينا، والسهرودى، وكثير من المحدثين من العلماء والمفسرين والمتكلمين والفلاسفة والصوفية. وكانوا أول من خدم اللسان العربى وضبط أصوله مثل سيبويه، وأبو على الفارسى، والرضى، والجرجانى، والجوهرى، والفيروزبادى، والزمخشرى، والكسائى، والاصفهانى، والهمذانى من علماء القرآن والبلاغة، والطبرى،

---

[١] خاطرات ص ٢٦٨-٢٧١ ص ٣٩٣/٣٩٨ وحدة الأديان وانقسامات تجارها، الأعمال ص ٣١٨/٣٩٦ سنن الله فى الأمم، الأعمال ٣٩٩.

والاصطخرى، والقزوينى من المؤرخين والجغرافيين، والشبلى، والبسطامى، والهروى، استاذ ابن عربى من الصوفية، والبزدوى، والآمدى، والميرغدانى، والسرخسى، والتفتازانى، والشريف، والابيوردى من الفقهاء، والقطب، والصدر الشيرازى، وميرباقر، وميرفندركس من الحكماء. لذلك قال الرسول "**لو كان العلم فى الثريا لناله رجال من فارس**" . فالفرس مهينون للمبادرة للوحدة الدينية كما ابدعوا فى العالم، واسترجاع فتوة الاسلام الأولى، والوحدة مع الأفغان والتحالف معهم على مقاومة المعتدين. وقد تم استيلاء الإنجليز على الممالك الهندية بسبب الخلاف بين الفرس والأفغان، وكل مسلم فى الهند ينظر إليهم. وحدة الفرس والأفغان هو السد المنيع الذى يحمى الهند من الشمال ضد الغزو الأجنبى. وأمير الأفغان والأفغان من أشد الناس عداوة للإنجليز. فلو اتحد الأمير مع الشاه لوجدت قوة إسلامية فى المشرق نواة لتوحيده، وكانت رصيداً للمسألة المصرية. مهمة الفرس بيان أسس هذا الاتحاد وأهميته وضرورته. وقد بدأ الروس الهجوم على الهند وأوروبا مشغولة بمقاصدها . فاتحاد إيران وافغانستان تدعيم لمقاومة الهند للغزو الروسى خاصة وأن الهند بعيدة عن روسيا، وجبالها وعرة، ولاسبيل إلى الوصول إلى الهند الا عبر فارس وأفغانستان. وليس من المعقول أن تستعمر روسيا الهند عن طريق إيران وافغانستان ومشاركتهما فى الغنيمة. ورابطة الدين الإسلامى أقوى الروابط بين الفرس والأفغان والهنود، وترك الخلافة المذهبى الفرعى إلى المصالح العامة والدفاع عن الأوطان. وقد اختلف الألمان فى الدين المسيحى كما يختلف الإيرانيون مع الأفغان فى الاسلام ولم يكن لهذا الاختلاف الفرعى أساس فى الوحدة السياسية. توحد الألمان بعد أن ضعفوا، ولم يكن لهم دور فى السياسة الأوروبية. فراعوا الوحدة الوطنية فى المصالح العامة. واللسان الفارسى هو لسان الطائفتين، وبالتالى تكون مهمة الجرائد الفارسية العمل لهذه الدعوة[1].

---

[1] دعوة الفرس للاتحاد مع الأفغان، الأعمال ص ٣٢٦-٣٢٠.

واضح أن الأفغانى يؤسس الدعوة للوحدة على الرصيد التاريخ الحضارى والثقافة المشتركة بين الشعوب الإسلامية. كما يعتمد على التجارب الأوروبية المعاصرة مثل الوحدة الألمانية من أجل تدعيم الوحدة الإسلامية.

ويستبعد الأفغانى كون الفرس من الشيعة والأفغان من السنة أن يكون ذلك مانعا من الوحدة بينهما كما لم تكن البروتستانتية والكاثوليكية ما نعتين من وحدة الشعب الألمانى. فقد ظهرت أحزاب وشيع منها من ضلت مثل المؤلهة التى تقول بألوهية على، والمفضلة والغلاة فى محبة آل البيت طريقاً للقول المأثور "**يهلك فينا أهل البيت، محب غال، ومبغض غال** ". المفضلة من الشيعة يقلدون جعفر الصادق، من كبار فقهاء آل البيت، يغالون فى تفضيل على، ولكنهم لايخرجون على الأمة. إنما هى فروع أوجبت الخصام فالاقتتال لجهل الأمة وسفه الملوك الطامعين فى توسيع الممالك. ملوك السنة هولوا وعظموا أمر الشيعة لاستهواء العامة بأوهام ضد شيعة آل البيت ليتسنى لهم قتالهم، فيقتل المسلمون بعضهم بعضاً بحجة الشيعة والسنة، والكل موحد بالله، مؤمن بالكتاب والسنة. أما مسألة تفضيل على والانتصار له يوم قتال معاوية، والخروج عليه فلو كانت فى هذا الزمن مفيدة ولإحقاق الحق فإنها لم تعد كذلك اليوم ولا ينشأ منها إلا الضرر وتفكيك عرى وحدة الأمة. فهل لو أجمع أهل السنة اليوم، ووافقوا المفضلة، وأقروا بأولوية علىّ بالخلافة قبل أبى بكر فهل يحسّن ذلك حال السنة والشيعة؟ ولووافقت الشيعة أهل السنة على أولوية أبى بكر وأحقه بالخلافة فهل ينهض أهل السنة مما وقعوا فيه من مذلة وهوان؟ لايرضى علىّ عن الشيعة إذا قاتلوا أهل السنة لمجرد تفضيله على أبى بكر. ولايرضى أبو بكر أن تدافع أهل السنة عنه، وتقاتل الشيعة لأفضليته التى تخالف روح القرآن، وأن المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. أن قصة التفضيل لو استحقت البحث لكفى أن يقال لحلها إن أقصر الخلفاء الراشدين عمر تولى الخلافة قبل أطولهم عمراً. فلو تولى الخلافة على لمات أبو بكر وعمر وعثمان ولم يتيسرلهم خدمة الاسلام[1]. يقدم الأفغانى هنا حجة الأمر الواقع على

---

[1] أمة واحدة لاسنة ولا شيعة، الأعمال ص ٣٢٤-٣٢٥ نفور الأفغانى من قول سنى وشيعى، وأن لاموجب لهذه التفرقة التى أحدثتها مطامع الملوك وجهل الأمة، خاطرات ص ١١/١٦٨-١٧٠.

حجة شرعية الفكر، ومقياس المنفعة وأولويته على الضرر، والزمن الحاضر وأوليته على الماضى، وضرورة الوحدة على الانقسام.

والدين واحد بالرغم من تعدده، والاديان متفقة فى الهدف والقصد والغاية. هناك ثلاث ديانات كبرى: اليهودية النصرانية والاسلام، وكتبها السماوية: التوارة والانجيل والقرآن. القصد منها واحد، ارشاد الخلق إلى الحق، وتوجيههم إلى الطريق المستقيم فى العبادات والمعاملات، وبيان مشيئة الله فى خلقه وصون مصالح العباد. وهو قصد واحد، ومشيئة واحدة. والكتب السماوية كلها تهدف إلى غاية واحدة. عبادة الله واحدة، والمعاد واحد، أنانية الإنسان وحبه الذاتى ورغبته فى البقاء بعد الموت، وكأن الأفغانى يؤسس العقائد فى التجربة الإنسانية. لايوجد فى الأديان الثلاثة مايخالف نفع مجموع البشر. الكل يعمل للخير المطلق، ودفع الشر، وجلب المنافع، ودفع المضار. الأديان الثلاثة، الموسوية والعيسوية والمحمدية متفقة فى المبدأ والغاية. وكل منها يكمل الآخر فى الخير المطلق. وإذا قدم العهد ونشأ الطغيان أوسادت الكهانة ظهر نبى لاكمال الناقص. فوحدة الأديان طريق البشرية إلى السلام. القصد واحد وهو التحرر، كمال العقل الإنسانى واستقلال الإرادة البشرية. فإذا ماضعفت الإنسانية عبر التاريخ وضعت فى الخرافة والجهل أورضت بالطغيان يظهر نبى يذكّر بالقصد والغاية. فالوحى مربى الإنسانية(١).

والخلاف فيها بين رجلين : الأول يؤمن بالوحى ويثبت الأنبياء، والآخر يجحد بالوحى وينكر الانبياء. الأول يدرك وحدة الأديان، والثانى يقول إن الكون ليس فيه جديد ويأتى العلماء فيصوغونه. توحيد الله عند قدماء المصريين قبل موسى، والتثليث من الوثنيين، قال به فيثاغورث قبل المسيح. وموسى وعيسى ومحمد اعتمدوا على أقوال الحكماء القدماء وضموها إلى كتبهم. فهى كتب بشرية وليست إلهية. ولو كان بهذه الكتب بعض النفع فضررها أعظم. وقد سببت الشحناء والبغضاء. ولو كان الدين حقيقة لما وقع الاختلاف فيه. ويرد الأفغانى على الجاحد

---

(١) انظر دراستنا وترجمتنا للسنج : تربية الجنس البشرى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧.

بأن الاتفاق بين الأديان حقيقة، والاختلاف من صنع رؤساء تلك الأديان الذين يتاجرون بالدين ويشرون بآياته ثمناً قليلاً. وما أنفع رجال الدين إذا صلحوا وما أضرهم إذا فسدوا. الأديان الثلاثة واحدة، يكمل بعضها بعضاً، إلا أن كل طائفة اعتبرت نفسها حانوتا أو متجراً. فظهر الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية كما قال الشاعر :

قد يفتح المرأ حانوتاً لمتجره ∴ وقد فتحت لك الحانوت فى الدين

صيرت دينك شاهيناً تصيد به ∴ وليس يفلح أصحاب الشواهين

فإذا قاوم رجل الاختلاف قطع رزقهم، واتهموه بالكفر والزندقة والالحاد والجحود والمروق على الدين. فأكبر خطأ مس كرامة الدين لمجرد عمل يأتيه فرد من رجال هذا الدين. والإيمان واليقين ليس معناهما عبادة رؤساء الدين. لقد تحولت الأديان إلى متاجر وحوانيت. وينقد الأفغانى بالمناسبة الشيخ الميرغنى الذى صاحب فرقة إنجليزية ضد ثورة القبائل السودانية، والشرع يحذر منه. وقد حكم العلماء بمروقه، وهو مثل نقد الكندى لرجال الدين الذين يدافعون عن مناصبهم المزورة باسم الدين وهم عدماء الدين لأن من جهل الحق عاداه فى أول رسالته إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى.

وتنشأ الشبهات حول الأديان بمقارنة المثال بالواقع، ما ينبغى أن يكون بما هو كائن . فقد سأل أحد نواب الهند: إذا كان الاسلام هو الدين الحق فلماذا تقهقر المسلمون؟ ويرد الأفغانى على ذلك بحجة جدلية بأن الدين الحق هو الظاهر وليس الاسلام. وإذا كان المسلمون غير ذلك فهذا لا ينفى الاسلام لأن حجة الواقع لا تطعن فى الفكر. والدين الحق هو الدين الواحد وليس مراحلة المتتالية، اليهودية والنصرانية والاسلام. الدين الحق هو الدين الخالص. كما يستعمل الأفغانى حجة خيالية، إذا وضعت الكرة الأرضية بين يديه وتم قياسها ببعض الأجرام كانت صغيرة، والإنسان أصغر. وإذا عاش الإنسان فى كوكب آخر فإنه قد يمتلك حجم

الكرة الأرضية، ولما نشأ الاختلاف. وتقوم الحجة على عظم الكون والأرض، والإنسان لا يشغل إلا مساحة ضئيلة فيه، ومع ذلك يختلف الناس عليها. فما بالهم لو تكاثروا وعاشوا فى الكون الأرحب والأوسع؟ وما المانع أن يعيش أهل كل قرية فى أمن وسلام؟ [1]. ويستشهد الأفغانى بالتوراة والإنجيل والقرآن مادام الدين واحداً. وهو أقرب إلى موقف الصوفية والفلاسفة وإخوان الصفا منه إلى المتكلمين والفقهاء إلا أنه يسميها الديانات الموسوية والعيسوية والمحمدية. وهو خطأ لأن أسماء الديانات لا تشتق من أسماء مؤسيسها مثل البوذية والمسيحية والزرادشتية والمانوية بل من جوهرها. فالاسلام من أسلم، والنصرانى من نصر.

والوحدة تؤدى إلى السيادة. ويصدر الأفغانى مقاله عن "**الوحدة والسيادة**" بحديث "**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**" . فهناك أمران خطيران تدفع اليهما الضرورة أحياناً والدين أحياناً أخرى، وهو الميل إلى وحدة تجمع وسيادة لا توضع. فكل أمة تنهض وتضمحل كالصحة والمرض، والحياة والموت. التغلب فى الأمم كالغذاء فى البدن. والوفاق تواصل وتقارب احساسا من كل فرد بمنافع الوحدة، النظر فى أمور الآخرين. ثم تنشأ الرغبة فى السيادة كنتيجة طبيعية للوحدة. هذان الأمران، الوفاق والغلب ركنان فى الدين وفرضان شرعيان طبقاً للحديثين الشهيرين "**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**" ، "**لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا**". والاعتصام بحبل الدين ضرورى، وكذلك الصلح بين المتخاصمين كما نص القرآن ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله**﴾ ، ﴿**ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات**﴾. وكما نص الحديث "**يد الله مع الجماعة**" ، "**لودعيت إلى حلف الفضول لفعلت**". فالاحساس بالجماعة والتضامن معها وتمثل قيمها قبل الوحى وبعده، وله أساس فى الطبيعة البشرية،

---

[1] وحدة الأديان وانقسامات تجارها، الأعمال ص ٢٩٠-٢٩٦ السلطتان الرمية والروحية ص٣٢٤/٣٢٢/٢٩٣.

مثل عدم أخذ فضل من حقه، ورد حق المظلوم إليه. كما يدعو القرآن إلى بسط السيادة ولكن افتتن المسلمون ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ ، ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾. الميل إلى الوحدة، والتطلع إلى السيادة طبيعيان في البشر، أكده الدين، وعبر عنه القرآن، وصاغه الحديث[١].

ثم ينتقل الأفغانى من المثال إلى الواقع، من الوحدة إلى التنوع. فالبشر يعيشون فى أوطان وفى قوميات وفى إنسانية واحدة. الإنسان نوع واحد وليس له غير هذه الكرة وطناً. فوحدة النوع تقتضى وحدة المكان. ومع ذلك لا تتحدد الهوية بالجغرافيا والمكان ولا بالعرق والدم بل بالفكر والتاريخ، بالتوحيد والثقافة المشتركة، الإخوة الإسلامية والتاريخ المشترك. العروبة هى اللغة، والإسلام هو الفكر، والعالم الواحد هو الواقع الحى. فالعصر عصر الأوطان وتخطى الأوطان فى آن واحد. ويفصل الأفغانى الصلة بين القومية والإنسانية معتمداً على التشبيه طبقاً لعادة القدماء خاصة الفارابى.فكما أن للإنسان "حواس خمس" فللأقاليم حواس خمس بها تميزت الشعوب والقبائل التى خلقها الله من نفس واحدة. وتقسم المعمورة إلى أوطان. والخواص الأربع تستمد طبيعة الأقليم منها. والخامسة تطرأ فتؤثر وهى: الأول الدين أى العقائد وهو الأول فى الترتيب، والثانى اللسان، أى اللغة، والثالث الأخلاق أى القيم، والرابع العوائد أى العادات والأعراف، والخامس. الاقليم الذى يؤثر فى المجموع. وبهذه العناصر الخمسة تحصل ميزات الأقوام، وتحصل المساواة بينهم. فإذا ما أصابها الغرور ساءت الطبيعة، ونشأ الغلب والقهر بالتذرع بالدين. توجد القوميات بالعناصر الخمسة كما توجد الإنسانية أيضاً . وبالرغم من تقسيمات الغرب واستقلال عناصره بميزاتهم القومية تساووا نسبياً بالفضيلة وأهمها العلم بالواجبات لهم وعليهم. انتفى منهم التفرد بالسلطة وسوق الأمة على هوى السلطان. وسينتفى هذا الحكم المطلق فى التاريخ تدريجياً حسب مقتضيات الفطرة

---

[١] الوحدة والسيادة، الأعمال ص ٣٥٣-٣٥٧.

كما حدث فى الغرب اليوم، تحكمه الشورى. وصارت كل أمة فى مأمن من أن تغزوها الدولة المجاورة. فإذا مافشى العلم فى الأمة فأول ما تقوم به مناهضة هذا الشكل من الحكم حتى تتخلص منه. هذه سنة الله فى الكون ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾[1] . ومع ذلك ارتبطت نشأة القوميات فى الغرب بالاستعمار بينما ارتبطت فى الشرق بالتحرر. ولم تكن القومية الغربية كلها خير. اذ نشبت فيه حربان عالميتان طاحنتان فى القرن العشرين بعد وفاة الأفغانى. وقامت الحروب باسم القومية بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا، واستعمرت فلسطين باسم القومية اليهودية. ووقعت مذابح المسلمين فى البوسنة والهرسك باسم القومية العربية. وذبح ملايين من الأفارقة فى مذابح متبادلة بين القبائل فى رواندا. فالأفغانى أحياناً يحول التاريخ إلى مثال لايصدق فى الواقع، وأحياناً أخرى يستقرئ حوداث التاريخ لإثبات المثال فى صيغة قانون للتاريخ.

وبحثاً عن الأوطان والقوميات والإنسانية عرّج الأفغانى على الماسونية. انضم إلى المحفل البريطانى، ثم غادره إلى المحفل الفرنسى ثم غادر الماسونية كلها مبيناً ميزاتها وعيوبها. إذ تمتاز الماسونية، وهذا ما أغرى الأفغانى بها، انها هدم للقديم، الظلم والجور والعتو، وبناء للجديد، الحرية والاخاء والمساواة. غرضها نفع الإنسان. تهدف إلى دك الظلم وتشييد العدل. كما تعمل على بلورة همة العمل، وعزة النفس والشمم، واحتقار الحياة فى سبيل مقاومة الظلم، واعتبار كل قادر وظالم من الحكام من الخوارج. والماسونية أشرف وأرفع من أن تعمل على إيجاد سلطة لرئيس تخدم له بها غاية شخصية أو منفعة مادية أو معنوية. أراد الأفغانى أن يكون عاملاً ماسونيا نزيها متجنباً الرذائل حرصاً على شرف الشخصية وحتى لا يُعاب على الماسونية بأشخاصها. وصحة البدن وذل السؤال لا يجتمعان. الماسونية تسعف الأخ إذا سقط فى العلل أو اعتراه شلل. وتقدم على من سواه فى البشرية. تربى أبناءه إذا مات فقيراً، وتحسن تربيتهم. الماسونية هى أن يصبح الإنسان إنساناً، وألا يكون الإحسان له إساءة.

---

(1) الإنسانية والقومية والديموقراطية، الأعمال ص ٤٢٧-٤٢٩ خاطرات ص ٨١-٨٣.

ومع ذلك، وبعد أن عرفتها مصر بلد العجائب، وبعد دخول الأفغاني فيها والخروج عليها، وتجربتها ومعايشتها اكتشف عيبها مثل الجبن والخوف والنفاق والزلفى. كما لا يوجد وصف دقيق لها إذ يقول "**أما نحن معشر الماسون فيؤلمني أنني للآن ما عرفت لنفسي بصفتي ماسونياً ولا لمطلق الماسونية تعريفاً يجعل لها صورة في الذهن أووصفاً ينطبق على من يخرط في العشيرة**"[1]. كما تقوم الماسونية على الأثرة والأنانية وحب الرياسة، والأفغاني لايحب الرياسة بل يتوجه إلى الجماهير. كما تسود الجماعة الأهواء والانفعالات البشرية دون مراعاة لحق مطلق أو مبدأ ثابت. ويبدو أنها تهدف إلى إخضاع الشرق وتهديده ووعيده، وأنها نحلة غربية تقع تحت معاداة الأفغاني لاستعمار الغرب للشرق. الماسونية لم تزل في المهد وقد تختنق في المهد إذا لم يفقه مغزاها أحد. الماسونية اليوم مجرد "**كيس أعمال وقبول أخ**" ، نوع من أساطير الأولين، تخل بعقائد الناس، وتقسمهم إلى رئيس ومرؤوس، تابع ومتبوع، غرب يأمر وشرق يرضخ، غرب يجمع المال وشرق يدفع الجزية. لن تعيش الماسونية في الشرق لأنها لا تعبر عن مصالحه ولا تبغي تحرره، وهي إحدى مظاهر الهيمنة للغرب.

٢- التقدم والتخلف

ويحاول الأفغاني أن يرصد بعض القوانين العامة لنهضة الشعوب وسقوطها تنطبق على جميع الأمم عبر التاريخ وليس فقط على الأمة الإسلامية، وهي قوانين التقدم والتخلف على أساس أن النهضة هي القاعدة والسقوط هو الاستثناء، أن التقدم هو الأصل والتخلف هو الفرع، مفسراً الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لاستنباط هذه القوانين أوواصفا حوادث التاريخ مستقرئا لها، جمعاً للتنزيل مع التأويل. ربما تنقص الصياغة النظرية ولكن الهم واضح، والنية معلنة.

---

[1] الماسونية، الأعمال ص ٥٢١-٥٢٢.

كانت للمسلمين شدة فى الدين وقوة فى الإيمان وثبات فى اليقين. وكانت العقيدة من أوثق الاسباب لارتباطهم. وكان الإيمان يؤدى إلى السعادة فى الدارين. وكان العلماء مرشدين للناس، موجهين للعامة. والمسلمون تحكمهم الشريعة، مطالبون بالحفاظ على مالديهم من البلدان. ثم غفل المسلمون عن بعضهم البعض. ولم يتألموا لما حل ببعضهم البعض . كان أهل بلوخستان يرون حركات الإنجليز فى أفغانستان ولا يتحركون. والأفغانيون يرون تدخل الإنجليز فى إيران ولا يتكلمون. ويضرب الإنجليز فى الأراضى المصرية، تقتل وتفتك ولا ينجد المسلمون. فتفكك الرابطة الدينية سبب الانهيار والاستعمار، وقوتها سبب النهضة والتحرر.

وتمسك المسلمين بالعقائد له أسبابه. إذ تبعث الأفكار والعقائد على الأعمال تثبتها. والإنسان بفكره وعقائده، وللأخوة ونسب القرابة صورة من العقل، وهما من الروابط الإنسانية. والآن لم يبق للمسلمين إلا الدين والعمل، وانقطع التعارف بينهم، وهجر العلماء بعضهم بعضاً، ولا سفارة للعثمانيين فى مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين. ولا توجد صلات بين العثمانيين والأفغان. كثرت المذاهب والتشعب والخلاف فى بداية القرن الثالث للهجرة. وانقسمت الخلافة إلى عباسية فى بغداد، وفاطمية فى مصر والمغرب، وأموية فى أطراف الأندلس. ثم ظهر جنكيزخان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده. وواجب العلماء الآن إحياء الرابطة الدينية والترابط بينهم[١] . واضح أن الأفغانى هنا ينوع على نفس القانون. فالنهضة بالدين والعمل، والسقوط بالدين دون العمل. كما أن التقدم بالترابط والتخلف بالتفكك. ويكون القانون هو: ترك ما كان سبباً للصعود يؤدى إلى الهبوط والسقوط.

---

[١] أسباب تخلف المسلمين، الأعمال ص ٣٥٩-٣٦٣ خاطرات ص ٣٨٩-٢٩٠/٢٩٢-٢٩٨. النظرية العامة فى الإسلام والمسلمين، وأسباب ما لم بهم من الانحطاط مع توفر ما فى الدين من النهوض وأسباب الرقى على عكس من نهض من الأمم وليس فى دينهم ما يحملهم على ما هم عليه من أخذ العدة وأسباب النهضة المشهودة فيهم وفلسفته فى ذلك، خاطرات ص١٣.

والجهاد أيضاً قانون تاريخى. الجهاد سبيل النهوض، والنكوص يؤدى إلى الإنهيار. ويعتمد الأفغانى هنا على استنباط هذا القانون من الآيات القرآنية مثل ﴿آلم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون. وقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكذابين﴾. الجهاد امتحان واختبار للنفس. وجهاد للعدو ضد الخوالف المثاقلين إلى الأرض. الجهاد سبيل النهوض والنكوص، والقعود الطريق إلى السقوط. ويذكر أيضاً ﴿لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون﴾. فالإيمان بالله يؤدى إلى الجهاد أى إلى العمل مثل القانون السابق. فإن تخلت الأمة عن الجهاد فإنها لاترث الأرض بل ترثها أمة غيرها ﴿وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب آليم﴾. والتولى هو خيانة البلاد، والجهاد هو الدفاع عن الأوطان. ملعون من يخون البلاد لمرض فى قلبه. ملعون من يبيع أهل ملته بحطام يلتذ به. ملعون من يمكّن الأجانب من دياره، محروم من شرف الملة الحنيفية، من يعظم الصغير ويصغر العظيم، ويمهد الطريق لخفض كلمته وإعلاء كلمة الأغراب. ملعون من يختلج فى صدره أن يلحق عاراً بأمته ليتمم ناقصاً من لذته. هنا يتوجه الأفغانى بالخطاب السياسى إلى الأمة، ويوحد بين النكوص والخيانة. إن المولعين بحب الحياة يقضونها فى الذل من خوف الذل، ويعيشون من خوف العبودية فى العبودية، ويجرعون مرارات سكرات الموت فى كل لحظة خوفاً من الموت. فلا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله، ولا الحمية الوطنية تدفعهم إلى ما به فخار بنى الإنسان[1]. ويصوغ الأفغانى بعض الأقوال المأثورة لبيان أهمية الجهاد، وإيثار الموت الكريم على حياة الذل. وأحقر الناس من يطلب موت الناس ليحيا، وأعظمهم من يستميت ليحيا ولو واحد من الناس. وطالب الموت فى سبيل حياة الوطن إما أن يموت بطلاً شهيداً وإما أن يعيش سيداً عزيزاً. وأمة ثبتت فى جهادها لأخذ الحق

---

[1] العروة جـ٢ ص ١١٠-١٩٠-١١٧/١١٣-١٤٢/١٤٥ خاطرات ص١٧٢.

ساعة خير لها من الحياة فى الذل إلى قيام الساعة. وخير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين والأبطال[1].

والإصلاح الدينى أيضاً قانون للنهوض وأحد وسائل الانتقال من التخلف إلى التقدم، ومن السقوط إلى النهضة. ولايمكن التخلص من الانحطاط والتأخر إلا بتأسيس النهوض والتمدن على قواعد الدين وليس عن طريق تقليد الغرب الذى يؤدى إلى الانبهار بالأجانب والاستكانة لهم والرضا بسلطانهم. فيتحول الإسلام من تحرر وإبداع إلى خمول واستئناس لحكم الأجنبى. والسبيل إلى ذلك حركة دينية تقلع ما رسخ فى عقول العوام وبعض الخواص من فهم خاطىء للعقائد والشرائع، ونشر تعاليم القرآن الصحيحة بين الجمهور وشرحها بحيث تؤدى إلى السعادة فى الدارين. ومن هنا تأتى ضرورة تهذيب العلوم وتنقيح المكتبات، ووضع مصنفات سهلة. وكان هذا طريق إصلاح الغرب، وانتقاله من الهمجية إلى المدنية. وهى الحركة الدينية التى قام بها لوثر بعد أن رأى خضوع أوروبا لرجال الدين ولتقاليد خارجة عن العقل والدين. فأصلح الأخلاق، وقوم الاعوجاج، وطهر العقل، ونبه إلى الحرية الطبيعية ضد الاستعباد والطغيان. ثم نشأت حركة عداوة ثم منافسة بين البروتستانتية والكاثوليكية على القوة والعزة والغلبة والارتقاء فى المدنية للتفوق على الآخر. ومن هذه المنافسة تولدت المدنية الحديثة التى ينبهر الناس بها. مع أن لدى المسلمين فرقتين كبيرتين، سنة وشيعة، ولم ينشأ تحد بينهما نحو المدنية. تبدو الشيعة أحياناً كالكاثوليكية نظراً لأهمية رجال الدين والتراث والتاريخ، والسنة كالبروتستانتية نظراً للعقل والفردية والحرية. وأحياناً تبدو الشيعة كالبروتستانتية نظراً لما فيها من معارضة واعتراض، والسنة كالكاثوليكية نظراً لما فيها من خضوع. ومع ذلك يرى الأفغانى نفسه كمارتن لوثر، وحركة مثل البروتستانتية. وسجن الظالمين للمصلح رياضة، ونفيهم له سياحة، وقتلهم له شهادة، وهى أسمى المراتب[2].

---

[1] خاطرات ٣٨٨-٣٩٢.

[2] الإصلاح الدينى، الأعمال ص ٣٢٧-٣٢٨، الأنا ص ٤٠٧.

والحروب أقبح ما اخترعه الإنسان فى الأرض. وهى وحدها أحق الأعمال بالكتمان لفظاعتها. بينما العلم أفضل ما اخترعه الإنسان الذى أدى إلى التقدم والعمران عند الإنجليز والفرنسيين والألمان والأمريكيين. ولكن فى مقابل ذلك ترجح كفة ويلات الحروب على العلم عند ما يتحول العلم والمدنية والرقى إلى جهل ووحشية وهمجية، ويتحول الإنسان إلى حيوان بل أحط منه لعدم استفادته من حقيقة العلم. الحروب أكبر دليل على ذلك فلم تقف الحيوانات بعضها أمام بعض كما يقف الإنسان أمام أخيه الإنسان، والدول أمام بعضها البعض بالقتل والدمار. وقد نبه القرآن على ذلك بقوله ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾. فاعترضت الملائكة بأن الإنسان يسفك الدماء ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾. والملائكة يريدون فهم السر دون عصيان الله ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾. لذلك أخبرهم الله ﴿**إنى أعلم غيب السموات والأرض**﴾. وفضل آدم بالعلم ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم انبئهم باسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض**﴾ وجاء فى القرآن تعظيم العلم الصحيح . ﴿**هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون**﴾ ، ﴿**وما يعقلها إلا العالمون**﴾. العلم الصحيح يؤدى إلى السلام والمدنية والعمران وليس إلى الحروب والدمار، مرة باسم الوطن والوطن بقعة من الأرض. ولو أنصف الناس لوسعتهم الأرض وهم لها تاركون وفى جوفها داخلون. فالأولى أن يعيش الإنسان مع أخيه الإنسان فوقها . ولا يحتاج لتوقف الحروب إلا توقف الأمة عن الاستجابة لها وتحكيم العقل والعدل. السبيل إذن إلى ابطال الحروب الارتقاء فى العلم وتحويل عساكر بريطانيا إلى نيوتن وداروين وعساكر فرنسا إلى باستير. فهل يقف الجنود صفوفاً للحروب والتدمير أم يقف العلماء صفوفاً للبناء والتعمير؟ [1]. ويبدو الأفغانى هنا مثل فولتير ناقداً للحرب

---

[1] الحروب من أقبح ما عمله ويعمله الإنسان فى الأرض. وهى وحدها أحق الأعمال بالكتمان لفظاعتها، خاطرات ص ٦٧ انكار جمال الدين ما نراه من المدنية ومغالطته باستبداله لفظة الفناء فى التنازع عوضاً عن البقاء ، وأن العلم الصحيح إذا وصل إليه العالم فأعظم أثر له إنما يكون بمنع الحروب التى هى من أكبر الأدلة وأسطعها على توحش الإنسان وبراهينه وافاضته فى ذلك وقوله فى دعوة الإسلام وكيفية انتشاره ، خاطرات ص ١١ / ١٣٨ - ١٤٤ الحرب والسلام، الأعمال ص ٤٣١-٤٣٥.

بالرغم من نقده له باعتباره دهرياً. كما يضع تقابلا بين الحرب والعلم مع أن العلم أحد وسائل الحروب والدوافع عليه. فالعلم والحروب فى يد السياسيين، ولا يوجد علم مجرد ليس فى يد أحد مهما كثرت الدعوات على العلم فى سبيل السلام، والتمييز بين العلم وتطبيقاته أو بين العلم والسياسة. فهذه نظرة مثالية أخلاقية لم تمنع من وقوع الحروب. وإدراكاً منه لفظاعة الحروب فى القتل والدمار فإنه يفضل استعمال تعبير تنازع الفناء على تنازع البقاء لأن البقاء صفة لله، ولأن قانون التنازع يبقى الأقوى ولكنه يفنى الأضعف. الحرب إذن استثناء فى التاريخ والسلام هو القاعدة.

ومع ذلك يفرق الأفغانى بين الحروب العادلة والحرب غير العادلة على ما هو معروف فى الفكر الدينى والسياسى منذ العصر الوسيط فى اصطلاح Just War. الحرب غير العادلة هى حرب العدوان والحرب العادلة هى حرب الدفاع لردع العدوان. الأول مثل الحروب الغربية لتوسيع البلاد استعماراً واستعباداً. والجهاد من النوع الثانى، الحرب العادلة لردع العدوان وإرجاع الخلق للحق. لقد جاء الإسلام لتصحيح الأوضاع فى شبه الجزيرة العربية كما جاءت المسيحية لتصحيح الأوضاع فى اليهودية، وجاءت اليهودية لانتشال اليهود من سلطة فرعون. جاء الإسلام تصديقاً للديانات السابقة لتحرير البشر ﴿**قل أتخذتم من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولاضراً**﴾ ، ﴿**هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء، خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم**﴾ ، ﴿ **الله خالق كل شيء، وهو الواحد القهار** ﴾ . ومن ثم فاحتمالات الحرب بين الأديان قليلة نظراً لاعتراف الإسلام بالديانات الثلاث فى حين أن احتمالات حروب الأديان فى اليهودية والمسيحية أكبر لعدم اعتراف اليهودية بالمسيحية والإسلام وعدم اعتراف المسيحية بالاسلام. فالاسلام مرفوض مرتين، من اليهودية والمسيحية، وهما مقبولان منه. وقد يفسر ذلك أحياناً تكاتف وتضامن اليهودية الغربية(الصهيونية) والمسيحية الغربية فى العداوة ضد الإسلام منذ الحروب الصليبية حتى احتلال فلسطين ومذابح البوسنة والهرسك وحرب الشيشان. وإذا كانت آية السيف قد نسخت

ثلث القرآن من أجل رفع القهر عن الناس والإيمان بالله وحده فإن القتال قد يقع اضطراراً كما لاقى الرسول من أذى الكفار فاضطر للقتال، وكتب على الناس وهو كره لهم. وقد خير الإسلام الناس بين الإسلام أو الجزية من أجل صون النفوس. أما القتال فهو من أجل تحرير الأرض من الشرك والطغيان والعدوان على الناس معنوياً ومادياً. لذلك خيم العدل المطلق على فتوحات الإسلام بمبادئه وليس بالقهر والسيف كما يدعى الغرب. وعم الإسلام جزيرة العرب، ولم تقم إلا غزوات محدودة اتقاء لطغيان قريش حتى عام الفتح. وانتشر فى اليمين بدون قتال. ولم تتجاوز جيوش أبى بكر وعمر أربعين ألف مقاتل. ودخل الإسلام الشام وفلسطين وحلب والعراق ومصر وفارس حتى الصين دون أن تكون الحرب فى كل الحالات وسيلة لنشره. أما الآيات التى تقرأ فى القرآن التى تحث على الاستعداد للقتال مثل ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل**﴾. فلا يعنى سفك الدماء بل مجرد التخويف والردع كما يقال فى الأسلحة النووية حالياً وكما نص القرآن ﴿ **ترهبون بها عدو الله وعدوكم**﴾. وكما قال مولتكه " **أبطال الحرب لإبطال الحرب**" . ولكن عم الجهل، وكثرت التفسيرات للباء والصاد حتى جهل المسلمون الحقائق العلمية مثل كروية الأرض ودورانها حول الشمس ودون أخذ المخترعات الحديثة كالبرق والسكك الحديدية منه حتى لا يكذبه الناس . إنما أشار إلى ما هو حادث وما يمكن حدوثه فى المستقبل مع مراعاة العقول والتقريب إلى الأذهان. إذن العنف ليس هو الأصل فى التاريخ بل التسامح. والحرب ليست أداة لتحريك التاريخ إلا دفاعاً. قوانين التاريخ هى الفضائل والرذائل، للنهضة والسقوط[١].

٣- قوانين التاريخ

وتبلغ ذروة فكر الأفغانى فى فلسفته للتاريخ وكيف أنه ميدان للاعتبار ومرآة تكشف صدق النص، وأن الآية القرآنية حصيلة استقراء طويل، فالنص والواقع

---

[١] الحرب العادلة والحرب غير العادلة، الأعمال ص ٤٣٧-٤٤١.

شيء واحد داخل التجربة الإنسانية الفردية والاجتماعية ومقاييس صدقها. وهذا هو معنى الوعد الإلهي ووراثة الأرض ونصر المؤمنين وإظهار الدين. وقوانين التاريخ مثل قوانين الطبيعة حتمية ضرورية لأن العقل أي الروح هو محرك التاريخ وهي الإرادة الإلهية في التاريخ ومساره. وهي سنن الكون، وسنن الله في الأمم. والتاريخ دورات طبقاً للتصور الحيوي، بين الماضي والحاضر، بين النهضة والسقوط ثم النهضة من جديد بفضل الإصلاح والرقي والتمدن ووسائله. وللتاريخ فعالياته، العقل والدين والعلم والجهاد. وهو ميدان السياسة والصراع السياسي بين الاستعمار والتحرر، وبين الغرب والشرق.

فالتاريخ مرآة للأفراد والشعوب، يقرؤون فيها تاريخ البشرية وخبراتها السابقة، ويستفيدون منه العظات والعبرات. ومن تولى زمام أمور الجمهور لاغنى له عن مرآة وكتاب وتاريخ صحيح. فكما أن المرآة تريه شخصه على علاته هكذا يفعل التاريخ أيضاً، ينقل أعماله في حياته وحياته في قوانين التاريخ. وقد نبه القرآن على ذلك في آيات العبرة مثل ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ ، ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾. فالتاريخ للعظة والاعتبار والتذكير والذكرى ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾، ﴿**إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار**﴾.

قانون التاريخ إذن هو تجربة نفسية واجتماعية قبل أن تتحول إلى قانون. فالقانون ما هو إلاتراكم الخبرات الفردية والاجتماعية عبر التاريخ. يتحول من خلالها الوعي الفردي الاجتماعي إلى وعي تاريخي. ومقاييس الصدق لهذا القانون متعددة. فمنها العقل والبرهان والقياس والتأمل والتفكير والنظر والتدبر. لذلك طالب القرآن بالبرهان كمقياس للصدق. ومنها أيضاً الإحساس الفطري والوجدان والشعور والبداهة الطبيعية. وهو ما سماه القرآن الصبغة، ﴿**ومن أحسن من الله صبغة**﴾، والفطرة، ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾. ومنها التعليم الشرعي واكتساب العلوم والمعارف. لذلك فضل الله العلماء على غيرهم، وجعل العلماء ورثة الأنبياء. ومنها

أخيراً الإلهام الإلهى الذى يهبه اللـه خاصته، اليقين الداخلى الموضوعى، الحدس الربانى وهو يقين الأنبياء(١).

وبهذا المعنى يستشهد الأفغانى بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية باعتبارها صياغات إلهية لقوانين التاريخ بناءً على رصيد طويل من تجارب البشر. فالنص صورة للواقع، والواقع مادة النص، وبتفاعل الصورة والمادة تنشأ حركة التاريخ. الوحى يتحقق فى التاريخ، والتاريخ ميدان لتحقق الوحى. وبالتالى يمكن معرفة قوانين التاريخ استنباطاً من النص واعتماداً على العقل والبداهة والفطرة. ويمكن معرفته استقراء من حوادث التاريخ. الطريق الأول سماه القدماء التنزيل، والثانى التأويل. وتطابق الطريقين تصديق للوحى. ويمكن صياغة قوانين التاريخ بالمنقول والمعقول حول العدل فى التاريخ ووراثة الأرض للمؤمنين، وتحقيق الوعد الإلهى، والنصر للمؤمنين، وإظهار الحق على الباطل، وتحقيق العزة للمؤمنين، وعدم تغيير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وذلك مثل ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**﴾. هذا قانون تاريخى يمكن للعقل استنباطه بعد رؤية حوادث التاريخ. فالعقل يستدل على سيطرة الإنجليز على ممالك الهند بالقوة والحيلة وكذلك روسيا. كما يستدل على وحدة النضال ضد الاستعمار، الثورة المهدية، والثورة العرابية، ونضال الهند ومقاومة الاستعمار وأيضاً مثل ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾. ويستطيع العقل أن يستدل على أن التفرق ضعف، وتستطيع التجربة أن تثبت أن الوحدة قوة، ومن هنا لزمت وحدة الأفغان والفرس والهند ومصر والسودان وسوريا. وأيضاً ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾، فالتغير من الداخل إلى الخارج وليس من الخارج إلى الداخل، من الفرد إلى الجماعة وليس من الجماعة إلى الفرد طبقاً للنظرة المثالية للعالم(٢).

---

(١) خاطرات ص ٣٩٢ العروة جـ٢ ص١٦٠-١٦٧ /١٤-١٧ العروة جـ١ ص ١٩٠-٢٠١.

(٢) العروة ص٢ ص ١٦٨-١٧٥ الأعمال ص ٥٠٦/١٨٨-١٩٦.

ويمكن الاستدلال على قانون التاريخ بالعقل الصريح مثل "**الايجتنى الشهد من الحنظل**" ، فالنتائج من نوع المقدمات، " **الأعمى من يظن الناس بدون أبصار**"، فالانسان يقيس الآخرين بمقياس نفسه، "**من ثابر وكابر على تجربة الضار أولى أن يتخذ عبرة**"، فالعبرة من الضرر أقوى من العبرة من النفع، "**القبة الجوفاء لاترجع الصدى**" تعبر عن عدم التطابق بين الداخل والخارج وبالتالى الكذب والنفاق والازدواجية والمداهنة والتزلف. فلا فرق بين مستويات القانون، فى الطبيعة وفى النفس وفى التاريخ.

والله لايتدخل في التاريخ مباشرة ولكن علمه وإرادته وصفاته هى قوانين التاريخ. فالعدل ليس صفة لله فقط أو اسماً من اسمائه الحسنى بل هو قانون للتاريخ. وكذلك صفات الحكمة والسلام والعزة كلها قوانين للتاريخ. فالتاريخ ليس مجرد مادة صماء بل يسرى فيه الروح والعقل. الروح والعقل فى التاريخ. تهبط فى بخارى وتحرك الشعوب. والقوانين الطبيعية والشرائع السياسية والاعتقادات الدينية والصراعات السياسية وانتصار الأقوياء على الضعفاء كل ذلك من قوانين التاريخ. الصفات والاسماء الإلهة التى هى جماع الفضائل قوانين للتاريخ ومقومات نهضته. وهو ما يسمى فى الإلهيات العناية الإلهية[1].

قوانين التاريخ هى سنن الله فى الكون ﴿**سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾. ولكنه لا يتحقق من نفسه بل من خلال إرادات البشر. لا يتحرك التاريخ إلا بتقابل قانونين، القانون الموضوعى للتاريخ والقانون الذاتى لارادات البشر، نخبة وجماهير، قلة وكثرة. ضرورة التاريخ وفطرة البشر. الموضوعية والذاتية شرطان لحركة التاريخ . فقد نشأت الأمة الإسلامية بفضله، جماعة مؤمنة، جيل قرآنى فريد كما يقول سيد قطب. لذلك كانت فعاليات التاريخ بالإضافة إلى القانون الطبيعى الموضوعى العقل والدين والجهاد وما تتضمنه من قيم وفضائل أخلاقية وسياسية مثل الوحدة والعلم والإخلاص[2].

---

[1] الأعمال ص ٥٠٦.

[2] العروة جـ١ ص٦ -٩ /٦١-٦٤ الأعمال ص ٣٣٩.

والصراع السياسى أتون التاريخ وميدان تحققاته. والسياسة هى ميدان المصالح المتصارعة. لذلك ارتبطت السياسة بالتاريخ. فالنظام السياسى الصالح شرط البقاء فى التاريخ للأمة. وهو النظام الشورى والذى يقوم على اسناد الأمر إلى أهله، والاشتراكى الذى لا يترك المال دولة بين الأغنياء. والثورة قانون اجتماعى عندما يصل المجتمع إلى حالة اليأس مثل الحالة التى وصل إليها المجتمع المصرى والتى لم يعد من الممكن تحملها حتى انفجرت الثورة العرابية. كما أن أحوال الشرق كله أدت إلى استعماره من الغرب ثم ظهور روح التحرر فى الشرق للنهضة والثورة ضد الاجحاف بالشرقيين. فالاحساس بالظلم يولد الثورة. والاستعداد للنضال قانون طبيعى فطرى يؤكده القرآن فى ندائه ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾. وإن سيادة أمة على أخرى وإذلالها مخالف للطباع والعوائد، والمقاومة لهذا التسلط والذل أمر طبيعى. السيادة الأولى تريد الافناء والمقاومة، والثانية تريد البقاء. الوعد الإلهى هو قانون التاريخ. ولما كان الوحى لا يخلف فالقانون الإلهى ضرورى. نشأت الأمة من لاشىء ونالت كل شىء ثم فقدت كل شىء. وهو قانون للتاريخ، لنهضة الأمم وسقوطها. والأمة الإسلامية مترامية الأطراف حوالى مائتين وثمانين مليوناً وهى الآن بليون نسمة من الأطلنطى إلى الصين، ثروات وأراضى ولكنها منهوبة ومسلوبة ومجزأة ولاقوة لها. وقيامة الأمة بالفضائل والتمسك بالحق. وإنهيارها بالرذائل والابتعاد عنه. يغتصب الأجانب الديار، ويستذلون الأهل، ويسفكون دماء الأبرياء من الإخوان، ولا يتحرك أحد. عدو وفير ومذلة وهوان. فهى أمة أصحاب الملك المسلوب والمال المنهوب.

والأمة فى التاريخ، والتاريخ هو الزمان، حركته نحو الماضى ونحوالمستقبل. الحركة نحو الماضى تنشىء الحركة السلفية وتقليد الأسلاف، والحركة نحو المستقبل تنشىء الحركة التقدمية والرغبة فى التجديد. فالمسلم الآن يعجب بماضيه، ويغفل عن حاضره ومستقبله فى حين أن الغربى يهتم بحاضره

وبمستقبله أكثر مما يعكف على ماضيه[١]. ويقارن الأفغاني بين السلف والخلف في الخطبة ويجد أن خطبة السلف خير من خطبة الخلف مما يقوى الموقف السلفي. ففي مقاله عن "**سنن الله في الأمم**" بالرغم من أن العنوان يوحي بقوانين التاريخ إلا أن المضمون في حسن البلاغة والخطاب والإيجاز في البيان للخلفاء الراشدين، مثل خطبة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة عن العقد بين الحاكم والمحكوم، وموعظته لأسامة بن زيد أمير الجيوش عن تحريم التدمير والقتل للزرع والنساء والأطفال والشيوخ في الحرب، ووصية عمر بن الخطاب لأبي موسى الاشعرى في كيفية القضاء وضرورة الاعتماد على القياس، الاشباه بالاشباه والنظائر بالنظائر، ووصيته إلى أمير الجيوش سعد بن مالك بن وهب إلى العراق، ووصيته لعتبة بن مروان إلى البصرة وللمغيرة بن شعبة ثم لعزله، وقوله لعمرو بن العاص عن خلق الناس أحرار. ويقارن الأفغاني بين الماضي والحاضر، خطبة القدماء وخطبة جامع البصرة مكتوبة دون قواعد ودون مضمون[٢] . ولما كانت اللغة عنواناً للفكر وكاشفة لمضمونه فإن اختيار الأفغاني لبنية الخطاب القديم المركز الدال وبنية الخطاب الجديد المسهب الذى لايحيل إلى شيء له دلالته على أدبيات اللسان ونهضة الأقوام. وكيفية الكلام تكشف عن كيفية الفكر ومدى الالتزام بالواقع أوالخروج عنه. وقلة الكلام قد تعني التوجه نحو الفعل. وكثرة الكلام قد تعني العجز عن الفعل. والتركيز في الكلام قد يعني صدق الفكر، والاسهاب فيه قد يعني النفاق والكذب والإلهام. لذلك نهض القدماء وسقط المحدثون.

وإذا كان حاضر الأمة ليس فقط موزعا بين شد نحو الماضي وانجذاب نحو المستقبل، فإن تاريخ الأمة أيضاً موزع بين حركتي النهضة والسقوط. ويحاول الأفغاني معرفة الأسباب التي حولها تلميذه شكيب أرسلان إلى سؤاله الشهير: لماذا

---

[١] في أن المسلم سواء العربي والأعجمي إنما يعجب بماضيه وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف أنه يجب أن يكون مع ما هو عليه من دواعي ومستلزمات التقهقر مثل سلفه الساهر اليقظ والصالح المصلح والحاكم العادل، خاطرات ص ١٢ سنن الله في الأمم، الأعمال ص ٣٣٢-٣٣٩.

[٢] استغرابه ميل الشرقيين في هذا العصر إلى حب التطويل في المقال والمماطلة بالأفعال على عكس ما كان عليه السلف، والأمثلة على ذلك، خاطرات ص ٢٧٢-٢٨٤.

تخلف السلمون وتقدم غيرهم؟ لقد نهضت الأمة بفضل الإسلام ثم انهارت بعد أن تركته. وهي الآن تعود إلى النهضة من جديد بفضل حركة الإصلاح. فهناك ثلاث مراحل: النهضة فى القرون السبعة الأولى،والسقوط فى القرون السبعة الثانية ثم الإصلاح بداية من القرون السبعة الثالثة طبقاً للتصور الحيوى للتاريخ ودورانه بين الحياة والموت. لذلك يشبه الأمة بالبدن كما فعل الفارابى وإخوان الصفا من قبل فى حالتى الصحة والمرض والعودة إلى الصحة من جديد . فالإصلاح يمثل فترة ثالثة للأمة فى التاريخ يريد اللحاق بفترة نهضتها الأولى وتجاوز فترة سقوطها الثانية. وهو سعى نحو الكمال الإنسانى. ويضع الأفغانى تقابلا بين مرحلتى النهضة والسقوط على النحو الآتى مبيناً أسبابهما : الوحدة فى مقابل افتراق الكلمة، المستقبل فى مقابل الغفلة من العاقبة، الجهاد بدلا من الركون إلى الراحة، الإحساس بالرسالة بدلا من الافتتان بنعيم الدنيا، التحرر بدلا من الاستعمار والخضوع للأجنبى. وللانتقال إلى النهضة الأولى عن طريق الإصلاح، هناك عدة وسائل: إلهام النخبة، والسعى نحو الكمال من الجميع، والرجوع إلى أصول الدين. فلا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها كما هو الحال فى الحركة السلفية، والجمع بين الحضارة والملك كما كان المسلمون فى سيرتهم الأولى دون الاكتفاء بالحضارة ويكون الملك للأجنبى يستنزف ثروات البلاد كما هو حادث فى تجربتى تركيا ومصر. فلابد من سلطان قاهر يقود الناس إلى الثورة أو يأخذهم بالتدريج. هذا بالإضافة إلى الأدوات العلمية مثل الجرائد الوطنية والمدارس الحديثة دون تقليد للغرب بلا فهم والتشدق بألفاظ غريبة، وتقديم علم بلاوطن، ونسيان الأصول الدينية. وبالتالى فإن ترك ما كان سبباً للصعود يؤدى إلى الهبوط والسقوط[1] . وهكذا تنتهى ملحمة التاريخ عند الأفغانى تشدها الخطابة أحياناً نحو السلفية فى الماضى ويرجعها العقل أحياناً أخرى نحو الإصلاح فى المستقبل.

---

[1] رأيه في الدولة الإسلامية ومحاكمته لما أتوه من الخطأ والصواب واسباب ما نراه في الاشياع والاتباع، من التقهقر والانحطاط، خاطرات ص ١٢، الأعمال ص ٥٣٩.

الأفغانى بعد مائة عام

هناك أشياء باقية فى الأفغانى بالرغم من مرور مائة عام أهمها :

١- الشجاعة على نقد القدماء، ورفض التقليد والدعوة إلى الاجتهاد. فالتراث القديم ليس مقدساً بل هو من ابداع أجيال ماضية. هم رجال ونحن رجال، نتعلم منهم ولا نقتدى بهم. والعيب فينا إذا لم نجدد ونبدع وليس فيهم إذا كان اجتهادهم قد تجاوزه الزمان. ويتميز إبداع الأفغانى بأنه حر طليق يتجاوز القياس الفقهى القديم، تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لتشابه بينهما فى العلة على نحو آلى ثابت، إلى التحام مع الواقع وإدراك قوانينه ومرحلته التاريخية بناء على روح الاسلام وقوته فى التاريخ. وهى الروح التى بدت فى أول "**رسالة التوحيد**" لمحمد عبده لإثبات أن علم الكلام تاريخى خالص خضع للظروف السياسية فى عصره وليس علماً مقدساً. وقد كان عيب الأجيال اللاحقة عندما خلطت بينه وبين العقيدة. ومازالت مدرسة التجديد عند طه حسين وأمين الخولى وخلف الله محمد خلف الله وسيد قطب ونصر حامد أبو زيد ومحمود إسماعيل وسيد القمنى تعانى من تضييق الخناق على التجديد باسم التقليد.

٢- تحويل القرآن إلى تجارب فردية واجتماعية وقوانين للتاريخ بحيث يمحى الفرق بين الوحى والواقع. فالقرآن خلاصة تجربة البشر كما يرويها فى قصص الانبياء وكما يصوغها فى بعض القوانين مثل ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾، ﴿**وكان حقا علينا نصرا المؤمنين**﴾. وبالتالى ساهم الأفغانى فى بلورة فلسفة فى التاريخ مازالت ناقصة فى تراثنا الفلسفى القديم. وحاول التعرف على سنن الله فى الكون ووضع الآية فى التاريخ وتحقيب دورانها. وقد جعل الأفغانى هذه، القوانين فى العقل والتاريخ، فى الذات والموضوع، فى النفس وفى الآفاق

﴿وفى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾، ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ . واستعمل الأفغانى الآيات استعمالا حراً بحيث تعبّر أدبياً وفكرياً عن أحوال العصر. إن عظمة الوحى فى أنه يعبر عن خلاصة تجارب البشر، وإعجاز آياته أنها صياغات ثابتة لقوانين التاريخ. فالوحى واقع يتحرك، وتاريخ يسير، والواقع وحى يتحقق، ويتراكم فى التاريخ. إن الوحى علم الله والتاريخ إرادته، وبالتالى أمكن للأفغانى تجاوز تقابل القدماء بين أولوية الإرادة على العلم (الغزالى) وأولوية العلم على الإرادة (ابن رشد)، بين ما ينبغى أن يكون وما هو كائن. كما أمكن للأفغانى تجاوز التقابل الشائع بين التاريخ الإلهى والتاريخ البشرى، بين مدينة الله ومدينة الأرض كما يقول أوغسطين إلى تاريخ واحد يكون فيه التاريخ التقاء الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية، تحقيق مدنية الله فى الأرض نهضةً أو انحسارها عنها سقوطاً.

٣- الدفاع عن أصالة الأمة ودورها فى العلم والحضارة من أجل مساعدتها على نبذ التقليد، ودعوتها إلى التعرف على أسباب إبداع القدماء وحتى يقضى على الإحساس بالدونية تجاه الآخرين، وتأكيد عزة النفس والكرامة، والقضاء على ثنائية المبدع والناقل التى ميزت علاقتنا بالغرب الحديث. هو يبدع ونحن ننقل حتى تحول الغرب فى وعينا إلى معلّم أبدى وجعلنا أنفسنا تلميذاً أبدياً، مع أنها دوارت بين الشعوب والحضارات. كنا معلمين فأصبحنا تلاميذ، وكان الغرب تلميذاً فأصبح معلماً، ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾. ومن لاتاريخ له لا مستقبل له، ومن لا ماضى له لاحاضر له. وهو أكبر رد عملى على تهمة تخلف المسلمين بسبب دينهم. فبهذا الدين أصبح القدماء رواداً للعلم تأكيداً على وحدة الوحى والعقل والطبيعة، وقدرة الوحى على التوجه بالعقل نحو العلوم الرياضية والطبيعية.

٤- إدراكه الخطر الأول على الأمة، الاستعمار فىالخارج والقهر فى الداخل، وتجميعه قوى الشرق كلها باعتبارها قلب العالم الإسلامى فى مواجهة قوى الغرب، حتى يقابل التحرر بالاستعمار، والثورة بالهيمنة دفاعاً عن الأوطان والأقاليم مع بؤر متعددة للوحدة ابتداء من مصر، جنوباً مع السودان، وشرقاً مع

إيران والهند، وشمالاً مع الشام وتركيا، وغرباً مع المغرب العربى أو ابتداء من وحدة آسيوية، وحدة الفرس مع الأفغان. لافرق بين الإسلام والوطن، بين الدفاع عن الإسلام والدفاع عن الأوطان قبل أن تظهر القومية بينها لايقاع تناقض مفتعل بين الإسلام والقومية أوبين القومية والوطنية. فالإسلام فى العصر ثورة، وليس مجرد شعائر أو طقوس أو عقائد أو شرائع. وقد كان المسلمون القدماء ثواراً على أوضاعهم الطبقية والقبلية، الإسلام يهدف إلى تغيير الأمر الواقع وليس تثبيته. هو جزء من الحراك الاجتماعى وليس الثبات الاجتماعى. هو رفض لأوضاع الاحتلال والقهر والفقر والتجزئة والتبعية والتغريب واللامبالاة. وإذا كان فى الخلق الكونى ليس فى الامكان ابدع مما كان فيه فى الإبداع الإنسانى هناك باستمرار فى الامكان ابدع مما كان. الإسلام كما قال سيد قطب فيما بعد حركة إبداعية فى الفن والحياة. ولا إبداع بلا تغيير ورفض ومقاومة واعتراض وغضب. وكأن الأفغانى يضع كوجيتو جديداً ليس "أنا أفكر فأنا إذن موجود" بل "أنا أثور فأنا إذن موجود".

٥- البداية بالواقع المباشر وإعادة بناء التراث القديم طبقاً لمتطلباته، وأخذ موقف من الغرب طبقاً لحاجاته. والواقع فى حاجة إلى تنوير ويقظة وحركة. لم يكن الأفغانى نصيًّا، يبدأ من النص إلى الواقع بل كان واقعياً يبدأ من الواقع إلى النص. لم يقرأ الواقع والنص مرآة فوق عينيه سواء كان نصاً من القدماء أونصاً من الغرب الحديث بل رأى الواقع مباشرة وحوله إلى نص جديد. ومن ثم يبدأ الأفغانى باعتباره أصولياً ليس من القرآن فالسنة فالاجماع فالقياس كما هو الحال فى الترتيب التقليدى القديم لمصادر الشرع الأربعة بل يبدأ من الاجتهاد فالاجماع فالسنة فالقرآن حتى يشجع المسلمين على الاجتهاد. والواقع هو أساس النص ومصدره كما هو معروف فى أسباب النزول. الواقع يسأل والوحى يجيب. والواقع يتغير والشرع يتغير معه طبقاً للقدرة كما هو معروف فى الناسخ والمنسوخ. والواقع فى النهاية لفظ قرآنى يصف صدق الوعيد ﴿**إن عذاب ربك لواقع**﴾. وهو أحد أسماء يوم القيامة فى "**الواقعة**" .

٦- تفجير الثورة العرابية بفضل تلاميذه، أحمد عرابي وعبد الله النديم، واشتراك محمد عبده فيها أولاً ثم ارتداده عنها، والدعوة إلى إنشاء المدارس الوطنية والجمعيات الأهلية ومؤسسات المجتمع المدنى بلغة العصر التى تقاوم التغريب والتعليم الرسمى الخالى من هموم العلم والوطن ولا يقوم إلا على التقليد والتلقين من ناحية أو الإعجاب بالغرب من ناحية أخرى. وقد تفجرت ثورة ١٩١٩ بفضل تلميذه سعد زغلول. فالثورة الوطنية جزء من الثورة الإسلامية، وهى الثورة التى توحد فيها المسلمون والاقباط. فالدين واحد، يبعث على الخير والصلاح. وهى الثورة التى جمعت بين وعى النخبة وحركة الجماهير فى مواجهة الإنجليز والتى انتهت بالحصول على الاستقلال. كما ارتبطت ثورة ١٩٥٢ به عن طريق بعض الضباط الأحرار من الإخوان المسلمين تلاميذ حسن البنا، تلميذ رشيد رضا، تلميذ محمد عبده، تلميذ الأفغانى. وقد أشاد "**الميثاق الوطنى**" فى ١٩٦٣ بجذور النضال الوطنى لدى رواد الحركة الإصلاحية وفى مقدمتهم الأفغانى رائدها الأول. ومازال الإسلام السياسى يحمل لواء المقاومة ضد الاحتلال فى جنوب لبنان وفلسطين، وضد القهر فى الداخل. واستطاع الانتصار فى أفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك وجنوب أفريقيا، ومازال يمثل تحدياً كبيراً للغرب والولايات المتحدة بالاسلام "**الأبيض**" **والإسلام "الأسود"**.

٧- الدعوة إلى الطموح والأمل وطلب المجد ونيل الأعالى وعدم الاكتفاء بالسفوح، وعدم الرضى إلا بقمم الجبال ضد روح اليأس والاحباط والتشاؤم التى سيطرت على الناس . وهذا هو معنى أداء الرسالة التى اشفقت منها السموات والأرض والجبال وحملها الإنسان. لذلك ركز الأفغانى على ارتباط العمل بالنظر، وأن النظر بلا عمل طبل أجوف. وقد انتشرت روح اليأس والاحباط فى هذا الجيل بعد أنْ بدأ التفريط فى الاستقلال الوطنى وفى القضية الاجتماعية وفى قضايا الوحدة والهوية، وبعد أن تقلص المشروع القومى إلى مصالح قطرية، وتغيرت الثوابت التاريخية فى المنطقة، مناهضة الاستعمار والصهيونية إلى تحالف

معهما. لقد تغيرت مثل هذا الجيل عدة مرات، من الليبرالية إلى الاشتراكية والقومية إلى الرأسمالية والقطرية، وكل بديل جديد يهدم البديل القديم حتى تحطمت المثل كلها ولم يعد هناك إيمان بشىء ولا حتى بالقضية. فوجد الناس فى الدين ملاذا ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾.[١]

٨- التمييز بين الدين ورجال الدين من أجل تخليص الدين من السلطة الزائفة التى تتحدث باسمه وتسيطر عليه وتحتكر تفسيره، وتتسلط على رقاب المؤمنين. فآفة الدين رجاله. لذلك ثارت البروتستانتية ضد الكنيسة. والأفغانى يوحد بينه وبين مارتن لوثر فى الهدف والقصد والغاية. فهو لوثر الشرق. وبالتالى استطاع الأفغانى أن يعبر عن روح الإسلام والعلاقة المباشرة بين الإنسان والله، ويبرز تجربة الإسلام فى التاريخ التى كانت رد فعل على تأليه الأحبار والرهبان واتخاذهم أرباباً من دون الله، وتسلط رجال الدين في الكنيسة والمعبد على رقاب الناس، يحللون ويحرمون طبقاً لأهوائهم أو ارادات الحكام. ففقدوا مصداقيتهم أمام الناس[٢] . يصدرون الفتاوى المتناقضة طبقاً لرغبات الحكام. فاذا ما أراد مقاومة الصهيونية جاء الإسلام متفقاً مع اللاءات الثلاثة، لا صلح ولا اعتراف ولامفاوضات. وإذا أراد الحاكم الصلح خرجت فتوى مؤيدة لذلك اعتمادا على صلح الحديبية ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ [٣].

ومع ذلك ، فالأفغانى بعد مائة عام فى حاجة إلى تطوير على النحو الآتى :

١- تقوية الجانب النظرى فيه حتى يصبح أكثر مطابقة وسنداً للجانب العملى. ربما كان "**الرد على الدهريين**" صحيحاً فى ظروف عصره إذ ارتبطت المادية بأحمد خان المرتبط بالانجليز والذى روج هذا المذهب بدعوى تأسيس العلوم الطبيعية.

---

[١] انظر "رسالة إلى الأجيال القادمة" فى هموم الفكر والوطن جـ٢ دار قباء، القاهرة ١٩٩٨ ص ٥٧٥-٥٦٢

[٢] وقد امتلأت الأمثال العامية سخرية بهم مثل "**هاتوا من المزابل حطوا على المنابر**" ، "**ما كل من لف العمامة يزينها**" ، "**ضلالى وعامل إمام والله حرام**".

[٣] وقد سخرت الأمثال العامية من ذلك أيضاً مثل "**قالوا للقاضى ياسيدنا الحيطة شخ عليها كلب قال : "تنهدم سبع وتنبنى سبع". قالوا دى اللى بينا وبينك، قال : أقل الماء يطهرها**".

كما عبر عن روح القرن التاسع عشر وثورة المتدينين ضد المذهب الذى رمز إليه دارون. وكان مقياس النقد إنكار الألوهية والخلق والمعاد والشرائع الثابتة وبالتالى خطورة نتائجه مثل الالحاد والإباحية والعدمية. ولايعتبر فولتير وروسو من الدهريين العدميين مع الاشتراكيين. والطهطاوى يعتبرهما مع مونتسكيو من كبار العقليين، ويعتبر مونتسكيو ابن خلدون العرب، وابن خلدون مونتسكيو فرنسا، وأنه يقيم فهمه للشرائع على قاعدة الحسن والقبح العقليين. والمذهب الطبيعى موجود فى كل حضارة، عند أصحاب الطبائع من المعتزلة القدماء. ربما ما يحتاجه المسلمون اليوم هو الرد على المثاليين والرجعيين والأصوليين والمحافظين والسلفيين الذين جعلوا الإسلام مجرد عقائد وشعائر، مظاهر ورسوم دون الالتفات إلى الجوهر والمضمون. ربما ما نحتاجه اليوم هو "**دفاعاً عن الدهريين**" حتى يلتفت الناس إلى الطبيعة ويتوجه العقل نحوها فيبدع علوماً رياضية وطبيعية كما أبدع القدماء. وعلى هذا النحو يمكن أن يكون الأساس النظرى مطابقاً للمشروع العملى. فبالطبيعة تكون القوة وعليها يتأسس العلم. كما أن الاكتفاء بإعادة تأويل عقيدة القضاء والقدر تدفع إلى الشجاعة والاقدام والمجازفة بالمخاطر وارتكاب الصعاب والأهوال لا يكفى فى تجاوزها إلى خلق الأفعال وإثبات حرية الإرادة، والتحول من الاشعرية إلى الاعتزال. كما أن محاولة إعادة بناء العقيدة على ثلاث منها، أن الإنسان أشرف ما فى الكون، أن الأمة أشرف الأمم، وأن الدنيا ممر إلى عالم آخر ربما لا تكفى أيضاً لأنها تسقط الألوهية كلية ولا تحيلها إلى فاعلية فى الأرض والخبز والحرية والأمة والتاريخ. كما أن اعتبار الأمة أشرف الأمم بلا شرط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد يوقع فى العنصرية. أما اعتبار الدنيا ممراً إلى الآخرة فلا يحدد اتجاه الغائية ويتركها إلى ما بعد الموت دون إبراز أهميتها فى الدنيا. لم يستطع الأفغانى إعادة بناء نسق العقائد كله لاستعماله كأساس نظرى للثورة. أبقى على تصورات العقائد القديمة، واندفع نحو الخطابة السياسية. فلم تتغير العقائد ولم تغن الحطابة السياسية عن تأسيس الإسلام كعقيدة ثورية قادرة على أن تكون أساساً نظرياً للمشروع الثورى.

٢- بالرغم من تأكيد الأفغانى على العلم وأهميته إلا أن الدين له الأولوية القصوى. فهو سبب الصلاح والفلاح، وتركه سبب الانهيار والهلاك. وأوروبا تقدمت بالعلم

والقوة وأن تركت الدين يأساً من إصلاح رجاله. الدين هو كل شيء تقريباً في فكر الأفغاني، مرشد للحياة، ومشرع للقوانين ومكتشف للعلوم، ومنظم للطبيعة، وكأن الدين غاية في ذاته وليس مجرد وسيلة لغاية أخرى هي سعادة الفرد وكمال المجتمع. بل يبدو الأفغاني أحياناً معلياً من شأن الدين على حساب العلم في رده على رينان. وقد يصل فهم الدين إلى حد التصوف بالرغم من نقده التصوف على أساس أنه مصدر التواكل والكسل. فقد بدأ الأفغاني صوفياً مثل محمد عبده. ويرى أن التصوف موجود في كل دين، وقد يكون هو أساس وحدة الأديان وأن اختلفت الصور والألفاظ، موجود في التوراة متخفياً، وفي الإنجيل بعد أن أوّل المسيح الناموس تأويلاً روحياً. التصوف مذهب الحكماء والعقلاء ترويضاً لنفوسهم. يعكس كالمرآة نور الشمس. وهو ما اتهم بسببه بالقول بالحلول مع أنه انعكاس صورة تجلت لشفافية المرآة. وهو ما يسمى بالشطحات عند ابن عربي والخواص والجنيد والحلاج والجيلي وابن حشيش والسهروردي والبكري. ظاهرها تناقض فيما يتعلق بالحلول الموضوعي أو الذاتي ولكن المعنى واحد(١).

٣- لايكفي المدخل الأخلاقي لبناء الفرد والمجتمع ولاقامة النظم القانونية والسياسية. صحيح أن الأخلاق هي الأساس ولكن الأكتفاء بالفكر الأخلاقي كنظرية إجتماعية وسياسية في حاجة إلى تطوير، والتحول من الفكر الأخلاقي إلى البنية الاجتماعية والأيديولوجية السياسية. لايكفي أن يقال إن محرك التاريخ ثلاث فضائل : الحياء، والصدق، والأمانة. فلماذا هذه دون غيرها؟ وأين العوامل المادية في تحريك التاريخ؟ ولايمكن تفسير الظواهر بعامل واحد أخلاقي أوفردي دون باقي العوامل. ليست قائمة الفضائل مفتاحا سحريا يحل كل مشاكل المجتمع وهي الرذائل، فالمشاكل الاجتماعية أكثر تعقيداً وتحتاج إلى حلول أكثر

(١) التصوف ، الأعمال ص ٢٩٨-٣٠٠ رده علي من أجذ عليه قوله أن أصول الأديان واحدة وأنها من المتناقضات وبحث صوفي، خاطرات ص ٢٠٥-٢٠٨.

تداخلا وتبايناً. لايكفى تصور الاستعمار على أنه انحلال يمكن مقاومته بالأخلاق، وأن المادية رذيلة يمكن مقاومها بالفضيلة، وأنها تجعل الإنسان حيواناً، وأن الاشتراكية، اشتراك فى الأموال والابضاع واباحية. فهى تصورات شائعة شعبية كانت رائجة فى الصحف الدينية المحافظة. ولاتكفى كتحليل علمى وتاريخى دقيق للاستعمار كحركة تاريخية وللمذاهب السياسية كأيديولوجيات علمية.

٣- عبّر الأفغانى عن التيارات الفكرية التى كانت موجودة فى القرن التاسع عشر فى الغرب خاصة المادية والداروينية والاستشراق فكان ضحيته، ولم يستطع تجاوزه. فالمادية والداروينية الحاد وإنحلال. والاستشراق نموذجه رينان الذى ينكر على العرب وعلى الساميين كلهم أصالتهم العلمية طبقاً للنظرية العنصرية. فالمكفر ابن عصره. ولكنه أطلق الأحكام على المذاهب والتيارات دون أن يقيدها بظروف عصرها. وربما كانت الدعوة إلى العلم (الوضعية) والقوة (نيتشه) والتطور (دارون) أخص ما يميز روح القرن التاسع عشر. وتكون مهمة الأجيال التالية فى الاصلاح نقل الأفغانى من الجو الفكرى فى القرن الماضى إلى الجو الفكرى فى هذا القرن بكل ما فيه من تحولات، من الاستعمار البريطانى القديم إلى الاستعمار الامريكى الجديد، ونشأة الصهيونية وإقامة دولتها فى فلسطين، وانهيار النظم الشرقية، وبزوغ أفريقيا وحركة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا.

٥- بالرغم من نقد الأفغانى الغرب الاستعمارى المهيمن والمسيطر على الشرق إلا أن الغرب لديه كما هو الحال لدى رواد عصر النهضة بتياراته الثلاثة: الاصلاح الدينى عند الأفغانى، والليبرالية عن الطهطاوى، والعلمية العلمانية عند شبلى شميل، هو نمط التحديث ونموذج التقدم والقدوة فى الرقى والعمران، وكأن لسان حاله يقول : فداونى بالتى كانت هى الداء. وقد أدى ذلك إلى الانبهار بالغرب بعد مائة عام إلى مزيد من التغريب حتى نشأ رد الفعل السلفى عليه وشق الصف الوطنى بين العلمانية والسلفية إلى حد الاقتتال فى الجزائر وتهديد وحدة الدولة

فى تركيا والتخوين والتكفير المتبادلين فى مصر وتونس والعراق وسوريا وشبه الجزيرة العربية. فهل يمكن لجيل جديد أن يحول الموقف من الغـرب مـن نطـاق المواقف الانفعالية، الانبهار بالغرب أو رفض الغرب إلى أن يصبح الغرب موضوعا للعلم بدلا من أن يكون فقط مصدراً للعلم؟ ألا يمكن أن يتعود العرب المحدثون دراسة الغرب، نشأة وتطوراً، تكويناً وبنية كما درس القدماء اليونان والصين، وأن يؤسسوا علم الاستغراب فى مقابل الاستشراق، وأن يصبح الوعى العربى ذاتـاً، والغرب موضوعاً، بدلا من أن يكون الغرب ذاتا والعرب هم الموضوع؟ ألا يمكن التعامل مع الغرب من موقف الندية المعرفية كمقدمة للندية السياسية والاقتصادية والعسكرية؟[1].

٦- مازالت أداة التغيير الأثيرة عند الأفغانى هى السلطة السياسية طبقاً للقول المأثور عن عثمان "**ان الله يزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن**". لذلك يتوجه الأفغانى إلى الحكام، السلطان عبد الحميد، خديوى مصر، شاه إيران، ملك أفغانستان. فقد عمل من خلال السلطان عبد الحميد ومبايعته ثم خلع البيعة، وأمير افغانستان عبد الرحمن خان، وشاه إيران للتوحيد بين إيران وافغانستان، وعباس حلمى خديوى مصر. كما يعمل من خلال النخبة المثقفة والصفوة العالمة من الأزهر والقواد والأمراء أهل العلم والقوة بالرغم من دعوته إلى الجماهير وتثويره للشعوب وندائه على المسلمين الذباب الذين يصم طنينه آذان بريطانيا أوالجراد الذى يغرق الجزيرة البريطانية بثقله وكثرة عدده. كما لم يحل قضية ازدواجية السلطة السياسية والسلطة الدينية، وهل وظيفة الثانية ارشاد الأولى دون توقع الصدام بينهما ورغبة كل منهما فى السيطرة على الأخرى، مما أدى إلى الفصل بينهما فى العلمانية الغربية الحديثة، دون التوحيد بينهما كما تبغى الحركة السلفية المعاصرة. صحيح أنه من كبار الداعين للديموقراطية والشورى

---

[1] هذا ما حاولناه فى "مقدمة فى علم الاستغراب"، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١. المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ١٩٩٤ .

والدستور إيجاباً مما أدى إلى تعثرها. ولم يستطع القضاء سلبا على الجذور التاريخية والثقافية التى تمنع من الحرية والديموقراطية فى وجداننا المعاصر[١].

٧- مازال يغلب على فكر الأفغانى تقنين ما ينبغى أن يكون أكثر من تحليل ما هو كائن، وأسلوب الماينبغيات والواجبات مما يجعل من الصعب التمييز بين العلم والأخلاق، بين الواقع والمثال، بين الممكن والواجب، بين الوصف والمعيار، بين الفرع والأصل. وهى طبيعة الفكر التقليدى الذى يتصور الوحى على أنه نمط مثالى مستقل عن الواقع والتاريخ وليس حركة فاعلة فيه. من السهل صياغة خطاب أخلاقى يعبر عن أشواق الناس وتمنياتهم. ومن الصعب تحليل الواقع الموضوعى ومعرفة مكوناته وفعالياته ومساره. لذلك ندر أن يكون من بين المصلحين علماء اجتماع وليس علماء دين. فعالم الاجتماع هو الذى يبدأ من الواقع الاجتماعى، ويضع له تخطيطاً من أجل التغيير الاجتماعى. الاصلاح الدينى بمعنى ما ينبغى أن يكون مفيدا فى مرحلة اليقظة ولكن يصبح مجرد خطابة فى مرحلة التغير الاجتماعى. ويجوز فى مرحلة الثورة ولكن يعجز عن أن يتحول إلى مرحلة الدولة التى تتطلب التحول من الاصلاح الدينى إلى العلم السياسى. إن الوحى ليس فقط مثالاً بل واقعاً. ولا يصف فقط ما ينبغى أن يكون بل أيضاً ما هو كائن[٢].

٨- يغلب أسلوب الخطابة والحماسة والنداءات والأوامر. كما حضرت التشبيهات والصور البلاغية والاساطير والرموز، وتشبيهات الصحة والمرض والداء والدواء والجسم الحى. كما امتلأ بالشعر للاستشهاد به. فالشعر فى الوجدان العربى مازال يقوم بدور القرآن والحديث والأمثال. كما غلبت العبارات القصيرة

---

[١] انظر دراستنا "الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديموقراطية فى وجداننا المعاصر فى "الدين والثورة فى مصر" جـ٢ الدين والتحرر الثقافى ص ٩٩-١١٨.

[٢] انظر دراستنا "الوحى والواقع" دراسة فى أسباب النزول "، فى "هموم الفكر والوطن" جـ١ التراث والعصر والحداثة، قباء، القاهرة ١٩٩٨ ص ١٧-٥٦.

والمواعظ المركزة التى يسهل حفظها ونقلها شفاها، وهى من جوامع الكلم. ولا فرق فى ذلك بين القرآن النص والقرآن الحر. فالانسان خلق جهولا، خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا[1]. وهى كلها أساليب بلاغية فى الخطاب الاصلاحى يتفق مع المضمون الفكرى والهدف الشعبى. وربما يحتاج الأمر بعد مائة عام إلى التحول من القول الخطابى والقول الجدلى إلى القول البرهانى بمصطلحات ابن رشد من أجل مزيد من الاحكام للخطاب الاصلاحى حتى يتحول إلى خطاب علمى كما هو الحال فى العلوم الانسانية. فالاصلاح والتحديث والتغير الاجتماعى أصبحت الآن من الموضوعات الرئيسية فى علم الاجتماع بكافة فروعه خاصة علم الاجتماع السياسى، علم اجتماع الثقافة، علم اجتماع المعرفة.

إن الشعوب الآن تعى مصالحها. وانتهت مرحلة اليقظة. ولكنها تبحث الآن عن وسائل التحقيق وطرق العمل، ومناهج للتفكير، ولأنواع جديدة من الخطاب السياسى والثقافى. فهل يستطيع الأفغانى بعد مائة عام أن يُبعث من جديد فى أحفاده، وتُعاد صياغته بحيث تعود إلى حركة الاصلاح حيويتها الأولى من أجل تجاوز الاستقطاب الحالى بين الخطابين السلفى والعلمانى، وحشد الجماهير بثقافة جديدة، وتقوية الدولة برؤية جديدة لدورها فى الداخل والخارج، واكمال المشروع الاصلاحى التحررى الوطنى المتحد مع المشروع التحررى القومى من أجل النهوض بالاصلاح بعد كبوته وإقالة حركة التحرر الوطنى بعد عثرتها، وإدخال هذا الجيل كله من جديد داخل حركة التاريخ.

---

[1] الرد على الدهريين، الأعمال ص ١٤٠.

المحتويـــات

لنفس المؤلف

اولاً – تحقيق وتقديم وتعليق :

١– أبو الحسين البصرى : المعتمد فى أصول الفقه، جزءان. المعهد الفرنسى، دمشق ١٩٦٣–١٩٦٥.

٢– الحكومة الاسلامية للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٧٩.

٣– جهاد النفس أو الجهاد الأكبر للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٨٠.

ثانياً – إعداد واشراف ونشر :

١–اليسار الإسلامى، كتابات فى النهضة الاسلامية، العدد الأول، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨١.

ثالثاً – ترجمة وتقديم وتعليق :

١– نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لاوغسطين، الإيمان باحثاً عن العقل لأنسيلم، الوجود والماهية لتوما الاكوينى)، الطبعة الاولى، دار الكتب الجامعية، الاسكندرية ١٩٦٨، الطبعة الثانية، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٢– اسبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثانية، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١، الطبعة الثالثة، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١، الطبعة الرابعة، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٤.

٣- لسنج : تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

٤- جان بول سارتر. تعالى الانا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

رابعاً – مؤلفات بالعربية :

١- قضايا معاصرة، الجزء الأول، فى فكرنا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦، الطبعة الثانية. دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٧، الطبعة الرابعة، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٩١.

٢- قضايا معاصرة، الجزء الثانى، فى الفكر الغربى المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٨. الطبعة الرابعة، المؤسسة الجامعية للدراسات بيروت ١٩٩١.

٣- التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، الطبعة الأولى، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، الانجلو المصرية القاهرة ١٩٨٧. الطبعة الرابعة، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٩٢.

٤- دراسات إسلامية، الطبعة الأولى، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

٥- من العقيدة إلى الثورة، محاولة لاعادة بناء علم أصول الدين، (خمسة مجلدات) الطبعة الأولى، مدبولى، القاهرة ١٩٨٨، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٨.

٦- دراسات فلسفية، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨. الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٩٦.

٧- مقدمة فى علم الاستغراب، الطبعة الأولى، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١، الطبعة الثانية، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٩٤.

٨- حوار المشرق والمغرب (بالاشتراك مع الجابرى) دار توبقال، الدار البيضاء. ١٩٩١ مدبولى، القاهرة ١٩٩١.

٩- هموم الفكر والوطن (جزءان) ١- التراث والعصر والحداثة، ٢- الفكر العربى المعاصر، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.

خامساً - مؤلفات بالفرنسية والانجليزية:

1- Les Méthodes d'Exégèse essai sur la science des fondements de la Compréhesion, ilm usul al-Fiqh, Le Caire, 1965.

2- L'exégèse de la phénoménologie, l'état actuel de la méthode phénoménologique et son application au phénomène religieux (Paris, 1965). Le Caire, 1980.

3- La Phénoménologie de l'Exégèse, essai d'une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966), Le Caire, 1988.

4- Religious Dialogue and Revolution, esays on Judaism, Christianity and Islam, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1977.

5- Islam in the Moderm World, 2vols, vol,I Religion Ideology and Development, Vol, II Tradition, Rvolution and Culture, Anglo - Egyption Bookshop, Cairo 1995.

هذا الكتاب

فى الذكرى المائوية الأولى لجمال الدين الأفغانى (١٨٩٧-١٩٩٧) رائد الحركة الإصلاحية الحديثة يصدر هذا الكتاب فى عصر الاستقطاب الفكرى بين الخطاب السلفى الذى يعرف كيف يقول ولكنه لا يعرف ماذا يقول ، والخطاب العلمانى الذى يعرف ماذا يقول ولكنه لا يعرف كيف يقول. يقدم الأفغانى الإسلام الثورى خطابا ثالثا يعرف كيف يقول وماذا يقول ليتجاوز استقطاب الخطابين السلفى والعلمى، ويعقد حوارا يهدف إلى وحدة الثقافة الوطنية، ويجدد الخطاب التراثى القديم كى يكون حاملا لتحديات العصر.

ولا يكتفى الكتاب بعرض أفكار الأفغانى فى سبعة فصول: الموضوع والمنهج، الرد على الدهريين، الحرية والعقل، الأخلاق الفردية والأخلاق الإجتماعية، الأنا والآخر، مصر والشرق، الأمة فى التاريخ، ولكنه يحاول إعادة كتابة نص الأفغانى بعد مائة عام من كبوة الإصلاح، من الأفغانى إلى محمد عبده بسبب فشل الثورة العرابية فى مصر، ومن محمد عبده إلى رشيد رضا بسبب نجاح الثورة الكمالية فى تركيا، ومن رشيد رضا إلى حسن البنا ثم سيد قطب بسبب الصدام بين الإخوان والثور ة فى ١٩٥٤ فى مصر.

ويضع الكتاب سؤالا رئيسيا: ألا يحتاج الفكر الإصلاحى إلى أيديولوجية ثورية أكثر جذرية من الرد على الدهريين حتى تكون النظرية الثورية على مستوى العمل الثورى؟ هل يمكن التحول من الرد على الدهريين إلى الدفاع عن الدهريين باسم الشرع، وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والتعليل والقياس والمصالح العام

عبده غريب